ابراهيم المصري

وَحيُ العَصْرِ

ملتزمة نشره

مكتبة الهلال

٦٥ شارع الفجالة بمصر

ابراهيم المصري

وحي العصر

مكتبة الهلال
٦٥ شارع الفجالة بمصر

للمؤلف

الادب الحى

(مذيل بقصة مصرية « سخرية الميول » ورواية مسرحية « الانانيه »)

الادب الحديث

(مذيل بقصة مصرية « الخريف »)

الفكر والعالم

(مذيل بقصة مسرحية « نحو النور »)

صوت الجيل

(مجموعة دراسات فى الاجتماع والادب)

تحت الطبع

الملكة نيتوكريس : (قصة مصرية تاريخية)

فهرست

دراسات ادبيه

اجتماعيـات

صرخات

وجوه وارواح

قصص

دراسات أدبية

وعي البيئة والعصر

في الادب الحديث

من أهم العناصر التي يجب أن تتوافر خصائصها في نفس الاديب كي يبدع أدبا حيا جديراً بالبقاء ما أسميه وعي البيئة والعصر .

فالناقد الذي يشتغل بدراسة الاعمال الادبية يجب أن يكشف عن العلاقة الوثيقة التي تربط هذه الاعمال بروح البيئة التي خرجت منها وروح العصر الذي ظهرت فيه .

والقصصي الذي يعني برسم العواطف والاخلاق يجب أن يصور ويحلل مختلف التفاعلات التي تحدثها أنظمة البيئة وتقاليدها وتيارات العصر واتجاهاته في نمو تلك العواطف والاخلاق وتطوراتها

والشاعر الذي يتغني بجمال الطبيعة وروعة الميول والاحساسات يجب أن يستلهم البيئة التي يعيش فيها وطابع العصر الذي يؤثر في هذه البيئة

ولا شك أن المهمة الاولى الملقاة علي عاتق الاديب المتفوق هي أن يبحث عن شخصيته ويؤكد هذه الشخصية ويشعر القارئ على الدوام بتفردها واستقلالها في التفكير والاحساس والاداء .

ولكن استقلال الشخصية وحده لا يكفي إذ لابد من الشعور العميق بوحي البيئة والعصر كي تخرج الاعمال الادبية مكتملة شروط الصدق والحقيقة والحياة

وفي وسعك أن تفتح أي كتاب أدب لاي أديب أوربي كبير لتتثبت من صحة ما نذهب اليه

ان الادب هناك يرتكز على تلك الدعائم الثلاث : شخصية مبتكرة مستقلة ، وشعور بالغ بمميزات البيئة ، واحساس شديد بروح العصر .

ولقد كان الادب الاوربي فيما مضى يرتكز على شخصية الاديب وعلى انعكاس أظهر مؤثرات البيئة في أدبه فلما ازدهرت الحضارة الصناعية وقربت مسافة الخلف بين الامم وسهلت المواصلات وساعدت على التبادل الفكري وخلقت مشاكل سياسية واجتماعية واقتصادية عامة أحس الادباء أن لا بد لهم من تلقيح أدبهم بقوة جديدة وهذه القوة هى استلهام روح العصر والاقبال على دراسة مشاكله والمساهمة فى تقدمه وتطوره

وأصبح الاديب الكبير اليوم يقرأ في أى جانب من جوانب العالم فيفهم ويقدر دون أن يفقد شيئا من خصائص جنسه وطابع البيئة التى تميزه

ونحن في مصر نقرأ كبار أدباء الغرب المعاصرين فنعجب بهم لا لاننا نجتاز فى حياتنا الاجتماعية والنفسية مرحلة خطيرة من مراحل التطور والتجدد والنهوض فحسب . بل لان الحضارة أصبحت واحدة ولان روح العصر يحمل في تضاعيفه عناصر مشتركة يشعر بها كل فرد في كل أمة أخذت ولو بقسط يسير من أسباب هذه الحضارة

فأثر العصر في أعمال أولئك الادباء هو الذي يجتذبنا ويصادف من نفوسنا هوى عميقا ويتمشى مع مستلزمات نهضتنا . فكأننا نلمح فيهم الصورة التى نود أن تكون لنا والمظهر الذي نسعى للظهور به والحافز الذي يحفزنا لاستعجال تطورنا والحياة في عصرنا

والواقع أن معظم شبابنا المتأدبين لايطالعون الادب الاجنبي القديم قدر مايطالعون الادب الحديث . وهم أعرف بولز وبرناردشو والدوس هكسلي ورومان رولان وأضرابهم منهم بابطال الادب الاجنبي القديم والسر فى هذا حاجتهم الى من يخاطبهم عن عصرهم والى من يستجيب الى نداء العصر فيهم والى من يشعرهم بانهم الآن أحياء ، وقد يكون السبب الرئيسي في انصراف البعض منهم عن الادب العربي القديم اتساع الهوة بين هذا الادب وبين ماتتمخض عنه قرائح أدباء الغرب مما له اتصال بمشاكل عصرنا

ونحن نفهم أن لاغنى لشبابنا عن الاقبال على دراسة الادب القديم سواء فيه العربي والاجنبي ولكن ليس في وسعنا إلا أن نسلم بهذه الظاهرة الملحوظة الآن وتمكنها من عقول شبان الجيل الجديد جميعا في مصر كما في العالمين الاوربي والامريكي

واذن فوعي البيئة والعصر من أهم شروط الادب الحديث فهل فكر أدباؤنا في هذا . وهل حاولوا تحقيق هذا الشرط في أعمالهم الادبية ؟

إننا نطرح عليهم هذا السؤال لعلمنا ان الاغلبية البارزة منهم قد ظفرت بقسط وافر من الثقافة الاجنبية وأنها تطالع إنتاج أدباء أوربا المعاصرين وأنها تساير النهضة العالمية الحاضرة وتعرف نزعاتها وميولها واتجاهاتها

ولكن يلوح لنا على الرغم من ذلك أن هناك فريقا من أدبائنا لم ينتفع بثقافته الاجنبية أو هو لايحسن فهم تلك الثقافة أو هو لايستطيع تطبيق نزعتها على ما تجود به قريحته من أعمال

اننا نطلب الى الاديب المصرى أن يشعر شعوراً قويا عميقا بمميزات جنسه وعنصره والارض التي نشأ فيها والشعب الذى ينتمى اليه وبحاجات هذا الشعب ومطالبه وأمثلته العليا ، وان يبذل قصاراه في التقرب اليه وفهم عقليته وتصوير حياته والتعبير عن آماله وآلامه والاندماج التام في محيطه وطبيعة بلاده ، وهذا هو وعي البيئة . كما نطلب اليه أن يتجه بأبصاره في نفس الوقت نحو الحياة الرحبة المترامية ، التي تصطخب حوله وتدوى فيحاول أن يدرسها ويفهمها ويبحث مشاكلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ليحكم الصلة بينها وبين بلاده ويرقب تفاعلهما المطرد ويساهم في حركة تطور وطنه ويلحق هذا الوطن بالعالم المتحضر . وهذا هو وعي العصر .

ومما لايقبل الريب أن كثيراً من أدبائنا ينحون هذا النحو ولا سيما الذين يعنون منهم بوضع الدراسات والابحاث الاجتماعية والادبية التي تتطلب بطبيعتها معالجة مشاكل المجتمع المصرى ومختلف مشاكل العالم ذات التأثير اليومي في البيئة المصرية .

ولكن ليس هذا الفريق هو الذى نقصد وانما نريد بكلمتنا أولئك الادباء المصريين الخلاقين الذين يحاولون وضع القصص والذين يقرضون الشعر .

فالكاتب المصري القصصي أخذ يشعر بوحي البيئة ولكنه لم يحس حتى الساعة وحي العصر .

ان في معظم القصص المصرية الحديثة ألوانا مختلفة من حياتنــا المحليــة ، وملاحظات صادقة منتزعة من صميم أخلاقنا وعاداتنا ، ورغبة واضحة فى دراسة نفسية هذه الامة ولكن ليس في واحدة منها أية صورة تدل دلالة بالغة على التأثير العميق الذى أحدثته روح هذا العصر ومشاكله وتطوره الجبار السريع فى عقليتنا وفي عقلية الكاتب القصصي نفسه

ان عصرنا عصر صناعة واقتصاد والكتلة العاملة ذات مركز خطير فيه فهل فكر روائى مصرى في هــذه الناحية من حياتنا ؟ هل فكر مثلا في دراسة حيــاة الكتلة العاملة المصرية من فلاحين وعمال ورسم أخلاقها وعاداتها وكفاحها اليومي المجيد وحاجاتها ومطالبها فى قالب قصة ؟

ان مثل هذا العمل الذي توحى به النزعة الاقتصادية الشائعة في عصرناوالذي يدل على تمكن روح العصر من نفس المؤلف لا وجود له ولا لاشباهه فى قصصنا .

وفي وسعنا أن نضرب أمثلة أخرى لموضوعات أخرى تحقق فى القصة الحديثة وحي البيئة والعصر كأن يحاول الروائى وصف الصراع القائم الآن في بيوتنــا بين القديم والجديد . بين الجيل الماضي والجيل الحاضر ، بين حضارة زراعية فطرية وحضارة صناعية علمية طغت علينا فجأة وتوشك اليوم أن تحتــل عقولنا وقلوبنا . ولكن أمثال هذه الموضوعات لا تخطر ببال أدبائنا الروائيين الا في القليل النادر

أما شعراؤنا فما يزال معظمهم عربي الوحي عربي النزعة عربي الخيال والتفكير ينسج على منوال المتنبي أو البحتري تستخفه روعة الشكل واشراق الديباجة والهدير الموسيقى اللفظي فيكتفى بها وينصرف اليها دون الجوهر العاطفي الانساني

والملاحظ في أولئك الشعراء أن وحي البيئة المصرية لا أثر منه البتة فى شعرهم.

لاميول واحساسات سكان المدن . ولا ميول واحساسات أهل الريف . ولامحاولة رسم المشاهد المختلفة الشائعة في الطبيعة المصرية الساحرة بصفائها وجلالها .

أين هو صوت ابن المدينة الثائر المتمرد المضطرب بين حضارتين ، أين آماله وآلامه ، أين الصورة التي يتفرد فيها بالحب واحساس الحياة. بل أين صورة العذاب الدفين الذي يشعر به من نحو المرأة المصرية التى يطلبها ولا يجدها . تتوق نفسه اليها فتحجبها عنه أوضاع المجتمع ؟ . .

وأين هو صوت ابن الريف المجاهد المحتمل الصابر المتألم وأين الساقية والشادوف والحراث وأغانى الفلاحات جامعات القطن ومناظر الغيطان والمزارع وكل ما يحببنا في بلادنا ويقربنا الى أفئدة فلاحينا ويوثق العرى بيننا وبينهم ويغرى المتعلمين بحب الشعب والعطف عليه والاخذ بيده وتأدية واجبهم المقدس نحوه ؟

لا شيء من هذا في شعر اولئك الشعراء بل أنات وشكايات وندب ونواح وبكاء وأنين وعواطف مخنثة مرذولة تنطلق من صدور واهية وأبدان فانية وعقول خائرة ونفوس يجذبها الموت الى الحضيض !

وفى استطاعتنا أن نصرح هنا بان من الزجالين في هـذا البلد من تفوق على بعض الشعراء في احساس البيئة المصرية ومحاولة التعبير عنها . وليس معنى هـذا ان كل شعرائنا مصابون بذلك الداء إذ هناك طائفة منهم تلمح في كثير من أعمالهـا ألوانا مصرية صادقة موزعة بين القصائد والابيات وشيئاً من خصائص الروح المصرية كالرقة والعذوبة والعطف السريع على آلام الغـير وصفاء القلب ورحابة الانسانية ، ولكننا لا نريد بعض أبيات مصرية موزعة ولا نكتفي ببعض ظواهر الروح المصرية. انما نحن نطلب الصورة المصرية كاملة والروح المصري كاملا والوحي المصري عميقا يشمل طبيعة بلادنا ونفسية شعبها وأفرادها

ان تاغور لا يعبر عن المزاج الهندي فحسب أو الروح الهندية فحسب بل هو يعطيك صورا كاملة من الحياة الهندية أيضاً .

انه يصور ويستلهم الفلاحة المتواضعة والسيدة الموسرة الكبيرة والشاب المصري

المتمرد والشيخ المتحفظ الحكيم والعادات والاخلاق والأنهر والهياكل والطبيعة المندية بامرها . وكل ذلك يصوره فكرة وروحاء صورة واحساساء خيالا وحقيقة .

أما ذلك النفر من شعرائنا فلا ينفك يتغني بالحب ولا ينفك يشكو ويتضرع ويتوسل ويستصرخ في ذل شائن بغيض

وعندي ان اكثرهم لم يعرف المرأة أبدا ولم يتصل بها ولم يخالطها ولم يقف على جوهر اخلاقها ولم يدر ما هو الحب .ولو كان قد احب حقيقة لحاول أن يرسم هذه العاطفة ونموها وتطورها وشتى الانفعالات المتفرعة منها بحيث يعطينا صورة صادقة عنها وعن شخصية المرأة التى اضرمتها في نفسه وجسمه .

ولكن أولئك النفر يموهون الحب على انفسهم ويصطنعونه اصطناعا ويتخيلونه بالفكر ويخدعون قلوبهم ويكذبون على القراء .

والواقع أنهم لا يحدثوننا عن الحب بل عن رغبتهم الشديدة فيه وتحرقهم عليه وسعيهم الدائم اليه على غير جدوى وهذا هو سر تلك الشكايات والضراعات والتوسلات التي لا نهاية لها

أما الحقيقة فهي أن المرأة لم تلهمهم شيئاً لانها بعيدة عنهم . بعيدة فى مصر عن الرجال . لم تعش بعد مجتمعاتهم ولم تتصل بهم عن طريق الفكر والقلب ولم تؤثر في اتجاهات ميولهم واحساساتهم على الرغم من ظهورها سافرة فىالطرقات ومسارح التمثيل ودور السينما .

ان المجتمع المصري المختلط المتزن المحتشم ، خالق العواطف النبيلة وباعث الاحساسات القوية، لم يخلق بعد فما ضر أولئك الشعراء لو صوروا في قصائدهم رجع صدى هذا النقص فى نفوسهم، ماضرهم لو عدلوا عن التغنى بالحب الزائف ورسموا فى شعرهم ثورة نفوسهم على هذا النقص وعلى هذا الوضع الاجتماعي الشاذ وما تولده تلك الثورة فيهم من عواطف الملل والضجر والحيرة والتشاؤم والتبرم واليأس والفراغ الوجداني التى كثيراً ما تطوح بافراد هذا الشعب الى طلب الحب في أوساط تتاجر به ولا تعرف منه غير اشباع الغريزة الحيوانية النكراء

ولأن يرسل أولئك الشعراء في شعرهم صورا قاتمة سوداء وصرخات حارة ممزقة فيكونوا فنانين صادقين ، خير لهم من أن يموهوا على أنفسهم الحب فينشروا الكذب والنفاق ويوسعوا مسافة الخلف بينهم وبين جماهير الشعب . ولو فعلوا لازدادوا صلة بقرائهم وساعدوا على تطور بلادهم وخدموا النهضة الاجتماعية من حيث لايشعرون وعبروا التعبير الصحيح عن روح بيئتهم

ولن يكتمل وعي البيئة ولن تتجلى قدرة الشعراء في التعبير عنها إلا متى وضع الشاعر نصب عينيه وجوب الاندماج في الشعب وملاحظة حياته والوقوف على جوانبها الشعرية المجيدة ، ومتى فهم الشعب فسوف يحبه فيجيد تصويره والتغني به

وانا لننتهز هذه الفرصة لنهيب بشعرائنا جميعاً أن انفضوا عنكم ثوب المتحضرين المترفين الضاربين حول أشخاصهم نطاقا محرما قدسيا وانزلوا الى الشعب. اختلطوا به وامتزجوا فيه وعيشوا معه .

انظروا في المدينة الى العامل ابن البلد وكيف يحب ويتألم ويجاهد . واذهبوا إلى الريف فاحنوا جباهكم أمام الفلاح !

ذلك هو سبيل الوحي الاسمى وفي استلهامه مجدكم وخلودكم لو كنتم تعلمون !

أما وعي العصر فمن السهل على شعرائنا ادماجه في شعرهم من ناحية تجديد الشكل والوضع والاوزان وأساليب التعبير . إذ هم ليسوا مكلفين بمعالجة المشاكل الاجتماعية الراهنة أو محاولة تصويرها كما يجب أن يفعل واضعوا الدراسات والقصص

ان عصرنا الحالي عصر سرعة وتوثب فكري ووجداني وتغلغل علمي في صميم العواطف وأخفى الميول البشرية . وقد فطن الى هذا شعراء الغرب المعاصرين كجان كوكتو وبول فاليري في فرنسا و .ت. س.اليوت في انجلترا وستيفان جورج في المانيا وماريا ريلك في النمسا، فحاولوا تجديد وحيكم على ضوئه وتطبيق خصائصه على شعركم من حيث السرعة في تخيل المرئيات والسرعة في تصوير تهافت العواطف والالوان دفعة واحدة على النفس الانسانية ، والامعان في رسم الانفعالات الدقيقة الكامنة في اغوار العقل الباطن التى لاتكاد تطفو وتسبح على سطح الشخصية ساعة التأمل

والوحدة والحلم حتى تكشف عن حقيقة الانسان ثم لاتلبث أن تتبدد ، والاجتهاد في ملاحظة أتفه الاشياء لاستخراج الجوانب الشعرية منها وجعل العالم في أبسط مظاهره وحدة حية من جمال !

واقد استعانوا في الغرب لتأدية هذه الاغراض باساليب جديدة وأوزان مبتكرة وفنون رمزيه طريفه فاجادوا التعبير عن نفسية عصرهم . وفي وسع شعرائنا ومعظمهم يحسن لغة أجنبيه أن يطالعوا أعمالهم وأعمال ناقديهم وشراحهم وينعموا النظر فيها ويهتدوا بها ويجددوا في ضوئها أوضاع شعرهم المصري العربي وأوزانه ليتحقق فيه وحي البيئه ووحي العصر .

وما نقوله عن الشعراء يسرى على القصصيين أيضاً .وقد اعترفنا لهم بان في قصصهم بعض الوان مصرية واضحة ثم اشرنا الى فقر تلك القصص في الموضوعات المعبرة عن روح العصر وأثره في حياتنا الاجتماعية والنفسية

ونضيف الى ما تقدم ان القصة المصريه ماتزال بعيدة عن روح العصر لا فيما يتعلق باختيار الموضوعات فقط بل فيما يتعلق بالشكل والفن والوضع الظاهري أيضاً .

ويلاحظ ان معظم كتاب القصص عندنا ينحون نحو الادب الروسي الذي يقرن الواقع بالاحساس الشعرى أو نحو مذهب الناتور السم في الادب الفرنسى الذي يرسم الواقع المنظور على علاته رسما أقرب ما يكون الى الفن الفوتوغرافي المحض

ولكن نهضة القصة في الغرب اليوم قائمة علي نفس الدعائم التي ذكرناهاوالتى تقوم عليها نهضة الشعر ، وقد تعددت فيها المذاهب وتنوعت أساليب الوضع وطرائق الاداء .

فهناك قصص تستند الى التحليل النفساني المباشر ، وقصص تنهض على وفرة الملاحظات التى توحى بالعاطفة دون أن تحللها بصفة مباشرة ، وأخرى تقوم على التغني ببعض الانفعالات والخلجات القلبية فى اسلوب موسيقى رائع يجعلها أشبه شيء بقصائد من الشعر المنثور ، وغيرها تستمد قوتها من السرعة في رسم أوضح أجزاء المشاهد الطبيعية ، والسرعة في رسم الميول والاهواء والشخصيات، ومحاولة التوفيق

بين استعارات ومجازات متناقضة متباعدة يشعرك التئامها الفجائى في منظر واحد ان هذا المنظر قد حوى الكثير من ألوان الحياة وان الحياة قد حشدت فيه حشداً وانك تشهده من طيارة أو تجتازه اجتيازاً وأنت في سيارتك .

وهناك غير هذه الطرائق والاوضاع وكلها تدل على الاثر البالغ الذي أحدثه روح عصرنا فى فنون كبار القصصيين الاجانب والذي فى مقدور كتاب القصة عندنا تشربه والاندماج فيه بمطالعة أعمال روائيين أفذاذ كمارسل بروستواندريه جيد وتوماس مان والدوسهكسلى وبول موران ولورنس وأضرابهم اهتداء بهديهم واسترشاداً بجهودهم في سبيل ايجاد أعمال قصصية ممتازة تحمل طابع الكاتبالمصرى المستقل وطابع عصره وبيئته

ولرب معترض يقول ولكن هناك أدبا آخر غير ذلك الذي تتمثل فيه روح البيئة والعصر .هناك أدب انساني النزعة يهتم برسموتحليلالعواطف الابدية المشتركة وليس من الضروري أن يتقيد بطابع بيئة محدودة أو بروح عصر معين .

ونحن نجيب على هذا الاعتراض بان ليس فى العالم أعمال أدبية جديرة بهذا الاسم لاتشف عن وعي البيئة التى نبتت منها والعصر الذي ظهرت فيهبالغة مابلغت من رحابة النزعة الانسانية

ان وعى البيئة والعصر ممثلا أبلغ تمثيل فى شتى الاعمال العظيمة التى خلفها لنا الادب الاغريقى والادب العربي والادب الاوربي ونحن ندرسالآن تلكالبيئات والعصور المتنوعة بواسطة مخلفاتها الادبية العظيمة

وهذا شيء طبيعى إذ الاديب الكبير مرآة بيئته وصورة عصرهيمثلهمااصدق تمثيل ليشرف منهما آخر الامر على الانسانية جمعاء

ويجب أن نسلم أن وعي البيئة هو الذى ترتكز عليه شخصية الاديب الفذ

وهو الذى يلهمه مادته الفنية الاولى ، وطابعه المستقل ، ونغمته المفردة ، واحساسه الخاص بالحياة والا حار واختبل وفقد اتصاله بالارض التي أوجدته والتى لابد أن ينمو فنه فيها ويترعرع كما ينمو الانسان الحي سواء بسواء .

أما روح العصر فمع اعترافنا بانه ممثل في أعمال كبار أدباء القرون الماضية من شعراء وقصصيين وواضعي دراسات لانجد بدا من القول بانهم كانوا يشعرون به ويصورون تفاعله في نفوسهم من ناحية الوجدان الفني فقط ،وأنهم لم يحسوا ضرورة حيوية تقتضيهم التغلغل فيه وبحث ظواهره ودراسة هذه الظواهر والاشتغال بالاجتماعيات واتخاذها مادة لاعمالهم الفنية

والسبب فى ذاك أن حضارتهم كانت بدائية ساذجة وأن مجتمعهم كان فطرياً بسيطاً لم تعصف به التيارات الاقتصادية والسياسية والخلقية التي تعصف بنا الآن والتي خلقتها حضارتنا الصناعية

كان الاديب إذ ذاك أديباً وفنانا فحسب أما اليوم فهو رجل مثقف مستنير نصف عالم تطالبه الجماهير المستنيرة بالحياة معها والاهتمام بمشاكلها الحاضرة كما يضطره عصره الى دراسة الاجتماعيات والاقتصاديات ليستطيع أن يعبر التعبير الصادق عما يضطرم فى نفوس أفراده

اذن فوعي البيئة كاملا ووعى العصر قويا شاملا لا بد من توافر عناصرهما اليوم في شخصية الاديب المجدد

وليس في هذا مايتعارض والنزعة الانسانية . لان هذه النزعة ترجع الى مزاج الاديب وبعد خياله ومدى تصوره ومرمى تأملاته ورحابة نفسه . وهو لن يستطيع فى هذا العصر توكيد تلك النزعة في أعمال أدبية رائعة تهز قلوب الناس إلا بعد أن يندمج في بيئته ويفهم ويحب أبناء جنسه ويدرس ويفحص مشاكل عصره

وهذا تاغور الذي تتمثل فيه النزعة الانسانية يبدو في أعماله الادبية رجلا هنديا صميما ورجلا أوربيا مثقفا متحضراً يتحدث عن مشاكل عصرنا حديث باحث اجتماعي واقتصادي أصيل .

وما يصدق على تاغور يصدق على جميع أدباء عصرنا الانسانيين أمثال رومان رولان وهنري برجسون واندريه جيد وبرناردشو ولورنس وأمثالهم

فالى هذا الادب الحي الجديد الذي يشمل وعي البيئة والعصر ويفيض منهما على الانسانية يجب أن تتجه جهود أدبائنا الناشئين مع احتفاظ كل منهم بطابع وحيه الخاص وجوهر شخصيته المصرية

الصدق في الادب والحياة

يلوح لي أن الفضائل التي تستهوينا فى الادب الاجنبي تنبع من فضيلة واحدة لا نلمسها في الادب العربي إلا نادراً . وهذه الفضيلة هي الصدق .

فالادب في نظرنا متعة كالمرأة والخمر وكل ما يلهب الحس ويستفز العصب ويذهب بالعقل وينسي الحياة الواقعة.

وكما اننا إذ نتصل بالمرأة نتجرد من عقولنا ونخضع لعواطفنا ونستسلم لخيالنا يرسم لنا منها صورة لاتمت الى الحقيقة بسبب ، كذلك شأننا اذا ماخطر لنا أن نتصل بالحياة ونحاول التعبير عنها فى عمل أدبي .

فنحن مرضاة لشهواتنا نكذب على أنفسنا باعتقادنا أن المرأة التى أولعنا بها أجمل النساء .

ونحن مرضاة لشهواتنا أيضا نكذب على أنفسنا باعتقادنا أن الادب يجب أن يكون محض خيال

إذ هى في الواقع شهوة حسية تلك التى تدفع بنا لتزييف معنى الادب ومباشرته على اعتبار أنه لذة ذهنية خيالية فحسب .

ولكي نستمتع بهذه اللذة ونغرق في الاستمتاع ترانا نفتن في الانصراف عن الجوهر الى العرض ، في طلب اللفظ دون المعنى ، في ايثار الاوهام على الحقائق ، وفى احلال الكذب محل الصدق .

فليست هي الحقيقه التي ننشدها اذن بل هى اللذة . وطالب اللذة مخدوع أبداً . لان الظاهر يكفيه والباطن الخفي يغيب عنه .

وكيف ترغب الى من كانت هذه نظرته الى الادب أن يتحرى الصدق في التفكير والاحساس والتأدية

ان الصدق وليد الملاحظة ، والملاحظة بنت العقل ،والعقل هادم الخيال واللذة. وضعف قوى العقل في أدبنا هو الذي يطلق لاخيلتنا العنان ويحملنا على أجنحة الوهم ويباعد بيننا وبين الواقع ويغشى على أبصارنا فلا تعود ترى غير أحلام .

ونحن نعلم بسليقتنا أنه ان كان في النظر الى الحياة بعين الخيال لذة ففي النظر اليها بعين العقل ألم .

ونحن انما نؤثر اللذة على الالم ضعفا منا وجبنا ، وفراراً من ألم العقل الذي يلقي بنا أمام الحقيقة وجها لوجه !

والحقيقة أبغض شيء الينا . وأثقله على نفوسنا . فهي تكلفنا انعام النظر فيها وتقليبها على مختلف وجوهها ، واحصاء تفاصيلها ودقائقها ،والالمام بمختلف أطوارها المتناقضة ، والتعبير عن كل هذا بحيث لاتفوتنا منه شاردة ، وبحيث يخرج العمل الادبي وكأنه قطعة رائعة قدت من صخرة الحياة الابدية

. . وهذا هو الالم الذي يولده العقل وهذا مالا طاقة لنا به . .

فالشاعر عندنا لايلبث أن يتخيل العاطفة حتى يسجلها بدل أن يوطئها كنفه ويدعها تنضج على مهل . ويصبر ثم يجمع شتاتها ويحبسها كاملة في قصيد .

والقصصي لايلبث أن يتخيل موضوع قصة حتى يكتبها بدل أن ينصرف قبل هذا الى دراسة نفسه ودراسة الآخرين واختزان ملاحظاته واحساساته وأفكاره يستمد منها لقصته عناصر الحياة والبقاء

وما دام كل من الشاعر أو القصصي أو سواهما لايحفل بالعقل ، ولا يريد أن يبحث ويدقق ويتعمق ويتأمل .

مادام كل منهما يقنع بخياله ويتبع وحي هذا الخيـال ، فهو كاذب ، وأدبه كاذب ورأيه في الحياة والناس كاذب ايضا . . .

ويجب ان لايتوهم القارىء أننا ندعو الى طرد الخيال من العمـل الادبي واحلال العقل محله . كلا فليس من عمل أدبي خليق بهـذا الاسم إلا ماتعادلت

فيه وتوازنت قوى الخيال والعقل . إذ الخيـال يتصور والعقل يرد التصورات والاحلام الى أصلها الطبيعي ويوفق بينها وبين الواقع الممكن حدوثه ثم يضفى عليها حلة من التناسب والنظام

فشكسبير مثلا كان أقوى الشعراء خيالا ولكن خيـاله كان دائم الاتصال بالعقل ، وعقله وخياله كانا مرتبطين بالواقع . وأنا لاأعرف في رواياته استعارة شعرية واحدة لاتدعم الحقائق التى يرمي الى تصويرها وتحليلها

وكذلك القصصي الروسي فيدور دستويفسكي فهو متقد الخيال ،واسع التصور مخبول الرؤى ، ولكن خياله يتفجر من الحقيقة ، ودقة ملاحظاته وعمقها واتزانها تنم عن قوى عقله التى ترقب جمحات الخيال وتقسره على العدو في ميدان الحقائق

وقس على هذين المثالين أعاظم كتاب الغرب وشعرائه

ومع ذلك فانت قد تعثرعلى أديب يخيل اليك ان عناصر العقل والخيال تتوافر فيه فلا تكاد تنعم النظر فى اعماله حتى يروعك ـ برغم ذلك ـ شيوع الكذب فيها وطغيان الزيوف عليها ، لان من اليسور على الكاتب أو الشاعر أن يتصور العاطفة بخياله ثم يقسمها ويرتبها بعقله فيوهمك أنه أنما يحلل أجزاءها ويتعمق في وصفها بينا هو يغرر بك ويهوش عليك

فليس الخيال والعقل هما قاعدة الصدق المنشود فقط — وان كان لا سبيل الى الصدق بدونهما — ولكن القاعدة هي خلق الاديب نفسه

ولكي يكون الاديب صادقا فى تعبيره يجب ان يكون قبل كل شيء رجلا كبير النفس، نبيل العاطفـة . حر الفكر متين الخلق . أبى النزعات صريحا لا يتجاوز عن عيوبه الخاصة . بل يبدأ في النظر الى نفسه ودراستها ومعرفة ضعفها ومحاسبتها عليه حسابا عسيراً

ومتى تحرى الصدق في نفسه كان صادقا مع الآخرين . ومتى كان صادقاً في نظرته الى نفسه كان صادقا في نظرته الى نفوس الآخرين . ورجل هـذا شأنه لا يستطيع أن يخدع احداً لانه لا يسمح بان يخدعه أحد

ولا ينبغي ان يفهم مما تقـدم ان من واجب الاديب ان يكون رجلا فاضلا

بالمعنى الشائع المصطلح عليه . كلا . فقد يكون الاديب في عرف الغير منحطا ثم يكون مع ذلك سامياً . وقد يبدو في عين السواد مجرما ثم يكون مصلحا وعبقريا ، وليس لنا أن نحاسب الاديب على تقديره الخير والشر والفضيلة والرذيلة . فله أن يرى الشر فى الخير والرذيلة فى الفضيلة اذا شاء او بالعكس . ولكن المهم ان يكون صريحا في كلامه . شجاعا في دعواه . صادقا فى فكرته وعمله . لا ينادي بمبدأ تنقضه حياته. ولا يبشر بعقيدة هو أول من يهدمها . ولا يلبس مسوح راهب وهو شيخ الفساق .

ان شاعر الهند تاغور لا يلبث أن تهفو نفسه الى التصوف حتي يمعن في التأمل والصلاة فيتصل بربه ثم ينشد الشعر فتنعكس عليه أضواء الايمان . فهو متصوف في حياته . متصوف فى أدبه . وهذا هو الصدق .

وكذلك كان تولستوى . فقد مرت به لحظات رهيبة شاهد فيها كل ماضيه يتداعى . وكل افكاره القديمة تذبل وتتساقط الواحدة بعد الاخرى . أحس نورا جديداً ينبثق من روحه بغتة ويتفجر . فلم يتردد في نبذ اعماله الاولى وانكارها واتباع وحي هذا النور . نفض الثوب الارستقراطي عنه ونزل الى مستوى الفقراء من فلاحين وعمال يكتب لهم ويعيش بجوارهم ويعمل معهم بكلتا يديه المرتعشتين الكليلتين

وهذا ايضاً هو الصدق

بل ان معظم كتاب الغرب سواء منهم النوابغ أم العباقرة ليضربون لنا الامثلة الرائعة في الصدق كل يوم. فهم أعداء الخيال الاجوف. والمبالغات الباطلة والكذب العاطفي ، والمحسنات اللفظيـة المنشودة لذاتها ، وهم يقتلون الاشياء بحثاً وتقليباً . ويقتلون أنفسهم ملاحظة وتحليلا ، لا يدعون فكرة أو عاطفة أو خلجة أو نزوة تمر بهم الا وأحصوها وغاصوا على أصولها واجتهدوا فى ربطها بسابقاتها توصلا الى معرفة الانسان عن طريق معرفة النفس . ونحن لم نشهد عصراً كهذا العصر تعددت فيه القصص التى يكتبها الادباء فى اوربا عن أنفسهم ويحللون فيها تاريخ حياتهم

ويعرضون على جماهير القراء في غير تعفف زائف اعمق إحساساتهم وميولهم وأخفى طواياهم وأسرارهم .

ان أقصى ما يطمح اليه الفرد منهم هو أن يهتك ما استطاع حرمة نفسه وأن يعريها أمام الملأ أجمع وأن يتخذ من شخصه فريسة لتجاربه توصلا الى معرفة الحقيقة الكاملة التي ينشدها .

وهذه هي إرادة الصدق الجبارة كما تتمثل في زعماء الادب الجديد كمارسل بروست واندريه جيد واضرابهما . . ومما لا يقبل الريب ان تحرى الصدق في الاحساس بالواقع ودراسته والتعبير عنه . هي الفضيلة الوحيدة التي تكفل للادب الحياة والبقاء بجوار العلم . اذ الصدق في الادب سبيل الحقيقة والحقيقة هي غاية العلم. ومن جهة أخرى فالاديب الصادق لا ينفع الحقيقة بصدقه فحسب . بل ينفع الناس في أخلاقهم أيضاً . فهو ينمي في الافراد احساسهم بالكرامة ، ويغرس فيهم حب الحرية والصراحة ، ويروضهم على معرفة نفوسهم ، ويدربهم على النظر الي الاشياء بعين الخيال المتزن والعقل الصارم ، ويولد فيهم ملكة الصدق في القول والعمل،

ويشعرهم أن الادب كالحياة نسيج من الاوهام والحقائق،وان عظمة الانسان هي في ان يجمع بينهما على شريطة ان يميز بين الوهم والحقيقة ويعرف أين ينتهي الوهم وأين تبدأ الحقيقة !

وجملة القول ان الصدق قوام الادب الصحيح . وان الحركة الادبية في مصر ما تزال تشوبها الخيالات والاكاذيب .

فاذا ما رغبنا في خلق ادب حي جديد. يجب ان نكون قبل كل شيء صادقين !

أوربا والأدب الشعبي

في أوربا اليوم ظاهرة جديرة بالبحث والتحليل ، ظاهرة خطيرة تنبيء عن منزع جديد تتجه نحوه أراء وميول بعض المفكرين هناك .

وهذه الظاهرة هي ازدراء الادب (البورجوازي) والمناداة بوجوب انتاج أدب شعبي صميم .

والادب البورجوازي هو أدب الطبقة المثقفة المولة المحافظة على التقاليد الموروثة ، الذائدة عن النظام الاجتماعي القائم ، النازعة الى احتكار الفكر والفن كفضيلة تميزها عن سائر الطبقات وتخولها حق إرشاد الشعب وقيادته والتحكم فيه والمباهاة عليه .

وأكبر ظني أن أعداء الادب البورجوازي محقون في حملتهم عليه . فهو أدب متشابه محدود يحدثنا عن أخلاق طبقة محدودة ، ويرسم لنا حياة أولئك الموسرين الذين لاهم لهم غير البحث عن اللذة وحيازة المال . لذلك تكثر في هذا الادب موضوعات العشق الوضيع وتقلباته وأطواره كأنما هو كل مطلب الانسان .

والواقع أن الترف مدعاة الفراغ والفراغ سبيل الضجر والضجر هو الذي يصرف المرء الى الشهوة والشهوة أروع ماتتمثل في الحب والمرأة ومايدور حول الحب والمرأة من حكايات وأقاصيص .

فالحب في جوهره الأسمى هو مظهر بقاء النوع تمزج فيه الطبيعة الشهوة بالعاطفة لتستدرج اليه جسم الانسان وعقله . وهذا ما يفسر لنا ولع الموسرين به وإيثار أدبهم له . ولكنهم يقبلون عليه غراماً بالشهوة وتفاخراً وازدهاء بما تحدثه العاطفة المفتعلة في قلوبهم من انفعالات متضاربة عذبة تختلط فيها الرقة بالأسى والحلم .

إن العواطف الغرامية المخنثة الناعمة تقنعهم بسمو حياتهم ونبل وجدانهم وتفوق عقولهم

وأنهم على شيء كبير من الارستقراطية النفسية التي لن يصل اليهـا أو يفهمها أو يقدرها سواد الشعب أبداً .

فهم لا يرتضون لانفسهم ذلك الحب الصادق السليم العميق البسيط المتفق وأحكام الغريزة بل يطلبون إلى الاديب أن يفتن ما استطاع في ابتكار وتصوير أزمات غرامية معقدة ، وعواطف وميول جنسية مركبة ، وشهوات شاذة غريبة تستطيع أن تملأ فراغ حياتهم وتلهيهم.

على أن الامر غير مقصور على الحب . فالترف يولد في نفوسهم ضربا من الكبرياء والقسوة وهذه الكبرياء وتلك القسوة تتمثلان في معاملتهم للشعب وفي نظرة أدبائهم اليه ومعالجتهم مشاكله ورغبتهم في هضم حقوقه وإبقائه مستغلا يائسا يرسف في قيود الهوان والذل .

ومن الطبيعي أن تؤدي الكبرياء الى التعصب والاحتقار . والقسوة إلى الانانية والجشع وحب الفتح والاستعمار .

وهذه الظواهر واضحـة جلية في مؤلفات زعمـاء الادب البورجوازي وأشياعهم .

فهم يتعصبون لطبقتهم ويحتقرون الشعب . يدافعون عن الكنيسة التي تدافع عن رأس المال وتعيش منه وله . ينصحون باتخاذ وسائل الشدة لقمع حركات العمال والفلاحين . يؤيدون سياسة التسلح والحرب والاستعمار ينفق عليها الشعب وتراق دماؤه من أجل أصحابها المروجين لها المنتفعين بها في غير ما وازع من شرف أو ضمير .

فشسترتون وكبلنج في انجلترا وشارل موارس وبول بورجيه وهنري بوردو في فرنسا وأنصارهم العديدون في الاقطار الاوربية كلها لا يزالون يرددون هذه النظريات المنكرة ويدعون الى ذلك النوع من الادب الغث العتيق .

إن أدبا يقوم على القسوة والاثرة والتغني بمختلف ضروب اللذة والاشادة بمباهج الترف والنعيم لهو أدب تنقصه البساطة والرحمة . ومتى امتنعت البساطة فقد

تلاشي من الادب الطابع الانساني واستحال إلي تسلية خطرة تحول بين الفرد وبين رقيه النفسي وتعوق المجتمع في سيره المطرد نحو العدالة والحرية .

أما الادب الشعبي فهو أدب الطبقات العاملة من العمال والفلاحين وصغار الموظفين يحدثنا عن أخلاقهم الفطرية البسيطة ، عن غرائزهم القوية الحرة ، عن تضحياتهم اليومية العظيمة ، عن مجد العمل والنشاط المتواصل فى سبيل خدمة المجموع ، عن افراحهم الساذجة البريئة ، وعن آلامهم ومصائبهم واستعباد أصحاب رؤوس الاموال لهم وتمردهم عليهم وكفاحهم للظفر بحقوقهم وتبديل النظام القائم والاتجاه بالانسانية نحو المساواة الحقه بالغاء فوارق الطبقات وإنشاء حكومات شعبية تدير بنفسها وسائل الانتاج وتوزع الثروة علي الجميع توزيعا عادلا قوامه النزاهة والاخلاص وتقدير الكفايات الممتازة تقدير امشجعا وافيا .

ولا يسع الباحث النزيه إلا ان يسلم بأن الادب البورجوازى تنقصه الحرارة والخصوبة والتلوين والنبرة الانسانية العميقة الصادقة . وأنه في معظم منتجاته ادب حالك متشائم مريض يغري النفس بالهزيمة والكسل ويبعث الخور في العزائم ويقتل فضائل المخاطرة والاقدام ويبتلى الفرد بضرب من الرغبة فيالعبث بكل مجهود عظيم يتطلب التضحية وانكار الذات ،وأنه يظل بالملاذ الحسية يزينها ويفتن فى تصويرها حتى يجعل منها غاية الحضارة وقبلة الحياة .

قد يكون في هذا الكلام شيء من الغلو . ولكن الحقيقة التى لامراء فيها ان الادب البورجوازي لم يعد فى استطاعته خلق امثلة جديدة عليا تمنح الانسان فكرة او مبدأ او عقيدة يعيش بواسطتها ويرصد قواه على تحقيقها ويشعر بنبله البشرى في الحياة والموت من اجلها .

ونظرة واحدة الى ادباء اوربا البورجوازيين كافية لاثبات ماتقدم .

وفي الواقع . ما الذى تنتجه من فضائل التجديد والتمرد والقوة والنشاط والتضحية أعمال أولئك الكتاب المشهورين أمثال (أندريه موروا) و (هنري بوردو) و (بول بورجيه) و (هيلير بيلوك) و (شيسترتون) واضرابهم ،

تلك الاعمال الادبية لا ألمح فيها ذلك القلق العميق على مستقبل الانسانية ولا تلك الرغبة الملحة المضنية في محاولة ابتكار تفسير جديد لمعنى الحياة . ولا تلك النزعة نحو التفوق ، تفوق الفرد على طبيعته ومقدوره وكل ما راكمته القرون أمامه من خرائب وعقبات .

إن الادب البورجوازي يعلمنا الرخاوة والنعومة والكسل والرضا بما هو كائن أما الادب الشعبي فيعلمنا البطولة ، بطولة العمل اليومي المجيد لمصلحة الفرد والمجموع في ظرف محدد ، وبطولة الدعوة للعدالة والمساواة الحقة لمصلحة الفرد والمجموع في المستقبل القريب أو البعيد .

فالعاملة التى تقضي سحابة نهارها في ظلمات المصانع ثم تموت بغتة بداء القلب أو ذات الرئة . والفلاحة التى تجر الماشية وتجمع القطن وتأكل الخبز الاسود وتروح ضحيــة البلهارسيا والانكلســتوما وفقر الدم . والغسالة التى تقعد طوال يومها على ساقيها الضامرتين تنظف ملابس الذوات وتعصرها بذراعيها الكليلتين وتصاب على مر الايام بالرماتزم والشلل ، أولئك النسوة هن في نظري أمجد حياة وأشرف نفساً وأخصب عاطفة وأصلب كرامة وأجدر بالتخليد الادبي من معظم السيدات الرشيقات المتأنقات اللواتي يرفلن في حلل الرفاهية ويصرفن نهارهن محمولات على السيارات الفخمة متنقلات فى المخازن الكبيرة قعيدات الصالون أو المسرح أو دار السينما لايعرفن غير السبل المؤدية لقتل الوقت ولا يعرف الادب البورجوازي الا التغنى بجمالهن المجلوب ورقتهن المصطنعة وحبهن الخبيث وأحلامهن الراكدة ذوات الاجنحة الخائرة الميتة !

فالادب الشعبي هو أدب العمل والجهاد والتضحية . والادب البورجوازي هو أدب الترف والكسل والشهوة والاثرة وتقديس التقاليد الموروثة ومحاربة التجديد الاجتماعي .

وهذا ما فطن اليه اليوم عدد وافر من أدباء أوربا وأمريكا

ففي فرنسا يروج الدعوة الي الادب الشعبي ، الروائي هنرى بربوس وأنصاره

من كتاب الشباب أمثال هنرى بورا وأوجين دابيت وجان جهينو ومارك برنار وفى ألمانيا لدويج ران وفى انجلترا المفكر الكبير برتراند راسل وفى امريكا اوبتن سنكلير .

على ان هؤلاء الكتاب غير متفقين فى الدعوة تمام الاتفاق . فبعضهم يريد الادب الشعبى على اعتباره دراسة لاخلاق الشعب وعاداته دراسة فنية محضة تضيف الى الادب روح الصحة والنشاط والعمل . والبعض الآخر يتوسل بهذه الدراسة للتبشير بالاشتراكية وإحداث انقلابات اجتماعية يقوم بها العمال والفلاحون لتحقيق معنى المساواة الاقتصادية .

اما فى الروسيا فالنظام الجديد القائم على الكتلة العاملة قد تطلب ادباً ذا صبغة شعبية وثورية صريحة. وهذا ما انصرفت وتنصرف لابتكاره عقول كتاب الروس المعاصرين امثال جوركى وبوريس بلنياك وجلادكوف وفيدين وبابل ورفاقهم.

ويبدو لنا ان الادب البورجوازي ينهزم في اوربا يوماً بعد يوم امام حملات خصومه الهائلة . ولكن الصراع الحقيق يقع الآن بين انصار الادب الشعبي الخالص والادب الشعبي الاشتراكى أي بين الادب كفن والادب كفن ودعاية وثورة .

فأي الفريقين سيربح المعركة ؟ وأي الفريقين سيطبع أدب المستقبل بطابعه ؟ لا يمكن التنبؤ عما سيكون .

ولكن الظاهرة الواضحة أن الادب الشعبي هو بطبيعته أدب ثائر بما أنه يحدثنا عن الطبقات المهضومة المستعبدة .

فهل تقف ريح الثورة عند الحد الفني أم تكتسحه وتعمل على هدم أو تعديل النظام الاقتصادى والاجتماعي السائد فى أوربا وأمريكا ؟

يقول برتراند راسل : أن الادب الشعبي مهما كان بريئا فهو دعوة اشتراكية صريحة .

وأكبر ظني أنه على حق ! . .

الشعر في هذا العصر

ونهضته في فرنسا

يخطىء من يظن أن الشعر مات في هذا العصر وان التفكير العلمي طغى على الخيال الشعرى واكتسحه وحل محله في عقول ونفوس المفكرين والادباء المعاصرين

ليس شك في أن النزعات العلمية تسيطر على معظم أدباء أوربا اليوم، والاهتمام بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يشغل جزءاً كبيراً من اهتمامهم ولكن الملاحظ برغم هذا أن الانتاج الشعرى لم يضعف ومحاولات التجديد فى الشعر ما تزال الهدف الذي تسدد اليه جهود طائفة كبيرة من الادباء الموهوبين

والواقع أننا اليوم أحوج الى الشعر منا في أي زمن مضى . فالحضارة الآلية الراهنة وما تمخضت عنه من روح مادية نلمح آثارها في شتى مظاهر حياتنا اليومية تدفع بنا الى التفريج عن نفوسنا في الخيال الشعرى الذى ينقلنا الى عالم جديد أجمل من هذا العالم ويعزينا عن المصائب والنكبات الشائعة فيه ويشعرنا بأنسانيتنا المشتركة وبتلك الفضائل الروحية المثلى التي لا رقي ولا تقدم ولا حضارة صحيحة إلا بنموها وازدهارها

وإنا لنتساءل : ما نفع كل هـذه الروائع المادية التي تفيض بها الحضارة علينا كل يوم اذا لم تقترن بسمو روحاني ورقي خلقي يرتفعان بالانسان فوق محيط الغريزة الحيوانية ويجعلان منه قوة كاملة عناصر التطور . أي متمتعة بالتفوق العلمي العقلي والتفوق الخلقي الروحى ؟

الواقع أن النقص المشاهد فى عصرنا يرجع الى إتساع الهـوة بين عقولنا وأرواحنا . فنحن نفكر بعقل مثقف ناضج ونحس بقلب بدائى جاف لم تثقله تلك الثقافة ولم يستطع العلم أن يحرره من شوائب الفطرة العمياء

فالعقل قد ارتقى ولكن الخلق مايزال وضيعاً . ورجل القرن العشرين يدرك بعقله من أسرار الطبيعة ما يبهت له رجل القرن السادس عشر لو بعث اليوم ويخر أمامه صعقاً . ولكن أخلاق رجل هذا القرن وعواطفه واحساساته لم تتطور بنسبة تطور عقله . وتلك هي المأساة التى يشكو منها معظم المفكرين اليوم

ولقد كانت لحملات رجال الفكر الحر فى الغرب على بعض العقائد الدينية أكبر أثر في اتساع نفوذ العقل وتعزيز سلطانه والتمكين لنزعته . ثم جاءت الحضارة الصناعية بأفانينها المادية فايدت حكم العقل أيضاً وضاعفت من قوته . وهكذا أصبح العقل هو كل شيء والتفكير العقلي هو رمز الثقافة وعنوان الحضارة القائمة

غير أن البشرية لا يمكن أن تكتفي بالعقل المجرد العنيد القاسي ، ولا يمكن أن ترضي بان تكون المصلحة وحدها أساس الحياة إذ الحياة عقل وقلب ، مادة وروح ، فكر وعاطفة . ولم تخلق الحضارات السالفة إلا بواسطة هذا المزاج الابدي المقدس بل أن حضارتنا المادية الراهنة قد اشترك هذا المزاج نفسه في تكوينها بسلسلة التضحيات التى بذلت فى سبيل العلم والتي كان الباعث عليها إيماناً روحانياً محضاً يشبه الايمان بالعقائد الدينيـة . وعليه فالانسانية أحوج ماتكون اليوم الى قوي معنوية تعوض عليها مافقدته من سمو روحاني في سعيها الحثيث من أجل المـادة والمتاع الدنيوي .

ولهذا السبب لن يموت الشعر . بل لهذا نلمح بوادر نهضة عظيمة في الشعر فى بعض أمم أوربا وعلى رأسها فرنسـا .

وقبل أن نتحدث عن هذه النهضة نود لفت نظر القراء الى أن الشعر برغم تضاؤله ماينفك حياً في القصص . واذا كان واضعـوا القصائد قد تناقص عددهم فالموضوعات التى كانوا يعالجونها في قصائدهم غادرتها الى القصص .

وأي شعر جديد يضارع الشعر الذي نطالعه في أعمال كبار الروائيين أمثال (بروست) و (جيرودو) و (مورياك) و (مونترلان) من الفرنسيين و (لورنس) و (فرجنيا ولف) و (كاترين منسفيلد) من الانجليز . و (توماس مان) و (هنريخ

مان) و (ارثر شنتيزلر) من الالمان .

ونحن نعلم أن هذا الشعر يقترن بتصوير الواقع فى اطار القصة ، ويمتزج بالتحاليل النفسانية ويختلط بالعقل الملاحظ العلمى ، ولكنه مع ذلك شعر ومن الطراز الاول تكتمل فيه قوى التخيل والجمال والتسامي بالحياة .

فالشعر المقترن بالتحليل والملاحظة حي ناهض . ولكن الشعر الخالص هوالذي تأخر وهو الذي تحاول طائفة من ادباء فرنسا إنعاشه اليوم والتطور به .

ونريد بالشعر الخالص ذلك الشعر النابع من الفطرة السليمة الحرة . ذلك الشعر الذى يغلب فيه الخيال على العقل . والذى ينطلق كموج الموسيقى ويتصاعد الى السماء كالصلاة ويقصد به الشاعر التغني بالحياة وتمجيد ظواهرها واستبطان هذه الظواهر بواسطة الاشراق الروحي والاتصال من خلالها بالقوة العلوية الخالدة التى ابدعتها .

وفى فرنسا الآن نخبة من الشعراء تبذل قصارى الجهد لاحياء هذا النوع من الشعر وفي طليعتهم (بول كلوديل) و (فرنسيس جام) و (بييرجان جوف) .

فالاول شاعر يستهبط وحيه من الاحساس الديني مباشرة ويحاول ان يسمو بالعواطف الى مستوى صوفى ومعظم شعره تمجيد لبطولة الانسان في سعيه نحو الكمال الروحاني .

وبول كلوديل واسع الخيال متقد العاطفة وحشي الميول والاهواء ، واسلوبه شخصي رائع وتتمثل فيه القوة والصدق وصفاء الايمان وتدفقه ويخيل اليك وانت تطالعه انك تشهد بناء دينيا فخما جليلا من الطراز القوطى . وقد وضع كلوديل عدة مسرحيات احرزت شهرة كبيرة في الاوساط الفنية العالمية منها «الأب المهين » و « الخبز اليومى » و « كولومبس» وجميعها تدور حول تفوق الانسان على نفسه بتحقيق البطولة الروحانية فيه .

والثاني فرنسيس جام شاعر يستهبط وحيه من الطبيعة مقرونة بالاحساس الديني . ويكاد لا يضارعه اليوم أي شاعر في وصف النباتات والازهار والاثمار

والتغنى بها والاشادة بحياة الريف وجماله وسكينته وبراءته واتصال العواطف المتفجرة منه بسر الوجود .

فكل ماهو حالم رقيق ساذج يبدع فرنسيس جام فى تصويره والتغنى به . ذلك لانه يعيش بعيدا عن ضجة المدن في قرية أورتيز حيث الفطرة السليمة على رحابتها وحيث الميول طاهرة نقية لاتعرف نفاق المدن ولاتدين بدين الحضارة المادى .

ومن أجمل دواوين فرنسيس جام (حداد أزهار الربيع) وهو مجموعة شعر بسيط ساذج ناضر يقرب في الصفاء والامتلاء والجمال والتواضع من شعر رابندرانات تاغور .

أما الثالث بيير جان جوف فشاعر وفيلسوف . شاعر يرغب فى احتضان الطبيعة كلها ويرى الله ممثلا فى كل ظاهرة من ظواهرها . وهو لفرط شعوره بالله في كل مكان يكاد يجن حبا بالطبيعة وتمجيدا لها فى اسلوب عاصف مثقل بالخيالات والاستعارات يحملك على اجنحته ويطوح بك كاعصار .

وقد وضع هذا الشاعر اخيراً قصيدة مطولة نحا فيها نحو (الفردوس المفقود) لملتن وخلع عليها نفس الاسم وأراد بها التعبير عن تلك اللوعة المرة التي يحسها الانسان العصري بعد فقده فردوسه الروحانى وارتطامه في لجة المادة والمصلحة .

فانت ترى مما تقدم أن العودة الى الشعر الخالص أصبح أمراً واقعاً . وأن نهضة هذا الشعر في فرنسا قد آتت أبرك الثمرات وأن هذه النهضة تستند الى الوحى الديني كرد فعل للنزعات المادية السائدة فى عصرنا

على أننا لايجب أن نفهم من هذا أن الوحي الديني في الشعر الجديد قد يكون فاتحة عهد رجعية فكرية وتعصب مذهبي . كلا . إذ المثل الاعلى الذي ينشده أولئك الشعراء هو التوسل بالوحي الديني لانعاش ذلك الجوهر الروحانى الخالد الذي يشترك فيه الناس جميعاً والذي لابد من توافر عناصره لاستكمال عظمة مدنيتنا الحاضرة

الادب الامريكى الحديث

شروود اندرسن — ابتون سنكلير — منكن — تيودور دريزر — سنكلير لويس (١)

اتسعت الحضارة الصناعية فى امريكا وتضخمت واوشكت ان تغمر كل شيء. فناطحات السحب تحجب الافق هناك عن الابصار، والارض تعج بالسيارات، والمصانع تدوي، والآلات سيطرت على مختلف مناحي الحياة، على الطعام والكساء، على الملاهي، على الحياة البيتية، على الفكر نفسه فقامت المادة مقام الروح وأصبح المثل الاعلى للرجل الامريكي هو البحث عن الدولار والبحث عن الدولار فقط.

فالحضارة الامريكية حضارة علم وصناعة ومنفعة والفرد الامريكى العادي يؤمن بالصناعة، يؤمن بالعلم ولا يفكر الا فى استغلال العلم والتمتع بمنتجاته دون أن يحفل كثيراً بالجانب المعنوي من نفسه ودون ان ينعم النظر في العالم الباطني الذى يحمله في صميم قلبه وروحه.

انه يحب الرقص ولكن رقص الفوكستروت والوانستب والشارلستون والجاز بند.

انه يحب الموسيقى ولكنه لا يفهم السمفونيات والسوناتات والاوبرات.

انه يحب التصوير ولكن بالكوداك.

(١) محاضرة القيت في الجامعة الامريكية وكتبت على أثر دراسة معظم أعمال هؤلاء الادباء ومطالعة مؤلفات (برنارفاي) و(فرمان روز) و(ليفنسون) عن الادب الامريكي.

انه يحب التمثيل ولكنه يقتل المسرح ويذهب الى السيما حيث تعرض الشركات روايات غثة تافهة مفعمة بالمباغتات والمفاجئات والغرائب والشهوات لا أثر للفن فيها ولا غاية منها الا خنق الملكات الفكرية وتزجية أوقات الفراغ واغداق الاموال الطائلة على اصحابها

ان ذلك الفرد يجاهد جهاد الابطال ليفوز بالثروة وينعم بشتى المباهج والمتع التى اوجدها العلم والرخاء الاقتصادي.

انه يعيش في بيته معتمدا على الآلات ، ويأكل من محفوظات العلب معتمداً على الآلات ، ويكتسي معتمداً على الآلات ثم يذهب آخر نهاره الى دور السينما فيحس ويتألم ويحب ويكره معتمداً على الالات أيضاً

هذه الحياة ، هذه الحضارة انعكست ألوانها على الادب الامريكي الحديث الذي هو فى الواقع ثورة عليها كما سترى من هذه الخلاصات الوجيزة لافكار وأعمال خمسة من كبار كتاب امريكا :

شروود اندرسن

هو رجل يفر من الحياة الواقعة الى الحياة المخيلة الرحبة ، يفر من عالم الحضارة الى عالم التأمل والحلم ، يفر من النظام الاجتماعى السائد المرهق الى حيث الفطرة الحرة التي لا تحفل بالاوضاع والقيود

هو رجل شريد ، جواب آفاق ، احترف شتى المهن وخبر الحياة وذاق مرارتها قبل أن يعقد فوق رأسه اكليل المجد الادبي

ان حياته الشريدة تشبه حياة مكسيم جوركي وجاك لندن وباناييت ستراتي واضرابهم . وهو مثلهم يكره القواعد الموضوعة ويفضح اكاذيب المجتمع ويمجد الغريزة الحرة ويبشر بالعودة الي الحالة الطبيعية للانسان أيام كان ساذج القلب صافى النفس برىء العقل والفكرة والروح .

فشروود اندرسن يثور على الحضارة المادية الراهنة سواء افي امريكا أم في أوربا ويصب جام عضبه على طائفتين معينتين يرى انهما السبب الاول في تسميم هذه الحضارة

والطائفة الاولى هي رجال الاعمال الكبيرة اولئك الذين يتحكمون في الشعوب والحكومات ويستبدون بالضعفاء ويشعلون لمصلحتهم نيران الحرب ويقرون لمصلحتهم أيضاً عوامل السلام . اولئك الذين يرون المثل الاعلى فى القدرة على انتهاك حرمة الفضائل لجمع المال مع التظاهر باحترام قوانين المجتمع والعمل على حمايتها

يتمرد الكاتب على هذه الطائفة لا لأنها فاسدة الميول فحسب بل لأنها تغري سوادالشعب الامريكي بمحاكاتها واعتناق نفس آرائها ومبادئها .

أما الطائفة الثانية التى يكرهها فاولئك الناس الذين أصيبوا بمرض النفاق الدينى، أولئك الذين يسرفون في الدفاع عن العقائد الدينية ، ويسرفون في التعلق بالفضائل الشائعة ، ولا يفهمون التسامح فتجف في قلوبهم ينابيع الرحمة وينقلب ايمانهم الدينى الى تعصب ممقوت ورجعية منكرة ودفاع أعمى عن النظم القائمة والعادات القديمة والتقاليد البالية فتتألف منهم قوة رهيبة تساعد رجال الاعمال الذين أشرنا اليهم على المضي فى نفاقهم هم أيضاً لاستغلال الشعب واخضاعه وابقائه أسيراً في ميكانيكية حياته اليومية .

يتألم شروود أندرسن من هاتين الطائفتين فيرسل عليهما صواعق سخريته ثم يضيق صدره ذرعا بالحضارة فيهجرها ويذهب عند الزنوج في أورليان الجديدة ليتلقى عليهم دروساً في الصفاء والحكمة.

وهنالك يحس أن روحه قد استفاقت فيحلم بنوع جديد من الشعر تغذيه سهول الغرب الاوسط الخصبة وتلمع فيه روح الشاعر (ويتمان) الكونية فيمثل هذا الشعور في رواية (الضحكة القاتمة) وفي بطلها المدعو براس دادلي .

ولكن شروود أندرسن لم يكتف بهذا الحلم . أنه يريد أن يعيش الحلم نفسه، يريد أن تكون حياته حلماً متواصلا ساحراً ينقذه من عسف الحضارة .

فماذا فعل ؟

عاد الى أصله . رجع الى عهد الطفولة . حاول أن يبعث هذا العهد من أعماق الزمن السحيق فوضع قصته العظيمة التى يسجل فيها طفولته والتى سماها (طفولة في الغرب الاوسط)

لم يحاول شروود أندرسن في هذه القصة أن ينقل الينا أفكاره في حالتها العاقلة الواعية بل أراد أن يسجل تلك الاحساسات الشاردة التافهة غير العاقلة التي تمر بها أيام الطفولة غير شاعرين ، والتى تكون في الواقع حياتنا الباطنية وتلونها وتكسبها ذلك الشعر الروحاني الفاتن الذي نفقده على مر السنين تحت ضغط قوانين المجتمع ونزعاته المادية

يقول شروود أندرسن :

«الطفولة هى شيء رائع،هي شيء ساحر يجعل الانسان نبياً والنبي ملكاً والملك نصف اله ! »

ثم يصف لنا فى روايته تلك الاحساسات التى خامرت نفسه وهو طفل . يصفها فى جنونها وفوضاها وبساطتها وبقائها حرة من قيود العقل وكما يشعر بها الطفل الذي لا ينفك يحلم وهو يقظان .

فحلم اليقظة عند هذا الروائي هو السبيل الفرد للعودة الى صفاء الطفولة التي لا بد من احيائها في كل نفس تريد الوصول الى الرقي الروحاني .

وعليه فشروود اندرسن يهاجم الحضارة المادية ويتقيها بالسخرية اللاذعة أولا وبالفرار الى حضن الطبيعة ثانياً ، وبالالتجاء الى الطفولة وعالم الاحلام ثالثاً

ابتون سنكلير

هو روائي داعية اكثر منه فنانا . روائي يختلف عن معظم الروائيين. يؤلف القصة لا ليرسم فيها بطريقة نزيهة مستقلة محايدة جوانب النفس أو المجتمع ، مكتفياً بهذا الرسم معتبراً اياه عملا فنياً قائماً بذاته يفسره القاريء كما يهوى ويستخلص

منه آراء الكاتب وأفكاره ، كلا. أن أبتون سنكلير يحتقر هذه النظرية . نظرية الفن للفن.

أنه أديب صاحب رسالة ، يريد أن يستخدم الفن الروائي للتبشير برسالته وحمل الناس على اعتناقها والايمان بها .

أن القصة في نظره مجموعة مستندات تتعلق بحادثة من الحوادث البارزة المشينة يجمعها الكاتب ويؤلف منها هيكل قضية يقيمها ضد المجتمع ويرفعها الى محكمة الرأي العام والعدل الانساني

فالرواية التي يكتبها أشبه بتحقيق واسع النطاق ، يقوم به أبتون سنكلير بغضب واستنكار وسخط ليتمكن من توجيه التهمة الثابتة القاطعة الى خصومه والى المجتمع ونظامه .

ولكن من هم خصوم أبتون سنكلير؟

هم رجال القضاء . رجال الحكم . رجال البنوك . أقطاب حي ول ستريت . حماة النظام الديموقراطي الامريكي ، جميع الذين يملكون السلطة ويستخدمونها ضد العدل ، وضد الطبقات الفقيرة وفي سبيل الربح والاستغلال . يحمل عليهم أبتون سنكلير في رواياته حملات هائلة ويعدد فضائحهم ويرسمهم لا كما يصورهم له خياله بل كما هم عليه في الحقيقة الواقعة

يهاجمهم مدفوعا بقوة الرسالة التي أخذها عن أستاذه كارل ماركس . وهذه الرسالة هي الشيوعية البالغة في بعض الاحيان أقصى حدود الحرارة والحماسة .

فأبتون سنكلير روائي شيوعي يتخذ الرواية منبراً للدعوة الشيوعية ولكي يصيب تفكيره الهدف المنشود ، ولكي يستطيع أن ينال من خصومه ويروج تعاليمه ويشعر القراء بصوابها وصحتها يتناول فضيحة من الفضائح الحديثة العهد التي وقعت في بلاده والتي أهدرت فيها الحرية واستبيح من اجلها العدل ، ثم يجعل منها مادة لقصته ويرسم فيها تحت أسماء مستعارة أبطالها الاحياء الذين ظلموا منهم والذين حاق بهم الظلم والعدوان

وهكذا يطعن خصومه طعناً مباشراً ويقرب آراءه وأفكاره الي الشعب ويلمس قراءه حقيقة الظلم ممثلة فى تلك الفضائح التي أحس بها الجمهور دون أن يستطيع الوقوف على خفاياها وأسرارها.

فالرواية التى سماها (البترول) سجل فيها فضيحة معروفه من الفضائح البرلمانية وصب ضوءاً ساطعا على ما يجري من المفاسد المنكرة خلف بعض الحركات الانتخابية

وفى رواية (بوسطن) عرض لقضية ساكو وفنزيتي وهما فوضويان ايطاليان حكم عليهما المحلفون بالموت بعد أن اتهموهما بقتل أحد الصيارفة وبعد أن عذبا أشد عذاب أدبي سبع سنوات متوالية . اعتقد أبتون سنكلير أنهما كانا بريئين فوضع قصته ليعلن هذه البراءة ويميط اللثام عن الظلم الصارخ الذي نزل بالايطاليين.

وفي رواية (الحرش) أو (الغابة) فضح الروائى وسائل الغش والتدليس التى تستخدم فى صناعة المحفوظات الغذائية فى شيكاغو لاستغلال العمال التعساء المساكين.

وكان تصوير أبتون سنكلير لاساليب هذا الاستغلال دقيقا مروعا الى حد أن الرأي العام استيقظ من غفلته والحكومة نفسها فاقت من سباتها .

وهنا يجب أن نقرر شيئاً يشرف الامريكيين والادب الامريكى ، وهو أن رئيس الجمهورية الامريكية بعد أن أحاط علما بما جاء فى رواية أبتون سنكلير أراد أن يقر الحق في نصابه ، وينتصف للمظلومين فامر بان يجرى تحقيق دقيق في تلك المصانع وأسرع فاتخذ الروائي نفسه كخبير مساعد فى التحقيق ثم انتهى الامر بان نفذت الاصلاحات اللازمة وضربت الحكومة على أيدي المفسدين .

ولكن ماذا حل بعد ذلك برواية أبتون سنكلير ؟

ماتت الرواية كعمل فنى ، انقضي عملها بانقضاء الاصلاح الذي أراده صاحبها وهذه النتيجة يمكن أن نطبقها على جميع روايات هذا الكاتب

فهو يكتب القصة لا لتخلد ولا لترسم العواطف والانفعالات الخالدة في النفس البشرية . بل يكتبها لغرض اصلاحي محدد فمتي أصبح هذا الغرض حقيقة

واقعة اضمحل تأثير الرواية وفقدت قيمتها العالمية وأصبحت مستنداً تاريخيا محضا لا علاقة له بالفن ولا علاقة له بالخلود الادبي .

ولكن هل تعتقدون أن أبتون سنكلير يفكر في الخلود أو في الفن لحظة واحدة؟ أنه يريد أن ينفع الغير باعماله فقط وحسبه أن يكتب لينفع ويخدم ويصلح كى يشعر فى صميم نفسه بانه أسعد الناس .

هذه الفضيلة ، فضيلة الانتاج الفكرى للاصلاح الاجتماعى لا للخلود الادبي ، هذه الفضيلة المفعمة بالتواضع وروح الجهاد وانكار الذات ، هذه الفضيلة التى يمتاز بها أبتون سنكلير كما امتاز بها ليون تولستوى في أواخر أيام حياته ، لا يمكن إلا أن تثير في نفوسنا أعمق عواطف الحب والتقدير والاعجاب .

وعليه فابتون سنكلير يثور على الحضارة الراهنة ثورة المصلح المفكر صاحب المبدأ والعقيدة ، يثور على المجتمع الحاضر ليبنى على انقاضه المجتمع الشيوعى المنشود

منكن

هو صاحب مجلة (عطارد الامريكية)، أديب ملتهب الاعصاب ، حاد العبارة ، لامع الذهن، أشد سخرية من زميله أندرسن، هجاء من الطراز الاول، في وسعنا أن نطلق عليه مع التجاوز اسم فولتير أمريكا

أن حياة منكن منصرفة الى النضال والكفاح في سبيل حرية الضمير ومن أجل حقوق الانسان الطبيعية

أنه لاينفك يحمل حملاته الصادقة على الجهل ، وعلى السخف ، وعلى التقاليد، وعلى النفاق العاطفي ، وعلى الايمان الديني الزائف ، مستمداً قوته النفسية والفكرية من الاذهان الكبيرة المتحررة كفولتير ونيتشه وبرناردشو

فاذا أراد منكن أن يهزىء نزعة من نزعات الحماقة أو الرياء مثلها فى شخص ما ورسم هذا الشخص على حقيقته ثم راكم وهو يصوره مختلف الالوان الدالة على حماقته، ومن كثرة هذه الالوان وتعددها وتسلسلها يتضخم إحساسنا بحماقة آراء

ذلك الشخص ، فلا يسعنا في النهاية إلا أن نضحك منه ساخرين ثم نحتقره من صميم نفوسنا .

هذا هو الاسلوب الذي استخدمه منكن فى مؤلفه المشهور المعروف باسم (كتاب المجون)

ولقد فكر منكن في طريقة غريبة لتسجيل سخافات أبناء عصره ولفت أنظارهم اليها وحملهم على اجتنابها .

وذلك أنه اعتاد أن يصدر مجموعة من قصاصات جميع الجرائد يختارها اختياراً دقيقاً بحيث تمثل الحوادث الصارخة والتصرفات المستغربة والحالات الشاذة التى تحدث للافراد الامريكيين العاديين كل يوم ، والتى تدل أبلغ الدلالة على كمية الغباء والسخف الهائلة المودعة فيهم وعلى مدى البؤس والشقاء والانحطاط النفسى الذى وصلوا اليه .

هذه المجموعة المضحكة المبكية يعرضها منكن أمام أنظار المثقفين ، ويقول لهم: انظروا . أنتم تعيشون في برج احلامكم الذهبي ولكن هذه هي حياة الشعب !

ويجب أن نلاحظ ان الشهرة التى أحرزها منكن في كتاباته الخاصة المفعمة بالتهكم القارس والسخرية الجافة يرجع السبب فيها إلى أسلوب مستقل ابتكره ابتكارا وخرج فيه على قواعد اللغة الانجليزية ، محاولا جهده التقرب إلى الشعب الامريكي وتكوين لغة خاصة من لهجاته المتعددة يستطيع أن يقرأها ويفهمها ويتذوقها تاجر أغنام من التكساس أو مزارع من مزارعي الغرب الاوسط .

فمنكن أديب خلق ليحصي ما أوجدته الحضارة الميكانيكية في الناس من أعراض الغباء .

هذه الحضارة التى تسخر الجميع للانتاج والاستهلاك وتصب الجميع في قالب واحد وترغم الجميع على العمل وفق نظام واحد وتخنق فيهم ملكات الحرية والاستقلال الشخصي وتجعل منهم شبه آلات بليدة حية ، هذه الحضارة هى التى يحاول منكن بسياط تهكمه النارية أن ينبهها من غفلتها ، ويردها إلى السبيل السوى.

تيودور دريزر

صرف هذا الكاتب عشر سنوات فى وضع روايته العظيمة (فاجعة أمريكية) كان مشهورا قبل ظهور هذه الرواية . ولكنه ودع العالم واعتزل الناس وهزأ بالشهرة والمجد فى عصر يقوم على المنافسة والسرعة وتموت فيه ارسخ شهرة في بضع سنوات

غامر هذا الروائى بمجده النامي وتحدى نسيان الجماهير ولاذ بالصمت والوحدة وعكف علي تأليف قصته مستعينا بصبر الجبابرة لابلاغها اقصى حدود الكمال الفنى الممكن .

أراد تيودور دريزر ان يخلد في عصر ميكانيكي كل ما فيه سائر نحو التغير والتبدل والفناء .

رأى هذا الكاتب ان الجمهور يعجب بالقصص القصيرة التى تناسب مزاج الحضارة المتقلب المتلون الاهوج فعقد النية على تأليف قصة كبيرة تقع في حوالى الفى صفحة

وكان قبل ان يطبع هذه القصة قد أخرج روايات (العبقري) و (الجبار) و (الاخت كارى) . وفي هذه الروايات الثلاث حاول ان يرسم عدة شخصيات ممتازة حرة فى كفاحها اليومى ضد النظام الاجتماعي القائم . حاول ان يرسمها بامانة مطلقة فى قوتها وضعفها ، فى سموها وانحطاطها ، فى نجاحها العظيم وفى الفشل الذي حاق بها والذى نشأ من طبيعتها الفوارة ومن اسرافها في حب القوة والاستقلال الشخصي والحرية الفردية فى مجتمع يكره هذه الحرية ويعتبرها خروجا على العرف والتقاليد والاداب .

وتيودور دريزر يفعل كل ما يفعله روائى فنان فلا ينتصر لهذه الشخصيات ولا يحمل عليها بل يعرض معاركها النفسية عرضا صادقا نزيها دون أن يستخلص منها فكرة اجتماعية واضحة أو مبدأ أدبيا معينا يروج له ويدافع عنه

أما قصته الكبيرة (فاجعة أمريكية) التي بذل جهد استطاعته لجعلها صورة بارزة من الحياة الوجدانية في بلاده فاليكم خلاصة موضوعها:

نشأ كلايد جريفث في أسرة فقيرة متدينة متعصبة لا ترى الحياة الا من خلال صور الكتب الدينية ولا تعيش الا بالاستجداء عن طريق التبشير بالدين .

عاقت نفس الشاب هـذه الحياة وأراد أن يتحرر ولكنه كان ضعيف الخلق والارادة وكان يجهل بحكم تربيته الخيالية الدينية قوانين الحياة الواقعة فاشتغل خادماً في فندق كبير فسحر بما رآه من مظاهر الترف وسرعان ما استفاقت فيه ارادة التمتع المادى

وحدث ان حلت به كارثة ارغمته على الفرار من بلده فاشتغل في مصنع لاحد أقاربه وهناك تعرف الى عاملة رقيقة تدعي (روبرتا الدن) فاحبها ووجد في هـذا الحب كثيراً من العزاء

ولكنه كان قد تلوث .كان يريد ان يتحرر من الفقر ويبلغ قمة الثروة ويفوز بأوفر قسط من النعيم فاتجهت أبصاره نحو فتاة وارثة غنية تدعى سوندرا فتن بمظهرها الانيق وروعة الترف المنسكبة عليها وفيض الجمال الصناعي الغادر المنبعث منها فشعر بان المستقبل الزاهر المنشود معقود على حب هذه الفتاة له

تقرب اليها ومالت هى اليه وظن ان النصر قد حالفه والقدر ابتسم له ، ولكن عشيقته الاولى روبرتا الدن صارحته اذ ذاك انها قد حملت منه ثم أصرت على ان يقترن بها

غير ان هذا الزواج كان لابد ان يهدم أحلام الفتى .أحلام الثروة والمجد والجاه العريض . ففكر في ان يتخلص من روبرتا وان يذهب بها في قارب للنزهة ثم يدفع بها فى الماء فتغرق وتعتبر الحادثة قضاء وقدراً

نفذ الشاب خطته ولكنه كان ضعيف الخلق، ضعيف الارادة ، جبانا متردداً بحكم نشأته وتربيته فحدث ان تباطأ وتلكأ وان روبرتا هي التي حركت القارب سهوا ومن تلقاء نفسها حركة أفقدته التوازن فغرقت . ولما غرقت اختبل الشاب وضاع رشده وبدل ان يحاول انقاذها فر مذعورا وترك المسكينة تموت فاتهم وقبض عليه وحوكم وأدين واعدم على الكرسي الكهربائي .

هذا هو موجز قصة (فاجعة أمريكية) فماذا أراد الكاتب ان يصور فيها ؟

أراد ان يصور روح الوصولية العصرية وكيف فتكت بشاب طيب ساذج ضعيف منكود .

أراد ان يصور تلك النزعة السائدة ، نزعة عبادة المال وتقديسه والسعي الدائم اليه والاعتقاد بأن شجاعة الفرد لا تقاس الا بقدرته على ارتكاب الجريمة للفوز به

أراد ان يصور المثل المادي الاعلى الذي لا يمجده أبناء بلاده فحسب بل أبناء هذه الحضارة جميعاً

ولكن هذه الافكار لم يشر اليها الكاتب صراحة ومع ذلك فهي التي نستخلصها من حوادث روايته وهي التي نشعر بها نابضة حية من خلال سطورها .

وليس في هذه القصة العظيمة هذه الافكار فقط بل فيها أيضاً غيرها وفيها سلسلة مناظر ومشاهد رائعة عن المناطق الصغيرة في ولاية نيويرك وعن البحيرات الواقعة على حدود كندا وعن الحياة فى الفنادق الكبيرة والمصانع والمحاكم والمزارع والسجون

وهناك عدد وافر من الشخصيات الثانوية رسمت بريشة مصور له عين ملاحظ ماهر ويد فنان عبقري

وعليه فتيودور دريزر الذي يبدو لنا في ثوب الفنان المحايد المستقل هو ايضاً رجل ثائر على حضارة عصره . ولكنه لا يعلن ثورته ولا يجاهر بها بل يكتفي باظهارها من خلال مفاسد الوسط وعيوب البيئة التي يجعل منها مادة لرواياته ويجسمها في أبطاله الاحياء المساكين

سنكلير لويس

يقول بعض النقاد ان لغة الشعب عند ما تصبح لغة الكتابة يبدأ الادب القومي بالظهور

وسنكلير رويس روائي يكتب بلغة الشعب الامريكي ويتفق مع (منكن) في ان الكتابة بلغة الشعب هي الواسطة الاولى لخلق أدب قومي امريكي .

فأسلوبه يختلف كل الاختلاف عن الاساليب الانجليزية الكلاسيكية ويحمل طابعاً امريكياً صرفاً .

اما روايات سنكلير لويس فطويلة بطيئة مملة بعض الشيء كروايات اميل زولا ولكنها مفعمة بالملاحظات الدقيقة والشخصيات الحية والالوان المعبرة .

ان هذا الروائي لايتخيل ولا يرسم بل يقيد ويدون الجزئيات والتفاصيل وكل مايقع عليه بصره وما يمكن ان يكشف النقاب عن الجو الذى يتحرك فيه ابطاله .

ان احاديث اشخاصه منقولة حرفا بحرف عن الحياة الواقعة وكأنما هو قد سجلها بواسطة الفونوغراف اما محتويات البيوت التى يعيش فيها ابطاله وانواع طعامهم فيسردها واحدة فواحدة بغية اشعار القاريء بما فيهم من حقيقة مستوفاة كاملة . وتدور حوادث رواياته وهي (الشارع الرئيسى) و (بابيت) و (دودسورث) و (المرجنتري) حول موضوع واحد يقرب من موضوعات زميله دريزر وهو اصطدام الفرد بما يسمونه (الاستندارد) اي بسلطان الآراء والافكار والعادات التي اصطلح عليها القوم هناك والتي تريد كما اسلفنا ان تصب الشعب كله فى قالب واحد وتساوى بين الجميع في الضآلة العقلية وطريقة الحياة كما يساوى المصنع بين جميع البضائع التي تخرجها آلة واحدة .

اشتهر سنكلير لويس بقصتين (الشارع الرئيسي) و (بابيت) .

والقصة الاولي هي حكاية فتاه نزحت من مينيابوليس الي قرية صغيرة فى الغرب الاوسط وهناك اقترنت بطبيب ريفي . ولكن انحطاط المستوى العقلى فى تلك القرية الهب فيها نار التمرد فحاولت ان تنقذ نفسها وعقلها واحساسها غير ان احتقار من يحيط بها للملكات الذكاء المستقلة وانانيتهم وضيق اذهانهم وتعلقهم بمظهر الدين دون جوهره ونفورهم من النفوس الحرة الابية، جميع هذه العوامل اخضعت الفتاة وتغلبت عليها في النهاية والحقت بها الفشل الذريع

وقوة هذه القصة نشعر بها في عنف الصراع القائم بين تلك النفس الراغبة في الحرية و بين العرف الاجتماعي الفاسد الذى لاينفك يطاردها ويحاول ان يجذبها الى الحضيض

أما قصة (بابيت) ، جورج بابيت ، فابدع ما اخرجه الادب الامريكي الحديث حتى اليوم .

هي صورة مروعة لمخلوق قاتم هزيل هو نتاج الحضارة الصناعية .

جورج بابيت هـذا، انسان لا انسانية له ، لا شخصية له ، لا غرابة فى أخلاقه ولا شذوذ ولا طرافة ولا استقلال . يفكر كما يفكر سواه ، يحيا حيـاة الزواحف ، يشعر بعقله لا بقلبه ، ينظر الى الكون بعيون اشباهه . هو رجع صدى الالوف من نظائره ، هو مايسمونه في امريكا Regular fellow . يشغل مركز وكيل عقارات . يحيا حياة ملؤها العمل والجد والحركة والبشاشة والمرح . يحب التوسط والاعتدال . يخضع للنظام القائم . يؤمن بتعاليمه . يؤدى الشعائر الاجتماعية المفروضة عليه، يعتبر فى بلده مثال الرجل الوطنى الـكامل . أخلاقه يتحكم فيها قانون المصلحة فهو ليس بالرجل الطيب ولا بالرجل الشرير . وهو ليس بانسان ولا بحيوان . هو آلة لانتاج الدولارات. هو البورجوا الجديد الذى خلقته الحضارة الصناعية ونظامها الاجتماعى

وهكذا يعيش جورج بابيت أياماً وأعواماً طويلة متشابهـة ثقيلة مضجرة حتى يبلغ الخامسة والاربعين من عمره. وعندئذ يحس فجأة وهو على أبواب الشيخوخة انه لم يك شيئاً وانه لم يعش وان الحياة افلتت منه .

لا يكاد هذا الاحساس يستولى عليه حتي يتطور تطوراً غريباً ويحاول أن يثأر لنفسه من ميكانيكية الحياة التى عاش فيها . واذ ذاك يشعر بان شبابه الذي خنقه في نفسه لمصلحة العمل والنظام يستفيق بغتة ويناديه فيلبي جورج النداء ويلقي بنفسه فى احضان الحب والخمر والنساء والتفكير الحر المستقل المتمرد .

يثور ، وتوشك الثورة ان تجهز عليه وتهدم كل ما شيده ولكن الوسط يظل أقوى منه فيعود آخر الامر الى زوجته المريضة والى حياته التافهة الاولى مسلماً بكل شيء خاضعاً لكل شيء !

في هذه القصة ارتفع سنكلير لويس الى أوج الفن الروائي . صور مخلوقاً من الوف المخلوقات التي رآها حوله . مخلوقاً يمثل حضارة عصره . مخلوقاً يريد أن

يعيش ولا يدري كيف يعيش . يريد أن يحيا فيحول نظام حياته الآلى بينه وبين الحياة فينكص على عقبيه ويؤثر سكون النظام على ضجة الحرية .

وعليه فسنكلير لويس يقدس حرية الفرد ويثور هو الآخر على المدنية التي تخنق حرية الفرد . ثم يعرب عن ثورته لا بالخطب ولا بالمقالات بل بابداع شخصيات خالدة كشخصية ذلك المسكين جورج بابيت الذى عاش ومات مفقود الحياة ، ضحية الحضارة ، ضحية الآله ، رقماً غامضاً بين أرقام !

* * *

نستخلص مما تقدم أن أولئك الكتاب الخمسة الذين هم أعلام الادب الامريكى الحديث يتفقون في نزعة واحدة هي نزعة الثورة على الحضارة الصناعية الراهنة وعلى نتائجها التي أشرنا اليها .

ولقد شعروا بتلك النتائج أكثر من سواهم لان هذه الحضارة ارتقت في بلادهم أكثر مما ارتقت فى أية قارة أخرى . ارتقت وتضخمت لان الشعب الامريكي شعب شاب ،والشباب يعتقد على الدوام أن قيمة الحياة في الساعد ، في العضل ، فى الربح ، في المادة ، في الرخاء الذي يقنع الانسان أنه سخر الطبيعة لمصلحته وأرضخ العناصر لمشيئته وسلطانه . غير أن الاسراف فى حب المادة والخضوع الاعمى للنظام القائم بغية الفوز بها ثم اتخاذها مثلا أعلى ، كل هذا يفسد فضائل الروح ويعطل ملكات الذهن المستقل ويلهب عاطفة الانانية ويحجر القلب ويجعل منا جميعاً أشباه ونظائر للمسكين جورج بابيت .

فضد هذا الوضع الاجتماعى والاقتصادى والنفساني يثور كتاب أمريكا وتثور معهم نخبة المفكرين هناك وغرض الجميع من ثورتهم يمكن أن نلخصه فيما يلي :

أولا — الدعوة الى حب الآداب الرفيعة، واعتبارها قاعدة الحضارة الحقيقية وتقديس ماتوحى به من رغبة في طلب الجمال والسمو بالنفس وتلطيف الشهوات وصقل الميول والاخلاق ونشر المحبة والاخاء البشري .

ثانياً — الدعوة الى حب الفنون الرفيعة التي تؤدي نفس وظائف الآداب والتي يجب أن تحترم وتخدم لذاتها لا للربح المادي الذي ينشأ عن المتاجرة بها

ثالثاً — الدعوة الى حب العلم من أجل العلم لا من أجل المنفعة العملية المباشرة فقط

رابعاً — الدعوة الى احترام العقل الفردي ومساعدته على النماء والاستقلال والحرية ولو على حساب أوضاع المجتمع وقوانينه

خامساً — الدعوة الى تنبيه الانسان بانه انسان قبل كل شيء وانه وحدة مؤلفة من مادة وروح وان رقيه الصحيح لن يتم إلا متى نمت قواه الروحية وازدهرت وسارت جنباً الى جنب مع رقيه المادي .

سادساً — الدعوة الى اشعار الفرد ان فى العالم أشياء أخرى غير الثروة وغير أسباب الترف تستحق أن يعيش من أجلها الانسان ويجاهد ويضحى ويموت

سابعاً — الدعوة الى اشعار الناس جميعاً بان القاب ملك الفن وملك الادب وملك العلم وملك الفضيلة والقداسة هي التي يجب أن تسود وتلغي ألقاب ملك الفولاذ وملك الفحم وملك البترول وهي التى يجب أن نسعى لخلق مجتمع جديد مؤسس على نظام اقتصادي جديد يستطيع ان يجعل منها اهدافنا البعيدة وأمثلتنا العليا !

هذه فيما اعتقد صفوة الاغراض التى يرمي اليها ادباء امريكا .

والذي أحب في الختام ان ألفت اليه أنظاركم مخافة أن يلتبس عليكم معنى هذه المحاضرة، هو ان ليس في امريكا ولا فى اوربا اليوم شخصية مفكرة واحدة تنادى بهدم الحضارة الصناعية من أصولها بل كل عالم ومفكر واديب يحاول اصلاحها واستكمال أوجه النقص فيها وايجاد الوسائل التي يمكن ان تستخدم بها على خير وجه لمصلحة الفرد والمجموع

فمحاولة هدم الحضارة ضرب من العبث الجنوني لم يفكر فيه أحد إذ الحضارة الصناعية أصبحت عالمية وكل شعب لا يأخذ بها مصيره المحتوم الى الاضمحلال والفناء . أما الثورة التى يعلنها عليها كتاب أمريكا فهى ثورة الجبار على جبروته .

هي ثورة الجبار الذى يريد أن يبقى جباراً وأن يكون فى نفس الوقت انساناً !

هي ثورة في سبيل الاحتفاظ بالرقى الصناعي وقوته مقروناً بفضائل القلب والروح

هى ثورة فى سبيل الكمال الانساني ! وهذا هو لباب الدرس الذي يلقيه علينا الادب الامريكي الحديث .

ادب السرعة

للحضارة فى الادب تأثير كبير . والحضارة هي اللون المادى الذي تصطبغ به الحياة ، ومجموعة العواطف والميول السائدة في عصر من العصور ، وخلاصة أساليب الفكر الشائعة وطرائق العيش المتغلبة ، والمتجه الحسى والمعنوي لجهود الفرد والمجموع .

وحضارة اليوم صناعية علمية توشك ان تسوذ العالم من أدناه الى اقصاه . فالمواصلات قد سهلت العلاقات بين مختلف الامم، والمصانع المزودة بأحدث الآلات تشيد في كل مكان، والسيارات تنهب الارض، والطيارات تشق أجواز الفضاء، وأجهزة الراديو والسينما تحطم الحواجز بين قارة وأخرى وتعمل على إيجاد تلك الوحدة الانسانية التى طالما تغني بها الكتاب والشعراء

هذه الحضارة الصناعية الجديدة تختلف عن الحضارة الزراعية القديمة كل الاختلاف

فالاولي طابعها السرعة . والثانية طابعها التأمل. الاولى قائمة على العلم والثانية على العقائد . الاولى تؤثر العمل العاجل المثمر على التفكير الطويل العقيم . والثانية تسرف فى التفكير وتجد فيه من لذة التأمل والحلم والتواكل والتردد ماتدعوه حكمة وما يقعد بها عن العمل والمغامرة والاقدام . ولست ممن يقولون بأن الحضارة الاولى مادية النزعة والثانية روحية المقصد . اذ غاية الحضارة الصناعية في مراتبها العليا ان تعمل للمادة والروح معاً . ان تسعد الفرد بطرائفها المادية ، وتشعره بالقوة العضلية والفرح الباطنى ، وتخفف عنه عبء العمل ، وتكفل مطالبه اليومية ، وتمنح الجميع من أوقات الفراغ مايستخدم لتثقيف العقل وتهذيب الخلق وصقل الروح .

ولقد كانت الحضارة الزراعية ترى السعادة القصوى في الروحانيات وحدها .

أما الحضارة الراهنة فغرضها الاخير أن توفر العمـل وأوقات الفراغ للجميع فتشعر الفرد بأنسانيته وتتقدم به نحو الرقى العقلى والروحى موفور الكرامة .

فتوفير العمل وضمان الرقى العقلى والروحي عن طريق العمل . هذه هى غايات الحضارة الصناعية التى تكسبها ذلك اللون المادي الصارخ الذى يزعج بعض المفكرين ويبدو لهم كأن لا شيء روحي وراءه وكأنه غرضها الاول والاخير . والواقع ان معظم الجهود التي تتمخض عنها الحضارة الصناعية اليوم هي جهود مادية محضة تسعى لمرضاة غايات مادية محضة . ولكن الذي يغيب عن أذهان الكثيرين هو أن هذا الجهاد المادي أو هذه الفوضى المادية انما هى المرحلة الاولى من مراحل الحضارة الصناعية وهي التوطئة التى لا بد منها للوصول الى المرحلة الثانية التي سوف ينظم فيها العمل على أسس جديدة قد تنتهى الى تحديد الانتاج بحيث يتناسب العرض مع الطلب وتقوم الآلة مقام العامل فلا يشتغل في اليوم أكثر من أربع ساعات تسهل عليه انفاق بقية نهاره فى تهذيب نفسه وتغذية عقله بمختلف العلوم والفنون والآداب .

هذا هو مثل الحضارة الصناعيه الاعلى ، وما الاضطراب الاقتصادي الذى نشهده اليوم الا دور الانتقال والتحول الذي لا مندوحة عن اجتيازه للبدء فى تحقيق ذلك المثل الانساني العظيم .

وعليه فنحن نعيش اليوم في ظل حضارة جديدة ، لم تستوف بعـد أطوار نضوجها وهي تؤثر كما قلنا في أفكارنا وعاداتنا وعواطفنا ونظرتنا العامة الى شئون الحياة.وهذا التأثير يتناول بالطبع شتى المظاهر الثقافية لاسيما الادب الذي هو الصورة الصادقة للحياة

فاذا ما بحثنا عن أثر حضارتنا — بشكلها المادى — فى الادب وجدناه في طابع السرعة الذى اتسمت به طائفة كبيرة من أعمال كبار كتاب الغرب المجددين

والحق ان السرعة أصبحت عند الغربيين ضربا من العبادة ، فهم بفضل التقدم العلمي الآلي يقطعون الابعاد الهائلة بسرعة رائعة بل هم يفكرون بسرعة ويعملون بسرعة وينتجون بسرعة ويطالعون ويكتبون ويبنون ويهدمون ويحبون ويبرأون من حبهم بسرعة فائقة

ولقد أذهلتهم هذه السرعة وفتنتهم الى حد أنها إستولت على مركز الفكر والعاطفة منهم وأحالتهم في نظر أنفسهم الى انصاف آلهة . .

ومما لا يقبل الريب أن للسرعة نشوة . اذ السرعة نقيض البطء . والبطء — وان كان يسمح للفرد بتذوق الحياة على مهل والتأمل فيها والتمتع الحالم بمحاسنها — الا أنه يضطره الى التضحية بأجزاء ونواح كثيرة منها . أما السرعة فتحفزه للاشراف على الكون كله ، والاستمتاع به كله ، واحتضان اكبر مساحة ممكنة منه

فكأن في السرعة انتصاراً على الزمن واذلالا له ، ومضاعفة ظاهرة لا للنشاط الحيوي فقط-بل لعوامل السيادة والتفوق التي يمتاز بها الانسان العصري

والواقع ان غرض العلم الحديث هو تسخير قوى الطبيعة وامتلاكها . وما حب السرعة الا انعكاس هذا الغرض في النفس الفردية الطامحة الى امتلاك العالم

فالحياة القديمة البطيئة بجوها الضيق وأفقها المحدود وتأملاتها وفلسفاتها وعقائدها وشعرها المر الحزين لم تعد مما يجتذب الامريكي او الاوربي

انه مفتون بنشوة السرعة ، وشعر السرعة . يؤثر ان يجوب أطراف العالم في طيارة — ولو انه لن يرى من حقائق هذا العالم الموزعة في أقطاره شيئا — على ان يستقر في بقعة واحدة من الارض ينصرف فيها الى التأمل او العبادة او التفكير او قرض الشعر أو السمو بالنفس والاحساس الى مستوى غير مألوف

ان مجرد احساسه بالسرعة التي مكنته من الطواف حول العالم في مدة لم يكن يحلم بها أسلافه ، تلقي في روعه انه من معدن بشري آخر وان من واجبه الا يقصر

حياته على جهد واحد ولذة واحدة ، وان فى مقدوره أن يضطلع بمختلف الاعباء والجهود ، وان يقيس بين مدى قواه البشرية وقوى العناصر المتألبة عليه . فهو ينشد الامتلاك الكلى للحياة ، لا الانقطاع لحيازة شيء واحد . وهو ينشد السرعة لان السرعة تختصر الحياة وتقدم له أوفر كمية منها في أقصر وقت فيحياها متقدة زاخرة مضاعفة ويحس انه خالقها وسيدها !

***

و كان لا بد لهذا الاسلوب الجديد في الحياة أن يخلق أسلوبا جديداً في الادب بل كان لا بد لهذه الحضارة الآلية الناشئة أن تؤثر في الادب . ولقد أثرت فيه كما أثرت في الفنون الاخرى كالتصوير والرقص والموسيقى .

أحس معظم كتاب الغرب ألا مفر لهم من النظر الى المرئيات بعين السرعة، ورسم العواطف والميول فى علاقتها اليومية بقانون السرعة ، والعمل على أن يكون وحي الادب هو وحي السرعة ، وتجديد الادب بحيث يطابق شكله وجوهره اهم النزعات السائدة في العصر الذي كتب فيه

وأبلغ ما تتمثل هـذه الظاهرة فى أعمال فريق من قصصي فرنسا أمثال (بول موران) و (بليز سندرار) و (اندريه سلمون) و (ماكس جاكوب) و (بييرماك اورلان) واضرابهم

ولسنا هنا في معرض الكلام عن أعمال هؤلاء الكتاب بل عن الطريقة الفنية التي ابتكروها والتى تحمل طابعا فردا هو طابع السرعة وان كان هذا الطابع يتخذ صوراً واشكالا عدة بحسب مزاج كل كاتب وقدرته على الخلق ومواهبه الدالة على شخصيته المستقلة .

أما تلك الطريقة الفنية الجديدة فتقوم على قواعد أربع : انكار التحليل العاطفى والوصف التفصيلي ، وانكار الاستعارة المنطقية ، وانكار الاسلوب الفخم المنمق .

فالقصصي الولوع بمذهب السرعة لا يحلل العواطف ولا يتبسط في شرحها

والتعليق عليها ولا يحفل بالتعمق فيها لاكتناه خفي أسرارها . اذ التحليل في عرفه يجزيء الشخصية الانسانية الى مجموعات متفرقة من الميول والاهواء ويظهرها في اطار نفسي مفكك لا يتفق وارادة العمل وسرعة التنفيذ التي يعرف بها الانسان العصري .

فالتحليل يستلزم البطء ، والبطء يناقض روح العصر ، ويحطم الصورة المتحركة المتوثبة التي ترتسم في أذهاننا عن الفرد المتحضر الحديث .

فالواجب في زعم أدباء السرعة أن يتناول القصصي الشخصية الانسانية بنظرة شاملة ليدل على أهم الجوانب البارزة فيها . ثم يشير — ببعض الملاحظات المتباعدة الدقيقة — الى بقية الجوانب الغامضة منها ويحرص في غضون ذلك على أن يلم باطرافها جميعاً ويشعر القاريء بمجموعها كاملا حياً في عبارات مقتضبة قصيرة تمر سراعا كالبروق الخاطفة وتمثل الصورة في مخيلة القاريء كما تبدو له في معترك السرعة والعمل اليومي نابضة مختلجة حية .

ويعتقد أنصار هذا النوع من الادب القصصي أن الانسان العصري لا يميل الى الافراط في العواطف وان شواغله الكثيرة لا تسمح له بهذا اللهو النفساني . فهو ابداً موزع الوقت بين عمل يباشره وآخر يفكر فيه ، بين متعة يتذوقها وأخرى يصبو اليها ، وأن الحضارة الصناعية قد أحاطته بشتى الاعمال واللذات بحيث أصبح من المستحيل عليه أن ينطوي على نفسه وينمي عواطفه وينظر فيها ويناقشها ويحللها في سكينة وهدوء كما كان يفعل الانسان القديم

وبقدر مايكره أصحاب مذهب السرعة نزعة التحليل في القصص يكرهون نزعة الوصف التفصيلي . إذا الوصف التفصيلي هو البطء والوصف الاجمالي هو السرعة وهو رمز الحياة الحديثة . فنحن اليوم لانشهد المناظر الطبيعية وقوفاً بل نجتازها اجتيازاً في سيارة أو طيارة أو قطار . والواجب أن يرسمها القصصي متقطعة متعاقبة متبدلة محمومة كما تبدو لنا من السيارة أو الطيارة أو القطار . أما الاسترسال في تصوير

دقائقها وتفاصيلها فطريقة تصلح للانسان الواقف الجامد المتأمل لا للانسان النشط المنهمك السريع

ومما يلفت الانظار فى فن هذه المدرسة الانشائى تجنب الاستعارة المنطقية بمعنى أن الاستعارة التى هي مادة الشعر وواسطة ابراز الحقيقة ينبغي ألا تكون متناسبة الالوان متسقة الاضواء متقاربة الاصول منطقية التركيب ، بل يجب أن تقفز بسرعة من لون إلى لون وان تصل بين شيء قريب وآخر بعيد عنه كل البعد ، لترمز الى وحدة الكون التي أوجدها العلم

فاذا حاول الكاتب أن يرسم شجرة مثلا فيمكنه أن يشبهها بموجة كبيرة أو بقامة إنسان أو بعامود التلغراف أو بجميع هذه الصور المختلفة فى وقت واحد

وهكذا يقرب اليك الالوان البعيدة ويوفق بين أجزائها المتنافرة ويحقق في التصوير الفني تلك الوحدة الكونية التي حققها العلم في الحياةاليومية

أما الاسلوب الفخم المنمق التقليدي فأبغض الاشياء الى اولئك القصصيين . والواقع أن تخير الالفاظ وحبكها حبكا صناعياً والكلف بوقعها وتأثيرهـا لما يخنق في الاسلوب خصائص التفكير على حساب محسنات اللفظ فيضعف فيه قوة الحركة ويعترض مجراه الطبيعى الفوار ويبتليه بداء البطء

والواجب في زعم أنصار مذهب السرعة أن ينطلق الاسلوب جارفاً كأعصار يلم بكل شيء ويعبر دفعة واحدة وبقدر المستطاع عن كل شيء . لاتصده الحواجز الصناعية ولا تقف في سبيله كلمة مبتذلة أو عبارة دارجة أو مصطلح سوقى مادامت هذه الكلمات والمصطلحات قد انحدرت مع الاسلوب في أول اندفاقاته وحملت طبائع الغريزة والصدق والحياة .

وليست العبرة هنا في أهمية الالفاظ من حيث هي أدوات متفرقة يؤلف مجموعها الصورة الكاملة لجمال الاسلوب ، بل العبرة كل العبرة في ان يتألف جمال الاسلوب من فرط الاحساس بحركته وسرعته وشموله وقدرته على التعبير عن

أوفر كمية من الالوان والمعاني في أضيق حيز وأقصر وقت .

ولا يجب أن يفهم مما تقدم ان هذا الاسلوب هو الاسلوب الصحفى . كلا . إذ الملاحظ في الاساليب الصحفية الشائعة أنها عاطلة فى العادة من كل فن . وانها تحقيقية أكثر منها فنية ، رياضية أكثر منها أدبية،وانها فقيرة في العرض والجوهر ، في اللفظ والمعنى ، تمر بالحوادث مراً وتلمس الافكار والاشياء لمساً سطحيا خفيفاً .

أما أسلوب السرعة في الادب فيجمع الى الاحاطة حسن الذوق وقوة البلاغة ودقة اللفظ وعمق الفكرة وخصوبة المعنى مع الحركة المطردة والغليان المستمر .

ولقد نبغ الكاتب الفرنسى (بول موران) نبوغا عظيما في هذا الاسلوب الطريف فهو يكتب وكأن ريشته تطير من معنى قريب الى معنى بعيد . من لون واضح الى لون قاتم . من صور دانية الى خيالات قاصية تمت الى تلك الصور بصلات غريبة كانت مجهولة منا فقربها الكاتب الينا ووفق بينها ووحدها فى سرعة مذهلة فاتنة

هذه هي أهم القواعد التي يقوم عليها أدب السرعة بسطناها للقارىء بسطاً موجزاً ولم نفاضل بينها وبين القواعد التى يستند اليها أدب البطء والتأمل والتحليل الذى مايزال حياً زاهراً في عصرنا هذا وممثلا فى أنبغ وأشهر أدباء الغرب .

وإذن فحضارتنا الصناعية قد أوجدت أدباً خاصا بها .

ولكن هذه الحضارة كما أشرنا مابرحت فى دورها الاول ، دور القلق والاضطراب والفوضى .

وسوف تجتاز ولا شك فترة الانتقال هذه فتنتظم أوضاعها وتستقر دعائمها ، ومن يدري فقد يتقلص عندئذ نفوذ أدب السرعة ويرجع الادباء والقصصيون الى التشبث بأدب التأمل والتحليل والبطء .

اجتماعیات

من ذكريات ثورة مارس

المرأة المصرية
قبل الكفاح الوطني وبعده

ظلت المرأة المصرية الاجيال الطوال بمعزل عن الدنيا، قعيدة البيت ، مهيضة الجناح، مسلوبة الحق ، لا تنفذ الى مسامعها صرخة الحياة الا اذا نفذت الى حجرات بيتها للوصد أشعة الشمس !

وكان الرجل يسومها الخسف والهوان، ويضرب عليها ذل الحجاب، ويحول بينها وبين التطلع الى حياة ارحب واسمى، فالفت العيش فى عقر دارها واعتادت خنق مواهبها ، وتوجهت بكل قواها كالحيوان الاليف الى حراسة النسل وامتاع الرجل

وكانت اهنأ ما تكون بنصيبها، لا تشكو ولا تتململ ولا يخالجها أيسر ظن بأن فى الكون العريض حياة غير حياتها وفى فسحات الطبيعة جمالا غير جمال دارها وفى العقل البشرى الحر كنوزا غير حليها اللامعة وأثوابها الزاهية وطعامها الفاخر وحظها الموفور من الراحة والامن والهدوء

وكانت قد بلغت من العبودية حدها الاقصى، ترى الظلمة نورا ، والجهل نعمة ، والطاعة العمياء فرضا ، والحجب والسجن دليلا بالغا على ما يكنه لها الرجل من عظيم التقدير والحب !...

وأصيبت على مر الزمن بضرب من الوجل الهستيرى الشائن، فكانت لا يكاد يقع بصر غريب عليها حتى تفر مذعورة كأن بها مسا ، ولا تكاد تجلس فى حضرة رجال حتى تغض من بصرها وتتعثر فى كلامها وتضطرب وتحار وتتلفت وتنتفض !

هذا الخوف من الرجل كان كابوس حياتها، وهو الذي كان يطمعه فيها ويغريه

بها ويحفزه للعبث بضعفها و يسوقه الى الحرص عليها كحدقة العين الغالية ...

ومعنى الحرص عنــد الرجل هو الاستعباد ، والاستعباد إذا تفاقم وطال عليه الامد ولم يصادف تبرما ولا سخطا ولا مقاومة ، استحال إلى لذة مريضة عند الظالم والمظلوم معا ، عند السيد والعبد معا . وكذلك كان الحال فى الاسرة المصرية !

ولقد نشأت وا أسفاه فى أسرة من هذا الطراز ، كان فيهــا الظلم دينا ، والقسوة عقيدة ، وسجن الزوجة أبديا ، والافراط فى الغيرة الطائشة على العرض جنونا ، واذلال المرأة الضعيفة ضربا من الشجاعة والنخوة ، وعنوان فخار يزدهي به الرجل القوى !

وتطلعت الى بيوت الناس فخيل إلى أنها غاصة بالاشباح أيضا ، أشباح المصريات اخواتى ، المعتقلات المنفيات البائسات ، تطوف بالغرف كارواح مشردة حائرة ، لا اكاد ألمح منها الآونة بعد الأخرى غير نظرات عيون عابرة تلتمع من خصاص نافذة ، أو من شقة باب ، أو من خلف نقاب أسود كثيف بغيض اسدله شيطان على وجه فيه الـكثير من معانى الله !

تلك كانت حياة المرأة المصرية في بيتي و فى معظم بيوت الآخرين . ولشد ما تسهدت الليـالى الطوال ومضيت أفكر فى القوة الجبارة التي فى وسعها أن تهز تلك المخلوقات من سباتها وتصب دم الحركة والحياة في أبدانها المـكتنزة المترهلة البليدة التى أكلها الشحم !

وفى ذات يوم من أيام مارس بعد إذ جاءنا النبأ باعتقال سعد وصحبه ، شعرنا بغتة كأن الأرض زلزلت زلزالها وأخرجت اثقالها ونفضت عنهـا حيوات الالوف ممن كانوا يعيشون فى بطنها عيشة أنصاف البشر الغابرين فى ظلمات المغاور والـكهوف !

وكان سيلا دافقا اكتسح فى طريقه كل شيء ، وعاصفة حيــاة عاتية اقتلعت جذور المـاضى النخرة وقوضت بنيانة واطلقت الجماهير فى عرض الفضاء يطاردهم الاعصار إلى حيث قدس الوطنية الاعلى

وشاهدت اخى الصغير يصفق بيديه الناعمتين وأحسست حنجرته الرقيقة تنشق وهي تهتف لمظاهرة : « يحى الوطن ! »

ورأيت ابن جارنا البالغ من العمر ست سنوات ينصب فوق شرفته علما مصريا يداعبه النسيم فيرفرف مجاهدا كروح توشك أن تطير !

وأبصرت جارتى الحسناء المستهترة اللعوب ذات الاثنتى عشر ربيعا تقطب حاجبيها فى حشمة وجد ووقار، مكبة على قطعة قماش تخيط علما مصريا وهى تتئد لحظة بعد لحظة وتتراجع لتقيس بنظراتها الثاقبة هندسة النجوم !...

وسمعت والدتى على دهش منى تقول ان من الواجب نصب علم فى شرفتنا نحن أيضا، ورأيت شقيقتى وقد غارت من جارتها تطلب أن يجيئوها بقماش لتصنع هى الأخرى علما !

وكان والدى رجلا عاقلا حكيما وكنا فى عهد العاطفة لا العقل، وفى زمن الجنون الخالق لا الحكمة القاتلة، فعارض والدتي فيما طلبت وحرم على ابنتها وعلي الظهور في الشرفة، ولما أن صارحته برغبتى فى اتباع الجماهير المتظاهرة، احتقن وجهه وارتعدت شفتاه، فلما ألحفت دفعنى عنه ثم انقض علي وأوسعنى ضربا وركلا

هذه الاهانة التي شعرت انها جاوزت شخصى ولحقت جميع أولئك الذين عرفت انهم ماتوا ويموتون الآن فى الخارج مستشهدين من أجل وطنى، ألهبت حماستى وأضرمت نار الحمية فى صدرى فغافلت أبى وأمى واندفعت إلى الشارع لا ألوى على شيء

وكان ميدان فسيح. ومظاهرة هائلة، وجو خانق حار، واعناق مشرئبة، وجباه يتصبب منها العرق، وفتاة عارية الرأس مشعثة الشعر ذاهلة العينين عصبية الحركات، اعتلت ظهر عربة ووقفت تخطب الجمهور بصوت رقيق حاد قوى يحز الابدان وخزافيهتاجها ويطوح بها جميعا في هتاف مشوش مختلط مروع !

وبهت اذ أبصرت الجماهير تتبع تلك الفتاة وهى تتقدم بعربتها الصفوف، والعلم مرسل فى يدها، وهالة من الشباب الناضر تحيط بها، والريح تلفح شعرها وتحمل صرخاتها الحادة الى اعماق القلوب !

عندئذ وثب الدمع الى عيني برغمى، وخنقتنى العبرات، وأحسست أن الحياة جنت من حولى، وان بلادى غير مأهولة الا بأبطال، واننى ملك قوة تمزقنى الساعة

دون رحمة لتخلقنى أنا والجميع خلقا جديداً على يد هذه الفتاة !

وعدت الى البيت وقصصت ما رأيت على والدتى وما أسرع ما دب الخلاف بينها وبين أبى .

استبد بها فاحتملته ! اضطهدها فثبتت له ! أخذ يهزأ بالثورة وأبطالها فلم تحفل به ! أوصد باب البيت وحمل مفتاحه فحطمت الباب وخرجت !

خرجت تشهد المظاهرات غير آبهة للموت الطائش فى الهواء .

آمنت بمصر فسكب الايمان عليها ضوءه المحيى وكفر بها العاقل الحكيم وظل معذبا بهذا الكفر حتى قضى نحبه !

تلك هى المعجزة . لم يؤمن الرجل ولكن المرأة آمنت ومتى حل الايمان فى قلب المرأة ففى وسعها أن تقول للجبل انتقل فينتقل !

ولقد تزحزح الجبل بالفعل . ولقد أبصرت المعجزة بعينى وما شككت لحظة أن مثلها وقع فى مئات البيوت المصرية .

أبصرت والدتى تثور فى البيت كما تثور الجماهير فى الشارع . تسخط فجأة على التقاليد البالية ، تفكر طويلا ثم تراجع زوجها فى اخطائه ، تعلم أولادها فضيلة الكبرياء ، تلقى فى روعهم أن مصر خليقة بأن نألم كى تفرح وان نموت كى تحيا .

شاهدتها وهى المرأة الشديدة المحافظة تنزع لاول مرة نقابها وتخرج سافرة ! شاهدتها تحرض ابنتها على الاقتداء بها !

شاهدتها لاول مرة ترفع الصوت فى وجه زوجها وتقول ، إن لا حياة بلا استقلال ولا حياة بلا حرية ولا حياة بلا مجد وشرف ، ثم تهدأ ثائرة أعصابها ، وتنتبذ بى من الحجرة مكانا قصياً ، وتروح تسألنى عما هو الاستقلال ، وما هى الحرية ، وماذا صنع الانجليز بنا ، وما الذى سوف نصنعه لما نطردهم ونظفر باستقلالنا !...

كانت تحس ولا تفهم . ولكنها في احساسها المؤمن البسيط كانت أنبل نفسا وأطهر قلبا وارسخ عزيمة من أولئك الذين يفهمون ويعلمون ولكنهم لا يؤمنون !

وكنت كلما تأملتها انجابت عن ذهنى سحب الماضى العتيق وتقلصت شيئا فشيئاً

صورة المرأة للمصرية المستعبدة الاولى، تلك الصورة التى طالما أرقتنى وأقضت مضجعى وعكرت ساعات تفكيرى، وابتلتنى فى ضحوة شبابى بيأس مخامر كدت أنكر معه كل مستقبل زاهر للحياة الاجتماعية فى بلادى !

ولكن القوة الجبارة ، قوة الايمان باستحقاق الحرية ، فعلت فعلها . واذا كانت قد استطاعت ان تنفخ الحيـــاة فى امرأة على شفا الشيخوخة فكيف بها مستقرة فى صدور فتيات الجيل الطامح الجديد !

ولقد اهتز هذا الجيل الجديد وربا وها هو يؤتى بفضل تلك القوة ابرك الثمرات. ففى ظل الفلاحات والعاملات والطالبات وسيدات البيوت والقصور ممن كن يسقطن صرعى الجهاد أو يكافحن بألسنتهن وأقلامهن وأموالهن ، فى ظل هؤلاء جميعا تنبت فتاة مصر اليوم متجهة بعقلها وقلبها وايمانها الطاهر صوب الشمس !

الشـــرق
على مذبح الاستعمار

كانت النظرة الأوربية الى الشرق والشرقيين حتى نهاية الحرب الكبرى نظرة استخفاف واستغلال وازدراء. كانوا يرون فينا الشعوب الطيعة المتواكلة المغلوبة على امرها الراضية بما قسم لها المنصرفة عن الدنيا الى الدين وعن مطالب الجسد الى علالات الروح.

وكان الشرق يمثل فى اذهانهم صورة خلابة رائعة من جمال الطبيعة وسحرها، وفتور العقل واحجامه وتأجج الشهوة واضطرامها وغرائب العادات وفتنتها.
ولم يكن احب الى كتابهم وشعرائهم من التغنى بمحاسن هذا الشرق، واغراء اهله بحبه، والاستمساك به والذود عن تقاليده واقامته بمعزل عن مؤثرات الحياة الغربية كى يهرع اليه الاوربى بعد جهاده فيرى فيه الملجأ الشعرى الأمين والفريسة المهيأة للذبح والسلخ.

وهكذا كان ادباؤهم يروجون الدعوة للشرق الجميل ويغررون بأبنائه بينما كانت ايدى ساستهم ومستعمريهم تمتد الى عصب الحياة من هذا الشرق تحاول أن تقضى عليه القضاء الاخير!

والظاهرة التى لم يكن فى وسع الشرقيين ادراكها إذ ذاك هى، ان تحمس الاوربى للشرق وغيرته المزعومة على تقاليده واعجابه بعاداته وتشجيعه اهله على حمايتها وتقديسها والاحتفاظ بها، انما كان باعثها الخوف على نفسه والاشراف على المستقبل البعيد والشعور الخفي ان لا بد من حبس هؤلاء الشرقيين فى سجن ماضيهم، وتحبيب هذا السجن الى نفوسهم وتزيينه لهم، خشية أن تنفتح ابصارهم على الحياة الاوربية الاخرى فتأخذ عقولهم فى المفاضلة بينها وبين حياتهم فتحس الهوة السحيقة التى ترتطم فيها، فتنزع

الى الاصلاح والتجديد والثورة . وعليه فالمستعمرون يغزون بلادنا ويخططون فيها الطرق وينشئون الميادين ويفتحون المناجم وينظمون التجارة والزراعة ويشعرون الشعب المستعبد بشيء من الرخاء المادى ، ولكنهم فى الوقت نفسه يبقون على تقاليده العتيقة وعاداته البالية وبدعه الزرية وانظمته المتوارثة ولاسيما الخاصة منها بالاحوال الشخصية كوسائل تمكن لهم منه وتستميل اليهم البعض من رجال المال ورجال الحكم ورجال الدين، أى العناصر المتحكمة فى الاغلبيات الساحقة، فيتحالف الكل على استنزاف دم الامة المستعمرة وابقائها على ما هى عليه من عبودية وجهل وجمود

ومن خصائص الاستعمار المعروفة انه عدو التعليم الصحيح الذى يخلق فى الافراد ملكات الاعتماد على النفس والاستقلال الشخصى . فهو ينشر لغته اينما حل ولكن لا كاداة للثقافة المحررة العالية بل كواسطة للتفاهم وتسهيل المعاملات التجارية، وهو ينظم التعليم ولكن بجعل الفصول ثكنات والمدارس مصانع تستورد منها الحكومة ما هى في حاجة اليه من موظفين .

وقد يرى المستعمر ان الطبقة المتمولة تنزع الى تعليم أفرادها تعليما عصريا عاليا فتراه يسرع بالتأثير عليها واقناعها بارسال ابنائها يتلقون العلم في بلاده هو ، فاذا ما عادوا منها يحملون الاجازات لوح لهم بالوظائف الكبيرة فادمجهم فى حظيرته واتخذ منهم آلات مسخرة لمصلحته واتفق معهم على تأليف طبقة من البير وقراطية الحاكمة تمعن فى اضطهاد الشعب واستغلاله .

ولقد طالعت أخيرا للكاتب الفرنسى (اندريه موروا) كتابا يشدو فيه بشخصية المستعمر الكبير المارشال ليوتى ويعدد مناقبة ويرسم منه صورة بطل انسانى عظيم، فتأملت سر هذه العظمة فوجدته فى التفوق والنجاح الذى يزعم الكاتب ان المارشال قد اصابهما في تطبيق العوامل السالفة تطبيقا ماهرا حكيما على الشعب المراكشي ..

وكنت قد طالعت قبل هذا مؤلفا آخر للكاتب (رينيه بازان) يشدو فيه هو أيضا بشخصية قس مبشر اسمه (شارل دى فوكو) مهد للمستعمرين الفرنسيين بتبشيره بين قبائل الزنوج فادركت كيف ان اولئك الناس يتجاوزون عن مهاجمة

رجال الدين فى بلادهم بل يستحعون بالدين و يحار بونه علانية ثم يخدمونه و يحمونه متى كانت غايته المنفعة وغرضه نشر السيادة والاستعمار . وهم يوفدون إلى الشرق ارسالياتهم تطبع الشعب بطابعهم، وتمهد لاستعمارهم، وتدعمه من خلال الدعوة النبيلة الى نشر التعليم على يد قساوسة يتظاهرون بالبراءة والنزاهة والخدمة العلمية الخالصة، فاذا ما رغبت الحكومات الشرقية فى الاشراف عليهم ومراقبة مدارسهم وما فيها من برامج ذات صبغة تعليمية خاصة ودعاية وطنية معينة، اصطدمت بالحكومة المحتلة صاحبة السلطة المطلقة كما فى الهند مثلا أو اصطدمت بصخرة الامتيازات الاجنبية كما هو المشاهد عندنا فى مصر .

ومن الاوهام الشائعة فى مصر حول مسألة الاستعمار تفضيل البعض نوعا من الاستعمار على نوع آخر وقولهم مثلا ان الاستعمار الانجليزى خير من الاستعمار الفرنسى كأن فى وسع الرجل الابى الحر ان يفرق بين قيد وقيد و بين استعباد واستعباد .

ولكى نهدم هذه النظرية الفاسدة الدالة على مبلغ تفشى الجهل والنذالة فى نفوس البعض منا نسوق الى القارىء فقرة من مقال عن (الانجليز فى الهند) كتبه الزعيم الوطنى الهندى سومند رانات تاغور ونقلته صحيفة (موند) الفرنسية وترجمناه نحن الى العربية منذ عام فى مجلة (الاسبوع) الغراء .

قال الزعيم الهندى :

يعتقد الكثيرون أن الهند انتفعت من الحكم البريطانى فى شتى ميادين الحياة الاقتصادية والاجتماعية وأنها مدينة للانجليز بمناعم الحضارة الحديثة وما الى ذلك . وأن الواجب يقضي على الهند بعرفان جميل أسيادها الذين أخرجوها من الظلمة الى النور، ومنحوها حياة متمدينة جديدة . هذا ما يعتقده كثير من الاوربيين . ولكنى أرى أن من الخطأ الفاحش أن نخلط بين الحضارة وبين الاحتلال البريطانى

فالهند مدينة للعلم العصرى بما أحرزت من تقدم نسبى فى دائرة الحضارة الصناعية كما أن اليابان مدينة لهذا العلم أيضاً .

واليابان قطعت شوطا بعيدا فى ميدان التقدم الاقتصادى والتجارى والصناعى

دون ماحاجة الى وصاية أجنبية تفرض عليها . أما أفغانستان وهى البلاد التى كانت الى عهد قريب تحيا حياة بدائية ساذجة فطرية ، فلم تشعر البتة أن من الضرورى أن يستعمرها البريطان كى تعرف الكهرباء وتنشىء السكك الحديدية وتصبح دولة عصرية متحضرة .

ومما لا ريب فيه ان كلا من اليابان و الافغانستان قد خطت فى طريق المدنية الحديثة خطوات عظيمة لانها كانت مطلقة اليدين من كل غل اجنبى مرهق .

و بديهى أن مصلحة الانجليز فى أن تظل الهند مدة طويلة فقيرة في الصناعات لهامة كى يسهل على التجار البريطانيين جعلهاسوقا كبيرة لهم .

وهذا هو السر فى أن السياسة البريطانية كانت ترمى على الدوام لمعارضة كل تقدم صناعي واقتصادى فى الهند .

ولو ان الهند كانت حرة مستقلة لاستطاعت ان تحقق آلاف الاصلاحات التى تعجز عنها الآن وهى تحت النير الانجليزي ..

ويجب أن يفهم الأوربيون وغيرهم أن التقدم الصناعى الذى احرزته الهند إنما ظفرت به على الرغم من ارادة الانجليز. فلماذا يحتم الاوربيون علينا والحالة هذه ان نعترف للاحتلال البريطانى بجميل وهمى ؟ وإنى لأتساءل ما هو الاستعمار البريطانى فى الهند وما هى خططه واساليبه ؟

الواقع ان انجلترا تمعن فى استغلال الهند من الناحية العسكرية وهذا الاستغلال يكلف الهند ٤٠ مليون جنيه كل سنة . وفى تصريح اخر للمستر توتنهام السكرتير الحربى ان مصانع السلاح الهندية تستطيع ان تصنع كل ما تحتاج اليه بريطانيا من بنادق ومدافع وذخائر حربية متنوعة ... وقد ذكر المستر توتنهام نفسه أن هناك اموالا هندية طائلة تنفق على صنع الطيارات ومختلف ادوات الحرب ، وأن ستة من كبار أمراء الهند الموالين لبريطانيا بذلوا جهد المستطاع لتحسين جيوشهم الخاصة وتزويدها بجميع وسائل الحرب لتستخدمها السلطات الانجليزية عند الاقتضاء .

وهكذا تتأهب انجلترا للحرب المقبلة على حساب الهند ثم تلوح فى جلسات

مؤتمر نزع السلاح الاوربية برغبتها فى السلام .

ثم ان هناك وجها آخر للاستعمار البريطانى وهو استغلال مجموع السكان الهنود .

إن أصحاب رؤوس الاموال الانجليزية قد وضعوا فى مشروعات هندية مختلفة مبالغ هائلة تقدر بسبعمائة مليون جنيه يتقاضون عليها ٢٥ مليون جنيه كفائدة سنوية .

ثم ان الصادرات البريطانية الى الهند — رغم هبوطها فى العام الماضى (١٩٣٢) — قد بلغت ٩٠ مليون جنيها .

أما المرتبات والأجور التى تدخل جيوب الانجليز فتبلغ ثلث دخل الامة الهندية اى ما يقرب من ٣٢ مليون جنيه فى العام .

وعليه فالانجليز يبتزون من الهند حوالى ١٥٧ مليون جنيه سنويا ، وهذا الاستعمار الواسع النطاق يرهق اغلبية الشعب الهندى ويفرض عليه ضربا من البؤس لا شبيه له إلا فى بعض مجاهل الصين السحيقة

ومما يجدر بنا لفت النظر اليه ان هذه السياسة جعلت ٥٠ مليونا من الهنود يعيشون أبأس عيشة ويقتاتون بأوراق الشجر أربعة اشهر فى السنة !...

وليس فى الهند الذى يبلغ تعدادها ٣٠٠ مليون إلا مليونا فقط يستطيع ان يتناول وجبة طعام واحدة فى اليوم !...

وتبلغ نسبة وفيات الاطفال ٤٠ فى المساية فى مدن كبيرة كبمباى وكلكوتا .
ويرجع السبب فى هذا الى فساد نظام التعليم واهمال تربية الشعب والعناية بشؤونه الصحية .

أما نسبة عدد الأميين فى الهند بفضل الحكم البريطانى فتقدر بـ ٩٣ فى المساية من مجموع الشعب .

والعامل الهندى سواء أكان رجلا أو امرأة يشتغل ١١ ساعة فى النهار والاحداث المساكين البالغين من العمر ست او سبع سنوات يرهقون بالعمل والكتلة العاملة من فلاحين وعمال ترزح تحت وطأة الضرائب المختلفة وتضطر الى الاقتراض اليومى كى تجد ما تتبلغ به .

هذه صفوة الملاحظات التى وردت فى مقال ذلك الزعيم الهندي وهى تميط اللثام عن حقيقة الأستعمار البريطانى فى الهند .

أما حقيقته الفظيعة فى مصر فيلمسها كل مصري فى كل يوم ، يلمسها فى نفسه واحساسه وتر بيته ومجتمعه وادارة حكومته وشتى مرافق حياته ، وان كانت السياسة البريطانية تلطف بعض الاحيان من اساليبها معنا نظراً لدقة مركزنا الجغرافى وكثرة عدد الاجانب بيننا .

الانسانية والحب

هنريك رالف كاتب مجرى شاب لم يجاوز العقد الثالث . وهو يمتاز عن أدباء المجر بل عن معظم أدباء الغرب بنزعة فى الفكر والاحساس روحانية تجريدية ، لاتتفق عادة وما فى الشباب من عنف الحيوية المادية . وهذا وجه الطرافة فيه . فحيوية شبابه المادية تنسكب فى تعاليمه الروحية فتهبها قوة الحماسة والاقناع والامتلاء والتأثير . وكتابه (الانسانية والحب) هو صرخة الروح منبعثة من صدر شاعر متمرد على حضارة المادة والمصلحة ، وسنحاول فى هذا المقال دراسة هذا الكتاب الممتع الجليل :

الحب المنقذ

لا يترك هذا العصر للانسان فرصة ينعم فيها بقلبه وعواطفه

الحياة مادية ، والرغبات مادية ، والمجد باطل دنيوى ، ومعظم جهود البشر منصرفة الى شهوة المال وشهوة الجنس . وهذه الحضارة على ما حققته من ضروب الرفاهية وأسباب النعيم ، وقفت حيال مشكلة الأخلاق عاجزة لم تستطع تهذيبها ولا صقلها ولا جعلها فى مستوى العقل نشاطا وإخلاصا وقوة

وليس ثمة شك فى أن البون شاسع اليوم بين عقلنا وأخلاقنا ، بين ثقافتنا وعواطفنا ، بين إنتاجنا العلمى النفعى ، وانتاجنا الأدبى والفنى النزيه

نحن لا نفتأ نفكر فى كل ما نستزيد به الفرد قدرة على رياضة الطبيعة واستغلال عناصرها ، أما رياضة الروح وإنماء خصائصها واجراء التعادل بينها وبين العقل فآخر ما نخطره على بالنا وآخر ما نسعى اليه

ولقد ترتب على هذا أن فقد الانسان نفسه ، واجترفه سيل الماديات فلم يعد يأبه للشعلة العلوية الكامنة فيه

ونحن فى هذا العصر أنكرنا الوجدان لا لاننا آمنا بالعلم بل بوسائل الترف التي تمخض عنها العلم ، فكان أن استولى شيطان هذا الترف علينا ، واستحوذ على عقولنا ومشاعرنا ، وجعلنا لفرط تأثيره نشك فى جوهر الفن وجوهر الاخلاق ونقيسها جميعاً بمقياس المتعة والمصلحة ، ونعتبرها لهذا السبب فى المرتبة الاخيرة من مراتب الاهتمام البشرى .

وهكذا ضلت أرواحنا طريقها ، وضللنا سبيل العثور عليها ، ولم يعد لنا من ملجأ يقينا طغيان المادة ونخلو فيه — ولو فترات قصيرة — الى انفسنا نستمع لهمساتها ونأنس بها إلا الحب . . الحب هو اليوم خلاصنا ! .. وهو البقية الباقية فينا من لهب تلك الشعلة العلوية المتوهجة

ونحن لا نتشبث بالحب ونهرع اليه ونستطيب التحدث عنه ونغلو فى بحثه وتحليله إلا لأنه قوة روحانية ومادية منسجمة . قوة تمثل الانسان كاملا والطبيعة كاملة ، وتحقق فى الفرد مالم تحققه الحضارة الراهنة لا فى الفرد ولا فى المجموع ، أى ذلك التعادل المنشود بين المادة والروح ! .

معنى السعادة والشقاء

قد تعيش ردحا من الزمن طويلا لا تفكر الا فى نفسك . ولا تهتم الا براحتك ولا تحفل بغير انانيتك ، كأنك وحدك مركز العالم وكأن العالم لم يخلق الا لك ، فتمر بك الايام والأعوام وأنت هادىء الاعصاب ، قرير النفس ، منشرح الصدر تأخذ من الافراح والأتراح بقسط معتدل معقول ، لا تعرف الألم الكبيرولا الغبطة المطلقة ولا الصفاء الروحاني العظيم بل تسخط على هذه القوى النفسية جميعا ، وتسميها أمراضاً ، وتمضي فى طريقك باذلا جهدك فيسبيل تنظيم حياتك وتركيزها ، واعتصار مادة الاسراف منها ، وتحويل أيامها الطويلة الزاخرة من نهر مزبد عريض الى جدول متواضع صغير

ويخيل اليك أنك ظفرت بالسعادة القصوى وأخضعت الحياة لحكم العقل ، وطردت منها عناصر الثورة ، وأقمت سداً منيعاً بينك وبين كل ما يمكن أن

يعكر عليك صفو هدوءك المتشابه الهانىء اللذيذ ، وانك لفى حلمك العميق هـذا واذا بأمرأة تهبط بك ، لا تعرف من أين مقدمها ، ولا من هى ، ولا ما تحمل من خير أو شر ، وسرعان ما ينقلب نظامك الى فوضى ، وتستحيل حكمتك الى حماقة ، وينتهى اعتدالك الى شطط وجنون !

يرقد فيك الأنسان الأول ويستفيق الثانى على لجب حياة جديدة مالك عهد بها ، فتشعر والدهش آخذ منك مأخذه انك تفرح الى حد البله ، وتبكي الى حد التمزق ، وتشقى الى حد الخبال ، وتموت وتبعث فى اليوم مرات بحسب اتقاد حركة الحياة أو فتورها فى العيون التى تحبها وفى الفم الذى تعبد الكلمات متفجرة منه كما يعبد رجل الصحراء ماء الينبوع !

تتلفت حواليك واذا بك قد سموت فى طرفة عين من مخلوق تافه وضيع الى مرتبة خالق عبقرى . فأبدعت لنفسك ولمن تحب وللناس حياة خصبة جديدة محيطها بمختلف ألوان الجمال والطيبة والحنان والرحمة . شاعراً أبلغ شعور وأوفاه انك لم تك فى يوم من الايام قاسياً ولم تك قط غليظ القلب أنانياً ، بل ان التضحية كانت على الدوام مغذنك وانكار الذات هو جوهر قلبك النقى النبيل .

وتنطلق فى أعصار هذه الحياة الجديدة ، وتحس أنك بدأت تفهم كل ظاهرة فى الوجود ، وتستبطن سر كل فتنة خفية ، وتتكشف لك الدنيا — من خلال جمال ورقة ودلال من تحب — عن عوالم مقدسة مجهولة محرمة إلا على المؤمنين بالحب والمؤمنين بالألم

وتتضاعف فى نفسك القوى ، وتسرى في كيانك نار البطولة ، ويخيل اليك أن فى مقدورك أتيان كل شيء واقتحام كل شيء ، فتعد العدة لمستقبل زاهر ، وتشمر عن ساعد الجد ، وتعلل النفس بالآمال الكبار ، وتشعر أن فى وسعك القبض على ناصية الكون واذلاله لأرادتك وتقديمه فى ابتسامة متضعة مسكينة — كحلية نادرة رائعة — الى المرأة التى اصطفيتها من دون النساء ! وحينئـــــذ ... حينئذ تبدو منك هفوة بسيطة ... أو تبدو منها كلمة عارضة .. أو يمر بكما رجل

غريب .. طويل أو قصير .. أبيض أو أسمر .. جميل أو دميم . . رجل كبقية الرجال ولكنك تبغضه أشد البغض ، وتتفزز أعصابك لمرآه ، وتحس برغمك نفوذه وسلطانه والهوة السحيقة التي يحتفرها لك . ثم تتطلع الى المخلوقة التى أودعتها صفوة أحلامك ، ونصبتها على القاعدة الشامخة كتمثال ومضيت تعبدها ، واذا بها قد ضاقت بالسماء ذرعا وتمايلت وتهاوت فجأة على نفسها وسقطت على الأرض وتحطمت تحطيما !

ويهولك مرأى الأشلاء المتناثرة ، وتشهد مصرع حلمك بعينيك ، فيطوح بك الدوار ، وتختبل بحقيقة ذاتك فى الهزيمة كما اختبلت بها فى النصر ، فترتد كالمطعون غشى الدم بصره ، وعقد لسانه ، وخنق الصرخة فى صدره ، ثم تنكص في بطء على عقبيك ، وترجع الى دارك ، وتقبع فى زواية حجرتك ، وتعود الى حياتك الراكدة المتشابهة القاتمة الأولى !

تعود الى الأنانية والنظام والظلام ، والحسرة تقطع فؤادك ، واليأس يأكله ويتمدد فيه ويستقر ! وعندما يبرح بك العذاب ، ويمزقك الحنين . وتود أن تلتمس فى أيما شيء عزاء لك وسلوى ؛ تقول وتردد فى هدأة الليل بينك وبين ضميرك . « لقد أحببت ؛ وتألمت ، ولكنى عشت ؟ . »

هذه قصتك . . وهى قصتى أيضا وقصة الناس جميعاً ، ولولاها لما كان فى هذا الوجود أى معنى للسعادة ولا للشقاء ؟

الأتجاه الروحانى الجديد

يستخف هذا العصر بالحب الشعرى العاطفى ، ويتخذ منه أداة سخرية وهزؤ ويتهم أصحابه بنقص فى العقل ، وانحراف فى المزاج ، وافراط فى التخيل ، وفقر في الملكات العملية المسيطرة على شؤون الحياة

فالرجل المتحضر الحديث يفخر بأنه قد تحرر من وهم الحب ، والقى عن كاهله الحلل الشعرية التى يخلعها التصور الكاذب على شخص المحبوب ، وتمكن فى النهاية

من رؤية الحب على حقيقته ، أى مجرد رغبة جامحة وقتية طارئة ، تجمع بين بشرتين مضطرمتين فى محيط لذة عابرة ، يجب أن يرتشفها المرء وهو فرح جذلان دون أن يسمح لها بتسميم قلبه وخياله

فالاحلام الرقيقة ، والتأملات العذبة الطويلة ، والشكايات المرة الحزينة ، والغيرة الوحشية الفاتكة ، كل هذه الميول يكرهها الرجل المتحضر الحديث و ينفر منها ويعدها ألاعيب صبية وعلالات أطفال ، تخمد من حرارة اللذة الجنسية ، وتتحول بالمحب عنها ، وتتجه بكيانه نحو لذائذ عقلية وعاطفية أخرى لا تمت الى الحب ولا الى مادته الشهوية الأصلية بسبب

فالمحب العصرى سواء أكان رجلا أم امرأة يأخذ من حبيبه بقدر ما يستطيع أن يعطيه ، يعامله معاملة تجارية شريفة أو معاملة سياسية ممتازة ، يأخذ منه لذة و يعطيه أخرى معادلة لها فى العنف والنشوة . لا يقول له : انى أهبك قلبي وحياتى ، لانه يعتقد أن القلب يتبدل فى الساعة مرات ، وأن الحياة مجموعة اهواء متقلبة متعاقبة لا يمكن أن ترصد على مخلوق واحد مهما أوتى هذا المخلوق من جمال وكمال

والمحب العصرى انما يسلك هذا الطريق مدفوعا برغبته فى أن يكون صريحاً ؛ وأن يكون مخلصاً ، لا يخدع نفسه ، ولا يخدع من يحب ، ولا يمنيه بعواطف كبيرة يحس أنه عاجز عن تحقيقها وأنها لا تتفق ونزعات الطبيعة البشرية

والعجيب فى امر الانسان العصري انه يقدم في غير احتفال على أشد المغامرات المادية خطراً ، ولـكنه يجبن و يتراجع حيال مغامرات القلب والعاطفة

يحب العظمة فى المادة ، و ينفر منها في الروح . يمجد الطيار البطل ، و يسخر من العاشق الشهيد . يصفق للوصولى الظافر ، و يهزأ بصرعى المثل العليا

وهو انما يتفادى كل عاطفة روحانية ذاتية كبيرة لشعوره العميق انها تحمل فى طياتهـا شتى معـانى الألم الصامت ، والاحتمال الصامت ، والهنـاء الصامت ، والتضحية الصامتة ، وانها تصرف ذهنه عن السعى وراء النجاح المادي ، والاقدام علي عمل من أعمال البطولة المادية التى يراها الجميع و يمكن لصاحبها أن يزهو بهـا

ويستثمرها ويعرضها في السوق سلعة طريفة تخلب ألباب الناظرين.

هذا هو الانسان الشائع المتحضر الحديث ، وتلك هى نظرته الى الحب والى كل مايتصل بالقلب من عواطف سامية كبيرة . ومع ذلك فالصورة التى رسمناها وان كانت تعبر عن الجانب الاجتماعي من نفسه إلا أنها لاتمثل الجانب الابدى فيه حيث يشترك الناس جميعا في الخضوع لقوانين غريزية واحدة .

فرجل هذا الزمن المتأثر بفلسفة بعد الحرب على رغم انكاره الحب لا ينفك يبحث عنه ، وعلى رغم استخفافه به لا يفتأ يطمح اليه ، وعلى رغم سخريته منه لايزال يخشاه . وما خوفه الحب إلا الدليل البالغ على ضعفه أمامه وتوقه الشديد اليه .

ويرى هنريك رالف ان الانسانية لم تكن فى أى عصر من عصورها كلفة بالروحانيات اطلاقا ومفتونة بالحب على وجه الخصوص كما هي اليوم . ولكنها تراوغ وتنافق وتموه الحقائق على نفسها وتبرأ من هذه الفتنة جهدها ، وتتظاهر بتقديس العلم وتقديس الآلات ، وتقديس المصلحة ، حباً بمسايرة فلسفة العصر المادية التى أحدثت فيها رد فعل روحاني خفي وعميق .

والامثلة كثيرة على ما تقدم :

فمعظم الروايات السينمائية لاتكاد تصور غير الحب ، ولا تمجد غير الحب الكبير وحده وما يشتمل عليه من عواطف البطولة والولاء والتفاني في شخص المحبوب والتخلص من أوضاع المجتمع وفروضه القاسية .

ومعظم القصص الفنية الرفيعة التي تأثرت عقب الحرب بنظريات العلامة النمسوى سجموند فرويد في أصول الحب وبواعثه الجنسية المحضة ، أخذت تتطور وتتحرر من استبداد (الفرودزم) وتتجه نحو رسم روحانية الحب وشاعريته وصفائه التأملي المطهر .

فموريس بارنج وشارلز مورجان وروزامندلهمان وكاترين منسفيلد وأضرابهم في انجلترا ، ودوهاميل وإدمون جالو وفرانسوا مورياك وامثالهم في فرنسا جميع هؤلاء

القصصيين لايهملون الحب الجنسي ولكنهم يعنون أكبر عناية بمظاهره الروحية الخالدة .

ولا يشك هنريك رالف في أن تأثير الروائى الكبير فيدور دستويفسكى على الحركة القصصية الحديثة لم يكن تأثيراً فنياً فحسب، بل روحانيا ايضا. وجميع قصصيي أوربا الذين تأثروا به لم يكتفوا بتجديد القصة من حيث الوضع والتحليل وتصوير الشخصيات، بل لقحوها بعناصر شعرية دينية جعلتها على حد تعبير «اندريه جيد» سمفونيا موسيقية رائعة .

والحق ان الشعر لم يمت فى هذا العصر كما يعتقد الكثيرون بل غادر القصـائد والدواوين واندس في صلب القصص ، أي أنه اقترن برغبة تصوير الواقع التي تقوم عليها القصة وارتفع بهذا الواقع من ميدان الحقيقة اليومية التافهة الى رحبات التصور الشعري الذي يرى بعين البصيرة ما يكمن خلف الحقيقة تجميلا لها وسمواً بها.

وأي برهان على شغف الغربيين بالروحانيات أوضح من تقديرهم العظيم شعر تاغور وتقديسهم شخصية المهاتما غاندى وإقبالهم هذه الايام على دراسة الفلسفة الهندية وانشائهم المدارس لبحث هـذه الفلسفة وترويجها ، وتأثر كبار فلاسفتهم وكتابهم بها امثال الكونت هرمان كايزرلنج ورومـان رولان وموريس ماترلنك .

بل أي دليل أبلغ من اتجاه الفلسفة الغربية والعلم الغربي اتجاها يوشك أن يكون صوفياً ويتمثل في خلاصة شخصيات وأعمال ومباديء برجسن واينشتين ووايتهيد وجوليان هكسلى .

ولو أننا ألقينا نظرة فاحصة على المذهب الاشتراكي المادى نفسه لالفينا زعماءه يلوحون هم أيضاً بالرقي الروحانى ويؤكـدون فى حماسة وإصرار أن هذا الرقي المنشود لايمكن أن يحققه إلا نظامهم ولا بد أن يجيء نتيجة طبيعية لاقرار هذا النظام.

واذا ما عدنا الي موضوع الحب نجد ان صفوة هذه النزعات تبدو جلية فيه لانه عاطفة فطرية مشتركة سرعان ماتنعكس فيها اخفي ميول الجماهير .

اذن فالفرد العادي يحاول من حيث لايدري ان يسمو بالحب فوق الشهوة كما يحاول العالم والفيلسوف والقصصي والفنان أن يسمو بتفكيره فوق الظواهر متجاوزاً حد الطبيعة الى ماوراءها من قوى علوية غير منظورة . أما الغرض من هذا النضال فهو إنعاش شخصية الفرد وتجديدها وتجديد الثقافة الراهنة ايضاً فى سبيل تجديد الحضارة نفسها .

وأكبر الظن أن الفوضى التي يشكو منها العالم الآن ترجع الى ان الهوة سحيقة بين الشعوب ومفكريها ، وبين رجال السياسة والاقتصاد الرسميين ، وان النزعة الانسانية الروحانية التي تحسها الجماهير ويعبر عنها المفكرون لم تصل بعد الى مسامع أولئك الرجال وقلوبهم لان ليس بينهم العبقري الذى يفهم عصره حق الفهم ويشعر شعوراً قوياً برغباته ويقدم فى جرأة وايمان على اشباع هذه الرغبات، ولقد وقع من جراء هذا أن غيل صبر العناصر المتطرفة فاخذت توحد كلمتها وتجمع صفوفها وتلجأ الى وسائل العنف محواً لهذه الفوضى بفوضى مثلها .

وهكذا يظل أغلب الساسة ورجال الاقتصاد الرسميين حجر عثرة في سبيل تقدم العالم إلا عن طريق فاجع مكدس بالاشلاء والجثث !

الحب والاحساس الديني

ما السر في أننا ننشد على الدوام عاطفة الاخلاص فى الحب ؟ ونفرق بين العلاقات الشهوية وبين الحب ، ونحس شيئاً من المرارة والاسى إذا انقضت أيام شبابنا وأشرفنا على الكهولة ونحن بعد لم نعرف الحب ؟ بل ما السر فى أن معظم الرجال يبحثون طوال حياتهم عن امرأة واحدة ، وكذلك معظم النساء يبحثن عن رجل واحد ؟

وما علة إصرارنا جميعاً على الامانة والولاء متى أحببنا ، ونزولنا مختارين عن كل متعة وكل جمال في العالم ، ورضانا بأن تستعبد ميولنا وأذواقنا لمتعة واحدة وجمال واحد تلتقي عنده وتجتمع فيه كل مفاتن الدنيا ؟

إن الرجل يحب ، فيتجاوز ويصفح ويحتمل الالم والذل صابراً ، ويجد في

صبره العاجز أكبر لذة ، والمرأة — وهى المخلوقة الغريزية العملية الحساسة المتلونة — تحب فتستعبد هي أيضاً وتصبر وتتجاوز وتصفح . والغريب فيها انها شهوانية الميول نفعية النزعة ، ولكنها متى أحبت لم تحفل البتة لا بأشباع شهوتها ولا بمرضاة نفعيتها . وكثيراً مايذهب بها العشق الى حد التخشن والتقشف والتبتل من أجل احتفاظها بمن تهوى .

يزعم البعض ان المسألة مسألة مزاج وأن من كان عصبياً شديد الاحساس كان أدنى الى الحب من القوي الصحيح البدن ، وان العصبيين هم الذين أوجدوا الحب الشعرى المطلق ، وهم الذين يسرفون فيه ويتبذلون ويتهتكون . ولكن رالف يعتقد ان هذا وهم، واننا جميعاً قد خلقنا للحب الكامل. كلنا يطمح اليه. وكلنا معرض — تحت ضغط نفس الظروف — لان يحب بنفس القدر وإن اختلفت مظاهر العاطفة وألوانهـا .

فالمزاج يبدل من أشكال الحب ولكنه لايؤثر فى جوهره ولا يمكن أن يبدده ويلاشيه .

وعليه فما السر في هذا الجنون الابدى ؟ ولماذا لم يستطع العقل المثقف النابه ، والعقائد العلمية السائدة ، والحضارة المادية الجارفة أن تكتسحه وتأتي عليه ؟

يلوح للكاتب المجري أن الاصل في الحب شعور ديني متأصل في النفس البشرية. شعور يدفع بالفرد الى التسامي بقلبه ، والتفوق على فطرته ، والاندماج في شخص آخر اندماجاً أساسه الانانية وانكار الذات معاً، الموت والحياة معاً ، الموت والبعث والخلود معاً ، كذلك الاندماج الذي يحدث بين الصوفي وربه .

فالصوفى يود ان يستأثر بالله لينقطع لعبادته ، والمحب يود أن يستأثر بحبه لينقطع أيضاً لعبادته

فالانانية فى الصوفية وفي الحب ملازمة للتضحية

والحب شعور دينى لانه مثل أعلى من القوة والسلام والصفاء والكمال . وهذه

الصفات الاربع كانت على الدوام رمز فكرة الله في عقول الناس ، والنور الذي يتوجهون اليه في ظلمات الحياة . فالحب لن يموت الا اذا مات « الشعور » الديني والشعور الديني لن يموت الا اذا أدرك العلم جميع أسرار الطبيعة ،ولكن العلم مقيد بالانسان نفسه ، مقيد بحواسه المحدودة ، وعواطفه المتقلبة ، وعقله الخاضع لاحكام حواسه وعواطفه

ولهـذا سيبقي الحب على مر السنين عنواناً خالداً على عظمة الانسان وطموحه فى حياته الخاصة الى تحقيق مثل أسمى ينحدر اليه من صرح الالوهية التي ما تنفك أنظاره — برغم حدتها وذكائها وكبرها — تتطلع أبداً اليها !

صلاة هنريك رالف الى ربة الحب

أيتها القوة الابدية التى تحمل هيكل العالم كما يحمل القلب جسم الانسان !

يانعمة الوجود وارادته ، ومجد الخالق ورحمته ، أغمريني بكل ما فيك من جبروت وتسلطي على واسحقيني كيما تتبدد ذرات كياني في الفضاء الفسيح وتتصل فى النهاية بضمير الله !

اني لاجثو عند قدميك خاشعاً ، وأعفر وجهي بثراك الطـاهر ، وأعرض أمامك في غير خجل أو استكبـار قروح بدنى المسكين ، ثم أرفع نحوك ذراعي ، وأتوسل اليك والدمع يحرق عينى ، ان تفجرى من صدرك الابيض ينابيع مياهك المقدسة أغتسل فيها وأتطهر وأبعث كائناً جديداً من نور وهواء !

لقد أنكرتك أيتها القوة الابدية ففقدت نفسى وأبديتي وغاصت قدماى فى الرمال !

الاعصار يهب مجنوناً على ، والريح العاتية تطوح بي ، والارض تجتذبنى الى أحشائها المظلمة ، والسماء قد ملأت فمي بالتراب ، فاسعفيني وانجديني ، ومدي الي يدك وانقذيني ، وإلا فقدت آخر عبادك الصادقين في دنيا الانسان !

مازلت . . . مازلت أعبدك أيتها القوة البكر ، أيتها العذراء الملكية النقية .

أعبدك وحدي وسط الملايين من الهمج المجرمين الكافرين الذين استباحوا حرمك، وانتهكوا عرضك ، وخربوا هيكلك وعاثوا فيه معربدين صاخبين !...

فتجاوزي . . . تجاوزي ياربة النبل والاحسان . . . غضى بصرك عنهم ، واغفري لهم خطاياهم ، وانظري الي وحدي . . . خاطبيني أنا وحدي . . . وأنا الكفيل ـ اذا ماتنزلت الي ، وعطفت علي ، وكلمتني ولو همساً ـ بأن احرر الناس من عقولهم وبطونهم وأردهم طائعين الى عبادتك الخالدة !

كل من يحب أيتها الآلهة يصبح فى الدنيا نبياً ورسولا !

فامنحيني أفجع وأشد وأروع مافي سماواتك من حب كى أصبح سيد أنبيائك وزعيمهم ، وكى تتحقق معجزة هداية الانسانية وخلاصها على يدى !

هذه صلاتي اليك صباح مساء !

صرخات

التضـــــحية

كل ماتقوم عليه الحضارات من حرية وعدالة ونظام ، وعلم وأدب وفن ، ينبع من فضيلة واحدة هي التضحية

والتضحية هي انكار الحياة وحبها فى الوقت نفسه ، انكار اللذة الوضيعة والبحث عن اللذة القوية فى الرائع من الاعمال

فنحن بتضحياتنا نكبح جماح شهواتنا، و نتفوق على غرائزنا الدنيا ،وننقل عاطفة الحب فينا من أشخاصنا الفانية الي المجموع الخالد . فكأن التضحية هى وسيلة التطور وواسطة البقاء ومظهر الحب الانساني الاسمى !

ولا تقوم التضحية إلا على الخلق العظيم ، والخلق العظيم هو العقيدة الثابتة في الفكر ،والنزاهة والصراحة في القول ،والدأب والمخاطرة فى العمل . وحيث لا أثر للخلق العظيم لاوجود للتضحية . وكثيرون في مصر يخشون التضحية لافتقارهم الى الخلق العظيم !

وسر هذا النقص يرجع الى اننا نحب الحياة من أجل أنفسنا ، ونعيش لمرضاة أجسامنا ،ونتسابق للظفر بنعيم الحواس وملاذ البدن ولوعلى انقاض مصلحة بلادنا.
كل مظهر من مظاهر الحياة تقع عليه أبصارنا لانفكر لحظة في دراسته وفهمه وتقرير واجبنا حياله ،بقدر مانفكر فى أن نتخذ منه اداة لهو واستمتاع
نحن نريد أن نستمتع لا أن نعمل . ومتى عزت الدنيا على فرد فالذل مرتعه والجبن ملاذه والاثرة المجرمة غاية مايطمح اليه من أمل !
ولا شيء يحفز الفرد الى التضحية غير الاشادة بعظمة الموت . الموت من أجل فكرة مهما كانت خيالا ، فخيالات اليوم حقائق الغد !

ان سيادة أوربا وأمريكا لاتقوم إلا على العبث بالموت . على تحويل حب الحياة الى حب للموت من أجل الحياة !

ان الفرد هناك يخاطب نفسه فيقول :

أريد أن أحيا . اني أحب الحياة . ولكني أحيا فى مجتمع معين فلو قضى على هذا المجتمع ، قضى على أنا أيضاً لامحالة . ولو أني أموت ليعيش هذا المجتمع اذن لتضاعفت قوى حياتي الحاضرة وانحدرت الى اصلابى من بعدى وجاوزتهم الى خير الانسانية !

ذلك هو مبدأهم الروحي . فلو شئنا التحرر من سيادتهم فعلينا أن نعتنق مبدأهم ففيه الخلاص وفيه الحياة !

الخـــــلود

منذ نشأ الانسان الاول نشأت معه فكرة الخلود . أحس أن حياته المستقلة فانية بطبيعتها ،وأن الميول والشهوات تعصف به من كل صوب وتردى جسده العابر مورد التهلكة ، فقاوم العناصر الطبيعية بعقله واستذلها لمصلحته

شعر بما في نفسه من مدخر القوى فأراد أن يخلد برغم ضعفه الغريزي ، ورغم الكوارث التي لاتفتأ تنهال عليه منذ يولد حتى يموت

آمن بالدين لان الدين صادف من نزعة الخلود في نفسه هوى !

آمن بالعائلة لان العائلة هي الحياة المطردة العاملة ،هي بقاء الفرد خالداً في أصلابه ولو بعض الخلود !

آمن بالوطن لان الوطن هو الرمز المقدس لعاطفة الخلود الاجماعي فى أروع أشكالها !

ولكن الطبيعة البشرية على شيء كبير من الفساد والنقص .

فالفرد قد يؤمن بالخلود في الدين لحاجته الماسة الى عقيدة تستقر عليها نفسه، ويؤمن بالخلود فى العائلة لمصلحته ومصلحة ذراريه من بعده .

أما الخلود في الوطن وهو من أسمى مظاهر الروح ،ففكرة قائمة على التضحية المطلقة قد يعز على الفرد الضعيف الايمان بها وقد تقعد به المنافع المادية عن بذل نفسه في سبيلها

فهو دائم التقلب بين مصلحته الخاصة ،وبين ماعليه من واجب نحو الجماعة التي منها انحدر وبواسطتها يعيش . وهو كلما استدق وجدانه وتهذب ، وتجردت روحه وصفت ، وتطهر من غرائزه الدنيا ، وارتفع في سلم الحضارة ، استطاع أن يتفوق على ضعفه الفطرى ويتسنم ذروة الخلود الاسمي في الحياة والموت من أجل الوطن! فكأن الوطنية الصادقة العاملة وليدة الصراع العنيف القائم بين الغريزة والروح ، بين الخير والشر ، بين الفناء والبقاء !

ومحال على الفرد الوصول اليها بغير الكفاح المتواصل ينشب بينه وبين المارقين وبينه وبين نفسه ! فالكمال الروحي هو شرط الوطنية الصادقة ، والوطنية دعوة عظيمة كدعوة النبوة أو العلم أو الاصلاح لها ما لتلك الدعوات من فضائل وعليها نفس الواجبات .

وهل النزاهة والاخلاص والتضحية التي يتطلبها الوطن منا إلا عواطف جبارة مما قد اعتلج ويعتلج في نفوس الانبياء والرسل وزعماء النهضات والعباقرة والمصلحين الذين هم أطهر الناس قلباً وأكملهم خلقاً وأعزهم كرامة ؟ لقد ضحى أولئك العظماء بأرواحهم من أجل فكرة فضربوا لنا المثل الصالح في الخلود!

وما استطاع أن يطاول الخلود فرد منهم إلا بعد أن استكمل رقيه الوجداني واستأصل من نفسه جراثيم الأنانية والضعف

أن الانانية سبيل العدم وأنانية الفرد هي موت الفرد والامة معاً !

فاذا شئنا الحياة لاوطاننا فعلينا أن نسمو بأرواحنا فوق أدران المادة وأن نغذيها بكل ماهو عظيم ونبيل وان نجعل منها قوة دائمة الفكر والعمل والتضحية ومتى أيقن كل منا أن عظماء العالم وأبطاله بشر مثلنا ،وأن العظمة والبطولة فى متناول أيدينا فقد خلد الوطن وخلدت فيه أشخاصنا لمصلحة الوطن وخير الانسانية !

الارادة

يقول اناتول فرانس ان الانسانية تسير على قدمين : الجوع والحب . وهذا حق لاشك فيه .

فالجوع حاجة بدنية ولكن الحب في اسمى مظاهره نفحة من السماء .

الا ان غريزة البقاء متى امنت شر الجوع وأخذت من المادة كفايتها لم تقنع البته بل تظل تكافح ما استطاعت لتستزيد مطالبها المادية ولو هضمت حقوق الضعفاء والمظلومين . وعندئذ ينقلب الجوع الى جشع ، والقناعة الى طمع ، والنضال الحيوى الى استبداد واستعمار وظلم .

ولكن الحب — وهو الجزء الالهي من الانسان — لا يكاد يشعر بالظلم منتشر حوله ويلمس عواقب الطمع المادي في شتى ضروب القسوة والعسف ، حتى يستفيق من سباته ، ويطالب بحقه ، ويقبل على غريزة البقاء يحد من نزواتها ، ويكسر من شرتها ، وينزع بها الى الكمال الروحي المستطاع اي الى العدل والمساواة والحرية .

فالظلم هو غريزة البقاء جردها الشره المادى من الحب . ونحن نبغض الظلم لان حب الحرية والعدل يربأ بنا ان نستعبد لوحشية غريزة البقاء .

ولكن حب الحرية والعدل — اي الحب في اسمى مظاهره — لا يكفي لمقاومة الاستبداد والظلم . فاذا لم يقترن بارادة صلبة قوية استحال الى محض ظاهرة نفسانية عقيمة تفنى في التعلة والكلام . اذ الحب عاطفة والارادة هي العاطفة محققة في العمل . ولا عمل مثمر عظيم بغير ارادة جبارة تمتاز بالثبات والاخلاص وانكار الذات .

والمصريون يحبون وطنهم ويتوقون لتحريره ، وينزعون الى تأييد الحرية والعدل ، والقضاء على الظلم والاستبداد ، ولكن بعضهم تعوزه الارادة التي تجعل من هذا الحب قوة ، ومن هذه النزعة حقيقة واقعة حية .

لايكفي ان تحب مواطنيك وتتمني الاستقلال لبلادك بل عليك ان تعمل لهذا الغرض بارادة من حديد !

لاتنتظر أن يطلب اليك الناس أن تعمل بل كن من نفسك لنفسك هاديا ومشيرا !

قاوم الظلم في عائلتك تستطيع ان تقاومه فى الحكومات الغاشمة !

ضع الوطن فوق شخصك وكن مستعدا لانكار زوجك وولدك متى دعا داعى الجهاد !

غامر باموالك ان كنت غنيا وزاحم الاوربيين في مشروعاتهم وحرر بلادك من نفوذ الاجنبي !

استثمر بنفسك محصولات ارضك ،فكل جزء تبيعه الغرب منها كى يعيده اليك مصنوعا كاملا ،انما هو طوق في عنقك واحتلال لبلادك فوق احتلال !

استخدم العلم في كل شيء . في تفكيرك . في نظرتك الى الحياة . في بيتك فى زراعتك !

آمن بالحضارة العلمية واحتفظ بجوهر نفسك الشرقية الطامحة الي كل ما هو روحاني نبيل !

هذه الاشياء جميعا هي الحب . هي الحب الكامل الاسمي . حبك لعشيرتك وأمتك ونفسك . ولكن الانتقال بها من الرغبة الوجدانية الي الواقع ، من الامل الى الحقيقة محال بغير الارادة . فقل أريد ونفذ ما تريد ونظم ارادتك تنظيما عمليا وتذرع بالمواظبة والجلد والاصرار .

والارادة العظيمة في نفس الرجل العامل كالدين في قلب المؤمن . وكما يؤدى المؤمن لله فريضته يوما بيوم ،كذلك رجل الارادة عليه أن يؤدي للوطن حقه يوما بيوم !

الكبرياء الانسانية

لم يشعر الفرد شعوراً حقيقياً تاماً بكبريائه الانسانية إلا يوم استحوذ التفكير العلمي على عقله ومشاعره .

ان الطبيعة تحاول اذلالنا فتسلط علينا العناصر والميول والشهوات، وعاطفة الكبرياء الانسانية هي في ان نتغلب على هذه العوامل ونحاول ان نتفوق في الصراع الابدي القائم بيننا وبين الكون .

كان أسلافنا يشهدون البرق يضرب الشجرة بالصاعقة فيحرقها ، أو ينقض عليهم فيدمر بيوتهم ويزهق أرواحهم فى طرفة عين، فكانوا متواكلين ضعفاء، يؤلهون العناصر ، ويستسلمون لمشيئة الاقدار . وكان الواجب فى عرفهم هو الايمان بضعف الانسان وعجزه حيال الطبيعة، فانتشرت الخرافات وشتى ضروب التطير ولم تستطع الاديان ان تمحوها رغبة منها في اشعار الانسان بقوى علوية غير منظورة تتحكم في مقدوره وعليه أن يحترمها ويقدسها ويرضي بها

وجاء العلم الصارم الجبار فلم يتورع وانتهك أسرار الطبيعة غير هياب ، فنشأت عاطفة الكبرياء الانسانية وتكونت في الفرد حاسة النضال !

ولما رأى الانسان كيف يخاطب العالم في معمله لغز الوجود ، وكيف يقاوم الطبيب مرضاً عضالا حتى آخر نفس في صدر المريض مدفوعاً بضرورة القيام بالواجب حتى النهاية ومعتقداً أن لامجهود في العالم يضيع وان ما لم يثمر اليوم قد يثمر فى المستقبل ، أحس الفرد قيمته ، وادرك أن الكون مسرح لعبقريته ، وأنه بعقله النير وعزيمته الصادقة يستطيع أن يفهم ميوله ويكبحها ، ويتحدى الطبيعة ويستنطقها، ويستغلها مناعم جديدة ومنافع لاتحصى !

ومنذ ذلك العهد شرع الانسان يطارد الجراثيم والامراض ، ويصمد للعناصر ، وينازل الموت ،ويطمح بعد أن حكم الارض الى حكم السماء !

فجرأة العلم وروائع التطور المطردة المتجددة ، هي التي خلقت فينا عاطفة الكبرياء الانسانية وهي التي تحررنا من خرافات الماضي وتشعر الانسان المثقف المتحضر أنه بعقله وارادته ملك العالم !

فالشعب المتحضر هو الشعب الذي يشعر بكبريائه الانسانية شعوراً صادقاً عميقاً يدفعه الى التفوق الدائم على نفسه ،والكفاح الدائم فى سبيل حريته و كرامته، وتسخير قوى الطبيعية لمصلحته ومصلحة الآخرين . أما المتراخون الاذلاء الخانعون فالحياة تلفظهم والانقراض مصيرهم والموت خير لهم وأولى !

نحن اقوياء !

لايكاد يجتاز الفرد الاوربي أو الامريكي دور الطفولة حتى تغرس فيه التربية ملكات القوة ، فيقبل على الحياة معتزا بنفسه ، فخورا بقومه ، واثقا بذاته . شاعرا بحقوقه مضطلعا بمسؤولياته ، متفائلا بمستقبله ، متأهبا لحماية شخصه وحقه من كل أعتداء ، مستعداً لمغالبة الكوارث وتحمل الارزاء ومواصلة الكفاح حتى الظفر !

ومن خصائصه النفسية انه لايندب ضيعة الماضي ، ولا يحزن على مافات ، ولا يقف بالنكبات يفتن في التفكير فيها ، وتقليبهـا على مختلف وجوهها ، كى يحيلهـا حسرات عميقة دفينة ، تهد منه القوى ويلتذ شعرهـا الحزين ، بل تراه يجتهد في استجماع نشاطه والانتقاض عليها ،وتبديد ظلماتها وإخضاعها لعقله ، كأنما قوام شخصيته أن يكون على الدوام متربصا بالمجهول مستعدا لتحدى القدر !

تلك هي روح القوة عندهم . أما نحن ، في مصر خاصة والشرق عامة ، فالاستكانة تفنينا ، وعدم الاكتراث يذيب منا الهمة ويقتل الضمير . نحن نجـد فى التواكل لذة كبرى، لذة التأمل في مصائبنا ،والتعليق عليها ،وإنماء الالم العذب الذى تحدثه في نفوسنا ، والصبر وانتظار الفرج من القضاء الذي نعتقد أنه المسبب لها .

فالفرد الاوربيأوالامريكي يجد اللذة في القوة ،ونحن نجدهـا فيالضعف . هو يتسامي باللذة الى حيث يجعل منها فضيلة عقلية وعملية ، ونحن نرجع بها الى مستواها الحيوانى فتختلط بأحط غرائز الجبن والذل والخول . نحن لانهتم بغـير تحليل ضعفنا ، وتعداد مساوئنا ،والشكوي من أمراضنا ، والتحسر علىماضينا ، والذهاب في نقدنا لانفسنا الى حد اليأس والشلل . ولكن الافراط في تحليل الضعف ، ضعف على ضعف ، والغلو في الشكوى دليل العجز ، والتمادي فى النقد موت للعمل وفناء للهمة والشعور .

والواقع ان البعض منا لا ثقة لهم بأحد ، لا بأشخاصهم ولا بأمتهم ، لا بروحها وعبقريتها ، ولا بمستقبل ابنائها . يرون الضعف فى كل شيء و يبحثون عن الضعف فى كل شيء . .

هذا هو سر تأخرنا !

فاذا شئنا أن نحيا ، فلنؤمن بأننا اقوياء ، وأن الامة المصرية ذات الماضى البعيد الحافل بالمجد ، والحاضر القريب الحافل بارادة الحياة ، ستظل على الابد مجيدة وعظيمة ، ما دام أبناؤها يرددون على الدوام : نحن أقوياء !

عبادة النكته

حيثما سرت فى مصر وأينما حالت ، تلمح ظاهرة بارزة هي الولع بالمجون وعبادة النكتةالمستملحة. نحن نؤثر نكتة غريبة على حوار جدى خطير، وفى سبيل تذوق النكتة نضحى بالفكر نفسه وتنقلب مجالسنا إلى مجتمعات عربدة واستهتار . قيمة الرجل الذى يعرف كيف ينكت تربى فى نظر الغالبية منا على قيمة الباحث والأديب .

وليس لنا أن نأخذ على شعبنا روح المرح والطلاقة هذه فقد ، تكون دليل صحة ونشاط وحياة ، ولكننا نستنكر الافراط فيها ونستنكر طابع النكتة المصرية الخاص

فالنكتة المصرية تفسد العقل المصرى، وتؤثر فى جوهر عواطفنا وطريقة تفكيرنا،

إذ هي لا تقوم على النقد الساخر المر ، ولا على الدعابة الفكهة البريئه ، ولا على النظر إلى الاشخاص والأشياء نظرة كاريكاتورية تضحكنا منها، وتحتفظ فى الوقت نفسه بأشكالها الحية في أذهاننا ، بل تقوم على المبالغة التى تشوه الواقع وتنكره . فكلما بولغ في النكتة على حساب الواقع صادفت من نفوسنا هوى . ونحن نغلو فيها لأن الضحك لا يكفينا وما ننزع اليه هو القهقهة والصخب والضجيج ، لذلك لا تعجبنا النكتة الاوربية التي لا تستثير غير الضحك أو الابتسام .

وكما أننا نغلو في المجون كذلك نغلو فى الاحساس بالفنون وتقديرها . فالألوان الصارخة هى التي تسحرنا ، والموسيقى المعنة فى الذلة والمسكنة هى التى تفتننا . والأدب الصناعى المنمق هو الذى نؤثره على سواه .

فهذا الضرب من الدعابة خطار على الخلق المصرى والعقل المصرى ، ولا سبيل إلى تهذيبه الا متى برزت المرأة الى المجتمع واختلطت بالرجال وعندئذ لا بد يستشعر الرجل سخافته واسفافه ، ويخجل من هذر القول وهجره ، ويبدأ فى استخدام ذكائه لابتكار نكتة طريفة محتشمة قد يكون فيها من التهكم النقدى ما يساعد على اصلاح المجتمع .

مظهر الحضارة

لقد كنا الى أمس القريب وملء قلوبنا الامل والعزم والنشاط ، نكافح جهد استطاعتنا، و نتخذ من روح الكفاح القومى مادة لحياتنا ، تحفر فينا الهمة الجبارة ، وتضاعفنا ثقة بأنفسنا ، وتفعم صدورنا كبرياء ونشوة ، وتدفع بنا الى بذل ارواحنا رخيصة فى سبيل مثل اعلى ، ولكن حضارة الغرب طغت فجأة على البعض منا طغياناً سحر القلوب وأذهل العقول .

بهرنا منها المظهر الخلاب ، أى وسائل الترف الصناعية المبتكرة ، فأقبلنا عليها فى طيش كطيش الأطفال، وسخونا بأموالنا فى سبيلها، وباتت غاية الكثيرين منا حيازة ذلك الترف والحصول عليه بكافة الوسائل .

ولما كنا من الشعوب الزراعية المتأخرة ، فقد استولى علينا هذا العارض الخطير بأشد مما هو مستول على أغلبيات شعوب الغرب .

والواقع أن كل ما شاهدناه ونشاهده من خيانات متعاقبة للوطن يرجع إلى هذا.

ان العمل للحرية يتطلب التضحية ، والتضحية معناها احتمال الألم والرضى بالكفاف أو الفقر ، ولكن مظهر الحضارة الغربية يلوح لنا بأسباب الترف وينزع بنا الى الأثرة والتمتع والوصولية والخيانة وعبادة المال !

فنحن بين روعة النعيم وشقوة التضحية ، نتلفت فلا نجد بيننا عدداً وافراً من أولئك الأفراد الممتازين المقبلين على التضحية فى غير ما تردد أو وجل .

وليس يكفى أن تكون فى الزعماء وحدهم روح التضحية ليؤمن بها الشعب ، فالعناصر المستنيرة المثقفة إذا لم تشعر من تلقاء نفسها بدافع يدفعها لتقدم الصفوف وإعطاء المثل الصالح، تراخي الشعب وفترت حميته وذهبت دعوة الزعماء صرخة فى واد،

والمشاهد عندنا أن المتعلمين المثقفين أقل استعداداً للتضحية من سواد الفلاحين والعمال لاتصالهم اليومى بمظهر الحضارة وافتتانهم به وتهافتهم عليه . وذلك هو موطن

الداء . ولا سبيل إلى استئصاله إلا بأن نصيح فى وجوه أولئك المتعلمين المخنثين ذوى الأيدى الناعمة والجلود الرخوة أن اخشوشنوا وتزهدوا وتقشفوا وكونوا رجالا !

نحن لا نريد ان نصبح امة انثى تبحث عن الذكر الذى يحميها !

نحن لا نريد نقف على اقدامنا بانفسنا فقط بل نريد ان نشرئب بعنقنا ونبسط ذراعينا كالجبار النبيل الذى يستطيع ان يسالم ويرحم لأنه يستطيع ان ينقض ويبطش !

اما الحضارة فليست فى الأثرة المجرمة والتمتع الجنانى على حساب الوطن ، وانما هى في الحرمان والتضحية والعمل من أجل حرية ومجد هذا الوطن !

وعلى المتعلمين أن يفهموا أنه لولا هذه الحرية ، ولولا العمل المتواصل العظيم والتضحيات المطردة الهائلة ، لما ازهرت حضارة الغرب ولما استعبدتنا اليوم بأسباب الترف هذه التي نتهالك عليها ونكاد نبيع فى سبيلها أقدس الأشياء !

وجوه وارواح

اميل زولا

رجل سليم الأعصاب ، قوى الارادة ، ضيق أفق التخيل ، شديد الملاحظة ، محدود الفكر ، ولوع بالدقة والنظام ، ساذج الوحى فى فنه ، بسيط الاسلوب ، ينفر من العواطف ويكره الشعر والشعراء

ذلك هو مجموع الخطوط الرئيسية التي تتألف منها صورة القصصى الفرنسى الاشهر أميل زولا .

عاش أميل زولا فى أواخر القرن التاسع عشر أى فى عصر شاهد ازدهار العلوم الطبيعية ، وشاعت فيه الطريقة العلمية القائمة على تجرد الباحث من ميوله وأهوائه الشخصية ، وخضوعه المطلق للواقع المحسوس ، واقباله على دراسة الحياة دراسة تسجل الظواهر على علاتها وتنفذ اليها بواسطة الملاحظة والتجربة والاستقراء

لم تدع هذه الطريقة أى مجال لابحاث ما وراء الطبيعة بل كانت تحارب هذه النزعة وتعتدها خيالية وتخشى منها على الفكر وتحاول أن تتجه بالعقل البشرى نحو تقدير الحقائق الملموسة والعناية بالماديات وحدها والانصراف إلى معالجة الظواهر الطبيعية على اعتبار أنها القوى الوحيدة التى يشعر المرء بآثارها فى حياته اليومية والتى ينبغى أن يسدد جهوده لدراستها وفحصها بغية اذلال عناصرها لمصلحة الناس جميعاً

وكما أن هذه الطريقه العلمية حاربت ابحاث ما وراء المادة وأجهزت على الفلسفات النظرية وعدتها أوهاماً زائفة خليقة بمفكرى العصور الوسطى من اللاهوتيين ورجال الكنيسة ، فقد تبرمت بالشعر أيضاً وحقرته وسخرت منه وحاربته على يد بعض المفكرين ونقاد الأدب والقصصيين

تأثر بعض الادباء بتلك الطريقة العلمية الجديدة ، ورأوا فى الشعر نفس الخرافة الوهمية التى رآها العلماء فى فلسفات ما وراء الطبيعة ، فما كان من أولئك الادباء إلا

ان حملوا على الشعر حملة شعواء ، وراحوا يزعمون أن خيالاته واستعاراته وعواطفه وموسيقاه ، ليست فى الواقع غير حجب كثيفة أسدلها التصور البشرى في عهد الجهل والخوف والعبودية على مختلف الظواهر الطبيعية المجهولة التفاعلات والاسرار

ظن أولئك الأدباء أن الشعر يحول بينهم وبين رؤية الحقيقة ، ويبدل فى نظرهم هيكل الانسان ، ويضفى عليه حلة خيالية ورائية تعوقهم عن بحثه ودرسه ورسم الصورة الصحيحة منه

اعتقدوا أن الجانب الشعرى فى الفرد هو الجانب الوجداني ، وأن الوجدان يقوم على العاطفة ، وان العاطفة وهم غادر لذيذ تشيعه فى النفس شتى الانفعالات الجثمانية والفيسيولوجية المنبعثة من الغرائز الطبيعية المشتركة

فالغرائز عندهم هى أصل العواطف والافكار ، والانسان فى عرفهم ملك غرائزه ، ودراسة الانسان التى هى أول واجبات القصصى يجب أن تستند الى وصف حركات الغرائز وتقلباتها وأطوارها وما تحدثه فى حياة الافراد من فواجع ومهازل

فغرائز الجوع ، والشهوة ، والكفاح اليومى ، هى الدعائم الثلاث التى تقوم عليها قصص أصحاب المذهب الطبيعى (الناتور السم) وعلى رأسهم أميل زولا.

فاميل زولا عند ما يعرض لرسم احدى الشخصيات تراه ، يرد انفعالاتها جميعاً الى تلك الينابيع الثلاثة . فاذا ما كافح أبطاله فى الحيــــاة فلكي يأكلوا . واذا ما اجتمعوا فى شكل أسرة فلكى يتعاونوا علي طرد الجوع . واذا ما ارتفعوا فى سلم المجتمع فلكى يستزيدوا أنفسهم من متاع الدنيا ويزهى بعضهم على البعض الآخر . واذا ما أحبوا واضطرمت عواطفهم وتأججت قلوبهم فليس ذلك الا لغرض شهوى محض تخمد فيه العواطف الكبيرة وتتقلص الاحلام ويموت الخيال والشعر . واذا ما عصفت بحياتهم الخطوب وهبت عليهم ريح المآسى واستيقظت فيهم عواطف البغض أو الاجرام أو الرحمة فذلك لان الغرائز تلهوبهم وتصب عصارة قواها فى أرفع وأوضع احساساتهم على السواء

فالرغبات المادية الغريزية هى التى تسوقهم من حيث لا يشعرون . وعبثاً تجد فى

قصص أميل زولا شخصية واحدة رائدها الروح ، تتحرك وفق حكم المعنويات، وتحب وتتألم وتعيش من أجل عاطفة نزيهة مجردة، أو فكرة بريئة خالصة ، أو شعور متقد حار لم تكونه الدوافع المادية ولم يطغ عليه سيل البدن

واليك بعض أمثلة على هذا :

ان جنون الخمر — وهو عارض مادى يلعب أكبر دور فى قصة (الساحق) ، وحياة العمال فى المناجم وكفاحهم اليومى الشاق هما جوهر قصة (جرمينال) ، ويقظة الشهوة فى جسد قسيس هو موضوع قصة (هفوة الاب موريه) ، وزهو الطبقة المتوسطة وسخفها ورعونتها وتهالكها على طلب الرفاهية المادية أسوة بالطبقة العالية ، هو مدار الحوادث فى قصة (القدر تغلي) ، وحياة الجوع والدعارة والمرض هي قوام رواية (نانا) ، وانفجار الغريزة الجنسية فى نفس امرأة شابة حيال دعوة رجل قوى العضل حيوانى المظهر ثم استبداد هذه الغريزة بها وذهابها فى طلب اللذة الى حد الاجرام هو موضوع (تيريزرا كان) !

جميع هذه القصص — وهى خير ما انتجته قريحة زولا — تسبح حوادثها وشخصياتها في جو الغرائز ، وتفوح منها رائحة مادية حادة تأخذ بالمخنق وتلقى في روع قارئها انه انما يسمع الحياة في هديرها الاول ، ويرى العالم فى فوضاه الابدية ، ويشهد الفطرة تسعى على أربع ، ويتنقل فى غاب مثوى تسرح في جوانبه الضوارى !

فأميل زولا هو اذن مصور الفطرة ، والفطرة نقيض العقل ، والعقل وليد الثقافة والتحضر ، والثقافة ميزة الطبقة المستنيرة العالية . لهذه الاسباب ينفر زولا من رسم الطبقات المثقفة ويرصد جهوده على وصف الشعب ، ويرى فى الشعب مثال الفطرة الحية تعمل فى صراحة وبراءة خارج أسوار العرف والنفاق التى يقيمها العقل والمجتمع عادة فى وجه الطبيعة الحرة

وليس ثمت شك فى أن عقل الرجل المثقف يحد من غرائزه ، ويحاول أن يصقلها ويتسامى بها ، وأن آراءه ومبادئه وهى تصطدم بغرائزه تحدث تفاعلات فكرية ووجدانية تجعل شخصيته أرحب أفقا من شخصية رجل الشعب ، وعواطفه أكثر

تعقداً وتلونا، وخيالاته وأحلامه أشد تأثيراً عليه وتمكننا منه لصدورها عن مركز الفكر الغزير فيه

غير أن زولا يعد هذه القوى العقلية دخيلة على الحيـاة ، لا تكاد تتجمع على سطح الشخصية حتى تتبدد وتفسح المجال لقوانين الفطرة التي تشغل الكل وتسود الجميع.

ومن هنا نشأت طريقته الفنية وأسلوبه القصصي

فهو يقول : أن الرجل المثقف المستنير متعدد العواطف منوع الافـكار موزع الميول ينظر فى آرائه وإحساسـاته نظرة مراجعة وفحص فيحللهـا ويردها الى اصولهـا ويفاضل بينها ويظل يخدعه عقله فى حقيقة غرائزه حتى تفجأه ثورتها فيبهت ويقاوم أو يذهب فى النهاية طعمة لها

هذا الرجل يمثل طبقة ضئيلة خاصة فلكي يجيد القصصي رسمه يجب أن يقتصر فى فنه على دراسة طبقة ضئيلة خاصة ، ويجب أن يستعين بالطريقة التحليلية يجزىء بها تلك الآراء والاحساسات المتضاربة مما يولده العقل ولا يرى فيه زولا الرمز الحي لجوهر الطبيعة البشرية .

أما رجل الشعب فيمثل السواد الاعظم، ويعيش أكثر مما يحلم، ويعمل أكثر مما يفكر ، ويأكل ويحب ويغار ويثأر فى بساطة الفطرة الصافية الخالدة . فلـكى يجيد القصصي رسمه عليه أن يكون بسيطاً فى أسلوبه وتفكيره ووحيه ، بعيداً عن التحليل والتعقيد والابهام وما يغري به الخيال الشعري من مبالغة ، قريبا الى الواقع المنظور ، متصلا به ، مندمجا فيه ، يعرض تفاصيله وأجزاءه عرضا شاملا دقيقا عن طريق الملاحظة الصارمة المجردة

الملاحظة ! تلك هي الظاهرة الفنية العلمية التي تتمثل فيها عظمة أميل زولا . فهو يختار موضوعه من الاوساط الشعبية أو المتوسطة ولا سيما الأولى ثم يشرع فى جمع الملاحظات الخاصـة بهذا الموضوع . يجمعها من البيوت والشوارع والملاهى ومختلف البيئات والاحياء التى سيجعل منها مسرح قصته ثم يدونها فى كراسات صغيرة فاذا ما اعتزم الـكتابة أخذ فى تنظيم تلك الملاحظات وترتيبها ودسها خلال السطور فى الاماكن الصالحة لها بحيث تؤلف وحوادث القصة وحدة رائعة متماسكة

والغريب فى هذا الرجل أنه لا يدع شاردة الا ويحصيها ، ولا جزئية إلا ويلم بها ، ثاقب النظر ، مرهف السمع ، واسع الصبر ، لا يكاد يقف بمشهد من المشاهد ويمضى فى نقل أظهرو أبسط ألوانه حتى تأخذ عينه فى نفس الوقت صورة المشهد كاملة . وكلما كان هذا المشهد عظيما رحيبا ترتطم فيه النفوس وتزدحم الغرائز وتتقاتل وتتبارى ، كان زولا أقدر على وصفه وأبرع فى تصويره وأدنى إلى الشعور بحقيقته .

وأنا لا أعرف من بين القصصيين من استطاع كزولا أن يصور المجاميع البشرية تصويرا يفيض قوة وحركة غير تولستوى

ولكن زولا أقرب الى اللون المادى الصارخ من زميله الروسى . فهو يحشد الطوائف الهائلة من عمال وفلاحين وموظفين وغيرهم ، ويأخذ في عرضها وتحريكها كما يحرك القائد جيشه استعدادا للمعركة ، فتشعر وأنت تطالع القصة ان تلك المجاميع تعج بالحياة وان الحياة تصطخب فيها كالموج الزاخر ، وان فوضى الحياة هذه لا تنفى نظامها ولا تخفى عن أبصارك شوارد الصورة ودقائقها .

ومن أعجب خصائص زولا الدالة علي ولعه الجنونى بالملاحظة ، اسرافه الشديد فى الوصف . ففى وسعه أن يكتب مائة صفحة مثلا فى وصف بستان كما فعل فى فى قصة (هفوة الاب موريه) فتراه يحصى كل زهرة وورقة ، وكل ثمرة وشجرة ، بل تراه يخاطب الحصى ، ويستنطق الرمال ويهز الروض الفسيح هزا فيتألق تحت ريشته كما يتألق تحت شؤبوب المطر . ولكن زولا يغلو كما قلنا في الوصف المادى بل لا يكاد يبصر غير الظواهر المادية المحضة وكثيرا ما يفضى به غلوه الى شيوع الغلظة والقذارة فى رسومه ما تمجه النفس ويأباه الذوق السليم

ولن أنسى ما أحسست به عقب مطالعتى قصته (القدر تغلى) . فلقد أراد زولا أن يرسم فيها امرأة جاءها المخاض وهى وحيدة فى غرفتها بسطح منزل فلم يحفل بأعطائنا صورة تمتزج فيها الحقيقة بالشعر ، صورة تمجد انبثاق حياة جديدة من احشاء امرأة بل مضى يصف أعراضها الجثمانية ومختلف افرازاتها وصفاً بلغ من الدقة والهوس المادى حداً أثار فى نفسي الاشمئزاز وكره الحياة

وهذا هو وجه الضعف فى فنه

أنه لا يرى شعر الوجود . لا يحس جمال السكون المعنوي ولا تلمح فى أعماله أثر تلك الهزة الروحية التى يخلقها الحب الكبير والرحمة الواسعة والرقة والحنان وسائر العواطف الانسانية الناشئة عن فهم المعنويات والاحساس بها

انه يصور الشعب والشعب انسانى النزعة لانه يتعذب ولكن الانسانية لا محل لها من قصص أميل زولا

لقد رسم قوة الشعب فقط أما انسانيته فلا. ولقد نسى أوتناسى أن فى الطبيعة من الجمال المتجدد الرائع ما يؤثر فينا و يمتلك علينا مشاعرنا وألبابنا : الزهرة الجميلة، السحب الطائشة ، البحر الجياش ، الجبل الشاهق ، العيون الفاتنة ، ألا يبعث هذا فى نفوسنا سواء أ كنا من العامة أم من الخاصة أفكاراً وأحلاما وتأملات كانت وما تزال أصل الأدب وينبوع الجمال ؟

والالم المشترك ألا يخلق فى قلوبنا وعقولنا معنى الشعر ؟ ألا يعلمنا المحبة والرحمة والاخاء ؟ ومن أدرى بالالم من الشعب ، من الطبقات البائسة العاملة ، ومن أقدر منها على الاحساس بما فى البؤس من شعر ، وتذوق هذا الشعر والعيش بمقتضاه كأنه مادة الحياة اليومية ؟ اليس فى الألم نفسه عارض يحررنا من ربقة الرفاهية المادية ويتجه بأبصارنا نحو المعنويات ؟

وأية قيمة معنوية وفنية للبائس المجاهد عاملا كان أم فلاحا اذا تحجر قلبه وتبلد حسه وأمسى هو الآخر كمعظم أفراد الطبقة العالية ينشد المادة ودائما المادة وأبداً المادة ؟ !

يلوح لى أن عيب زولا الاكبر هو اعتقاده أن ليس لرجل الشعب عواطف مركبة معقدة كما أن ليس له خيال ، وأنه لهذا السبب لا يفهم الشعر ولا يصبو اليه . ومن البديهى أن هذا خطأ اذ لكل انسان — كائنا ما كان مركزه الاجتماعى — عواطف منوعة متضاربة تولدها فى نفسه شتّى الحوادث التى تمر به مصطبغة بمزاجه الخاص . فالحوادث هى التى تصدم العقل وتفتق المخيلة وتوقظ الافكار والعواطف

ورجل الشعب يعيش فى وسط حافل بالمغامرات ويشعر بكل تلك العواطف ولكن طريقة شعوره هى التى تختلف بحكم مزاجه وبيئته ووراثته وتربيته عن طريقة شعور المثقفين أو المترفين ممن نخلع عليهم لقب الخاصة

وقد يكون رجل الشعب أبسط احساساً وأدنى الى الفطرة ولكنه مع ذلك يشعر . والطبيعة التى تنعكس فيه هى نفسها التى تنعكس فى الرجل المثقف . بل هو لفرط اتصاله اليومى بها واستهدافه لطغيان عناصرها وضعفه الاجتماعي حيالها ، أقرب الى الشعور بها كاملة – مادة وروحا – من الرجل المثقف صاحب الاراء والميول التجريدية النظرية ، البعيد عن ادراك حقائق الحياة المرة لبعده عن العمل اليدوى وأمنه غائلة الفقر والجوع والذل

وهذا ما نشعر به أوفى شعور وأبلغه فى قصص مكسيم جوركى وهذا ماينقص أميل زولا وكلاهما يصور الشعب . أجل . كلاهما صور الشعب ولكن الثانى كان من أبناء الطبقة المتوسطة فلم يتصل بالشعب اتصالا وثيقا دائما ولم يعرفه حق المعرفة ولم يشاطره آماله والامه .

أما الأول فقد أنفق صفوة عمره بين العمال والفلاحين وكان هو نفسه عاملا فاستطاع أن يمثل فى قصصه الخالدة روح الشعب صادقا بما فيه من ألم وبطولة ، من مادة وشعر ، من حزن وفرح ، من طيبة ومحبة

ان أبطال زولا لا يبصرون جمال الطبيعة ، أما المتشردون أبطال جوركى فيندمجون فيها ويرجعون اليها كما ترجع الأحياء جميعاً الى أمها الارض !

ان عظمة البؤس والعمل تكلل جباههم ، وتضفى على هيا كلهم السقيمة الضامرة حلة ساطعة من المجد ، وتدنيهم من الطبيعة التى لاعزاء لهم فى غير تحدى جبروتها ، والاحساس بروعة جمالها ، والتفانى فيها برغم قسوتها وظلمها .

وأى سلوى للاشقياء فى هذه الدنيا غير التطلع الى السماء الصافية ، والشمس الزاهية ، والنور البهي ، والالفة النفسانية العميقة الجامعة بين القلوب والاجسام المعذبة فى محيط واحد وأمل فرد ؟

وهذا هو ما حققه جوركى وما لم يستطع الوصول اليه زولا

فأبطال جوركى يكدون و يتعذبون ولـكنهم يحتملون عذابهم فى ابتسام ساحر وصبر جبار وعدم اكتراث عجيب ، ومن كدهم وعذابهم وصبرهم تلتمع فى مخيلاتهم صور مبهمة فاتنة لعالم انسانى جديد ، عالم يسود فيه الاخاء و العدل والرحمة ، تنزع اليه نفوسهم الساذجة المنهوكة بكل ما فيها من حنين الى السعادة ملح مخنوق. انهم يبحثون عن مثل فى الحياة الاعلى : مثل روحى هو الطيبة والمحبة ، ومثل اجتماعى هو المساواة الاقتصادية المطلقة .

أما أبطال زولا فيكدحون فقط ، وأقصى ما يبتغيه الفرد منهم أن يطفىء شقاءه اليومى فى محيط غرائزه وأن يهوى بروحه وجسمه الى حضيض الارض بدل أن يسمو الى عنان السماء

ومع كل هذا وبرغم النقص الكبير الذى أشرنا اليه ، يظل أميل زولا فنانا مجدداً عظيما وأول وأبرع قصصى صور من الشعب جانب الفطرة القوية الحرة أبلغ تمثيل .

وسيظل فوق هذا أكبر زعيم لمذهب خطير من مذاهب الادب ، وأستاذ جميع الروائيين الشعبيين بما فيهم ليون تولستوى ومكسيم جوركى نفسه

بول بورجيه

تألقت فى سماء الادب الفرنسى فى مستهل القرن العشرين والى ان أعلنت الحرب الكبرى أربعة اسماء عظيمة هى (اناتول فرانس) و (بييرلوتى) و (موريس باريس) و (بول بورجيه)

وقراء العربية يعرفون اناتول فرانس و بييرلوتى فقد تحدث عنهما الكثيرون من كتابنـا ونقلت الى العربية بعض مؤلفاتهما ومقالاتهما أما موريس باريس وبول بورجيه فلم يظفرا من أدبائنا بالعناية الكافية ولم يترجم للاول فيما نعلم أى كتاب . ولولا الاستاذ عبدالله عنان الذى نقل فى مجموعة قصصه رواية (حالة ضمير) ، والاستاذ احمد رأفت الذى نقل رواية (أندريه كورنليس) والاستاذ خليل مطران الذى نقل رواية (الغريب) لظل اسم مؤلفها بول بورجيه مجهولا فى لغتنا

وقد توفى أناتول فرانس وبييرلوتى وموريس باريس وبقى بول بورجيه على قيد الحيـاة يرمز إلى عصر بأكمله ، والى نوع خاص من الادب ، وطريقة معينة فى الشعور والأحساس

***

عاصر بول بورجيه أناتول فرانس و بييرلوتى وموريس باريس . وكان الاول اى اناتول فرانس اديبا شكوكيا نصف فوضوى يلهو بالاراء والافكار و يعبث بها و ينشد الجمال ويرى في الفن غاية هذه الحيـاة الدنيا . وكان الثانى كاتبا لطيف الحس رقيق الشعور انثوى العاطفة ، يجيد الوصف والتصوير و يعرف كيف يرسم لك الطبيعة بريشة ماهرة تجمع الى دقة الحقيقة روعة الخيال الشعري . وكان الثالث أديبا ورجل عمل وكفاح يتغنى بماضي بلاده المجيد ، ويقدس الشخصية المتحضرة القوية ، و يكتب فى شرح هذه الشخصية المنشودة وطرائق تثقيفها ابحاثا فلسفية شـائقة ثم يتبرم بالادب فترة فينزل معترك السياسة و ينتخب فى البرلمان ويشترك فى الجمعيات الوطنية

التى كان يتولى زعامتها الشاعر المشهور بول دير وليد والتى كانت ترمي الى استجماع قوى الفرنسيين لاخذ الثأر من المانيا واسترداد الالزاس واللورين

وكان بول بورجيه وطنياً صميما يؤمن بدعوة موريس باريس وبول ديروليد ولكنه لم يهبط مثلهما معترك العمل والكفاح ولم يفكر لحظة فى الاشتغال بالسياسة ولم يتأثر لا بتشكك أناتول فرانس ولا بخيال بييرلوتى المخنث بل حول تيار ذهنه نحو النقد الادبى والفن الروائى وطمع فى وضع قصص يصور فيها الحالة الاجتماعية فى عصره تصويراً قوامه التحليل النفسانى العلمى وقاعدته اصلاح المجتمع الفرنسى وتلقيح ديمقراطيته بالمبادىء التى يعتنقها المحافظون انصار النظام الملكي

وبدأ بورجيه حياته الادبية باخراج مجموعتين من الشعر لم تصادفا النجاح الذى كان ينشده لما اشتملتا عليه من عواطف واحساسات جافة يسودها العقل ويتحكم فيها ويخفف من حرارتها الطبيعية الصادقة .

شعر النقاد ان هذا الرجل ليس بشاعر وان ادراكه أعمق من عواطفه وعقله أقوى من أعصابه وأحس بورجيه نفسه بحقيقة مواهبه وملكاته فترك الشعر وانصرف الى معالجة النقد الادبى

وأخرج بعد ذلك كتابه المشهور (دراسات فى السيكولوجية العصرية) ولم يكد يظهر هذا الكتاب حتى ضجت له الاندية الادبية واستقبله النقاد بالتهليل واعتبروه فتحا فى النقد الادبى الفرنسى ورفعوا بول بورجيه الى مستوى الناقد سانت بوف

وكان بول بورجيه قد تأثر فى ذلك الوقت بالمؤرخ والفيلسوف هيبوليت تاين وتتلمذ عليه وحاول ان يطبق نظريته فى تحليل عوامل البيئة والوراثة على الشخصيات الادبية التى تناولها بالنقد فى كتابه المشار اليه

وفى هذا الكتاب عرض بورجيه لتحليل عشر شخصيات من أكبر الشخصيات الادبية فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين مثل بودلير وارنست رينان

وجوستاف فلوبير وايفان تورجنيف وأمييل

وكان بورجيه يحلل فى دراساته عوامل الوراثة التى كونت شخصية الاديب وعوامل البيئة التى اشتركت فى خلق مزاجه الخاص مستندا فى أحكامه وتقريراته الى الاعمال الادبية التى انتجها الاديب ثم يستخرج من هذا كله نظرات فاسفية واجتماعية تلقى ضوءا ساطعا على مختلف التيارات الفكرية والعاطفية السائدة فى عصره والمسيطرة على عقول ابناء هذا العصر وقلوبهم

وامتاز بورجيه فى هذا الكتاب بأسلوب متزن متماسك وافر المنطق محكم البناء يدل أبلغ الدلالة على ثقافة واسعة واطلاع غزير وملكة أصيلة فى النفاذ الى جوهر الشخصيات وتحديد عواملها النفسية وتقدير انتاجها الادبى

وأعتقد الكثيرون أن ميدان بورجيه هو النقد وأن ذهنه ذهن ناقد عبقرى فحسب ، ولكنه كان قد طالع أعمال الروائى الكبير أونوريه دي بلزاك وتأثر به وشعر فى أعماق نفسه بقوة غريبة تدفعه الى القصص فما كان منه الا ان انصرف عن النقد ردحا من الزمن وشرع يجرب قواه فى الفن القصصى

وكان لا بد أن يصطبغ اسلوبه الروائى بأسلوبه فى النقد . وكان لا بد ان يتناول القصة بنفس الخاصة العقلية التي امتاز بها فى النقد . وهذه الخاصة هى التحليل

أراد بول بورجيه أن يقيم رواياته على قاعدة التحليل النفسانى ففعل وأحرز فى هذا الميدان أيضا شهرة لا تقل عن شهرته كناقد ألمعى .

ولكن كيف يحلل بول بورجيه ؟ وما هى الطريقة التى يعرف بها اسلوبه الروائى التحليلى ؟

ان هذا القصصي الذى توافر زمنا طويلا على دراسة التاريخ والفلسفة والطب وتشبع بالروح العلمية المحضة لا يستطيع ان يرسم شخصيات ابطاله إلا بروح العلم وأسلوب العلم

فهو يعرض لك الشخصية ضمن حادثة شائقة محكمة الحبك والسياق ثم يشرع فى تحليل كل عاطفة من عواطفها وكل خلجة من خلجاتها

يحلل ويجزيء ويشرح كل ما يدور في نفس تلك الشخصية في الحاضر والماضي وذلك من خلال الحوار أو أثناء عملية العرض والسرد .

فالحوار عند هذا الكاتب لاينصب في مجرى واحد منبسط صاف ، بل تتخلله على الدوام تحاليل مسهبة يقوم بها المؤلف ليطلعك على الاسباب النفسية التى حدت بالبطل الى القاء هذه الجملة ،أوالعوامل الفكرية التى حملته على التفوه بهذه العبارة ،أو تأدية تلك الحركة .

وقد عاب بعض النقاد على بول بورجيه هذه الطريقة وزعموا ان ذلك الاسراف فى التحليل من خلال الحوار يفقد الحوار صبغته الطبيعية ويشعر القاريء بعقل المؤلف الكامن وراءه ويجرد القصة من طابع الحركة والحياة .

وقد يكون في هذا النقد الشيء الكثير من الصواب ولكن بورجيه لايحفل بتصوير حركة الحياة الظاهرة قدر احتفاله برسم الميول والاهواء التي تسرح في أعماق النفس البشرية .والناقد الذي يأخذ عليه اهماله حركة الحياة يجد فى روعة التحاليل وصدقها مايعوض ذلك النقص الفني

فبول بورجيه يفعم الحوار بالتحليل . ولكنه لا يكتفي بتحليل العواطف والاحساسات فقط .بل يحاول ان يستغلها استغلالا واضحاً متوخياً في ذلك طرائق الاسلوب العلمي

ولكي نقرب هذه الظاهرة الى ذهن القاريء نتبسط فى الشرح ونقول : ان بورجيه بعد اذ يفرغ من تحليل جزئيات العاطفة يجتهد في ان يستخلص من تحاليله الطويلة نظريات نفسانية وفلسفية يمكن ان تطبق على الناس جميعاً لا على أبطال رواياته فقط

وهكذا يتدرج من الخاص الى العام . من القصة الى الفلسفة . من تحليل شخصيات مستقلة الى استخراج نظريات شاملة في النفس والطبيعة والاخلاق وما وراء الطبيعة

يتضح مما تقدم ان بورجيه لا يكتب القصة من أجل القصة ولايحلل نفوس

أبطاله ثم يكتفي بهذا التحليل ،بل يستنتج ويستقريء ويخرج با راء عامة لونزعناها من مجموع القصة لما تأثر العرض والسياق وجوهر الموضوع .

وهذه الظاهرة الاخيرة عابها عليه النقاد أيضا ولكنه لم يستطع التحرر منها لخضوعه للعقل العلمي بل لقد أسرف فيها لاسيما فى قصصه الاخيرة اسرافا غلب الفكر في القصة على الخيال والتحليل على الحركة والمنطق الجاف على التصور الشعري

وكانت أولى الروايات التى أخرجها بورجيه والتي بهرت بعمق تحليلها عقول الفرنسيين خاصة والاوربيين عامة : (اللغز القاسي) و(جريمة حب) و (اندريه كورنليس) و(الدوقة الزرقاء) و(الغرام الفاجع) و(قلب امرأة) و(التلميذ)

جميع هذه القصص لاحوادث فيها ولا وقائع ولا مباغتات ، ومعظمها يدور حول أزمة نفسانية لايستغرق سردها أربعة أسطر ولكن بورجيه بعبقريته الخاصة يستطيع ان يحصر اعراض هذه الازمة النفسانية في ثلاثة أو أربعة أشخاص فقط وان يحلل أجزاءها ودقائقها تحليلا يستغرق ثلثمائة أو أربعمائة صفحة يطالعها القاريء المثقف المستنير بلذة لاتشوبها شائبة الملل

فقصة «جريمة الحب» مثلا يدور موضوعها حول امرأة وفية قادها افراط زوجها في الشك فيها الى التبرم بخيانتها وارتكاب نفس الجريمة التى كانت بريئة منها . وقصة «اللغز القاسى» هي حكاية المرأة التى تحب بكل قوى نفسها ثم تخون على الرغم منها في ساعة من تلك الساعات الرهيبة التى تستفيق فيها الفطرة الحيوانية الكامنة في أعماق الطبيعة البشرية فتعصف بالعواطف وتكتسح الفضائل وترد الانسان الى أصله الوضيع الاول. وقس على هاتين القصتين معظم القصص التى وضعها بول بورجيه في المرحلة الاولى من حياته الادبية.

ومما يجب ان نلاحظه ان حياة بورجيه الادبية امتازت بمرحلتين متباينتين

المرحلة الاولى هي التي كان يؤلف فيهـا رواياته ولا غرض له الا بحث الاعراض النفسانية بغية استخراج نظريات فلسفية وسيكولوجية تتعلق بالاخلاق والاداب العامة. وفي هذه المرحلة كان بورجيه أقرب الى الروائي الفنان منه الى المصلح الاجتماعى . اما فى المرحلة الثانية فقد تفوق فيه المصلح على الفنان وأصبحت رواياته ترمى الى تأييد أفـكار اجتماعية ثابتة وترويج الدعوة لمبـادىء وآراء معينة أعتنقها الكاتب وآمن بها ووقف جهده الادبي على اذاعتها من طريق القصص .

اعتقد بول بورجيه ان لا خلاص للمجتمع الاوربى العصرى الا بالعودة الى تعاليم الـكنيسة الـكاثوليكية واتباع قوانينهـا فيما يختص بمسـائل الاحوال الشخصية والاستمساك بنظام الطبقات والدفاع عن حق الملكية ومقاومة الافـكار الاشتراكية والشيوعية وتنظيم العلاقات بين الغني والفقير على قاعدة المحبة والعطف والاحسان

ومضى بورجيه يؤلف القصص لا مدفوعا بالرغبة القديمة فى استجلاء غوامض النفس الانسانية فحسب بل مسوقاً بايمانه الجـديد الى الدفاع عن تلك التعاليم الدينية المذهبية التى يزعم ان الحقيقة الـكبرى قد تمثلت فيها.

وهكذا وضع روايات (حادثة طلاق)و(المرحلة) و (لازارين) و (أعمـالنا تتبعنا) و(مأساة فى المجتمع الراقى) وجميعها ترمي الى تاييد العقائد الكاثوليكية التي أشرنا اليها .

وهنا ثارت عليه ثائرة نقاد الادب الذين يفرقون على الدوام بين فن القصة الادبي وبين الرغبة في الدعاية الدينية والاجتماعية .

والواقع ان اولئك النقاد كانوا على حق في ثورتهم لان نزعة الدعاية تغلبت في شخصية الـكاتب على نزعة الفنـان فافسدت التحاليل وشوهت الشخصيـات

وجردت القصص من عنصر الحياة الحرة وأحالت أبطالها عرائس خشبية تتحرك بارادة المؤلف لا بارادتها الخاصة وتعبر عما يريده المؤلف لاعما يضطرم في نفوسها .

وأصبح الروائي يضحى بالفن والحقيقة النفسانية في سبيل الدعاية والاصلاح الاجتماعي فطغى الفكر على رواياته وامتلأت بالمحاضرات الدينية ومختلف ضروب الوعظ والارشاد التى تتنافر وطبيعة الفن القصصي

ولقد ترتب على هذا ان انصرف الجمهور الفرنسي المتأدب المثقف الذي ينشد الفن الصادق الحر الاصيل عن مطالعة بول بورجيه وأقبل عليه جمهور الاندية والجمعيات الكاثوليكية ولكن الرجل ثبت فى موقفه وظل يدافع عن عقيدته غير حافل بحملات الشبان عليه والكساد الذي أصيبت به مؤلفاته

ولم يكتف بورجيه بصبغ قصصه بالصبغة الاصلاحية الدينية بل طبع نقده الادبي بهذا الطابع أيضاً وشرع ينقد أعمال الكتاب والادباء ويصدر الاحكام عليهم من وجهة نظره الاجتماعية الخاصة لا من وجهة الفن والجمال

وهكذا بدأ هذا الرجل حياته كفنان وانتهي الى رسول دينى. والذى سينقذ ولا ريب شخصيته في نظر الاجيال القادمة هى أعماله الادبية الرائعة في المرحلة الاولى من حياته ، واخلاصه فى المرحلة الثانية لعقيدته ، وصدقه في الايمان بها وثباته فى الدفاع عنها .

ولكنه مع كل ماتقدم وبالرغم من هذا التطور الذى وقع في حياته وفكره علي حساب الفن يظل حتى اليوم وبعد ان جاوز الثمانين من عمره أقدر كتاب العصر الحاضر على بناء القصة وتخطيط شخصياتها وترتيب مواقفها وأحكام الروابط بين المواقف والشخصيات وجوهر الموضوع . أي يظل استاذاً لايبارى فيما يتعلق بالجانب الصناعي من الفن القصصي .

رومان رولان

شعرت الطبقة المستنيرة فى أوربا فى الاشهر الاخيرة التى تقدمت الحرب العظمى ان السحب معقدة لافى الجو السياسى فقط بل في الجو الثقافى أيضاً وان جميع الظواهر تدل دلالة بالغة على ان العالم مقبل على كارثة .

و كانت النزعات الوطنية مضطرمة والتعصب الوطني يغلي في العقول والصدور والجيوش تتأهب والدول تعد معدات الكفاح ورجال الفكر والثقافة أنفسهم يشتركون في اذكاء نار العداوة والبغضاء .

وحدث أن الكاتب الالماني جرهارت‌هاوبتمان الذى كان قد انقطع الى التأليف المسرحي وأرصد قواه على خدمة الادب والفن ، تصدر لقيادة حركة الدعاية للحرب وجمع حوله طائفة من كبار كتاب المانيا وزعماء الفكر فيها وشرع ينظم حملة ادبية ضد الدول الاوربية شادياً بالثقافة الجرمانية والروح الجرمانية مناديا بوجوب سيادة هذه الروح وتلك الثقافة على أوربا والعالم

ولم تكن الطبقات الاوربية المستنيرة تتوقع نزول رجال‌الفكر الى‌ميدان‌السياسة وإنكارهم أمثلتهم العليا فى سبيل الدفاع عن حق الحرب وتأييد سلطان القوة بهذا الاسلوب الواضح العنيف

وكان البعض يعتقد ان الفكر يجب ان يحتفظ باستقلاله حيال السياسة ويجب ان يشرف عليها ويحاسبها ويكبح من ثوراتها ويتجه بقواه نحو مبادىء العدل والحرية يحميها ويذود عنها ويجعل منها المنارة المتألقة وسط المحيط السياسي الجائش المصطخب .

وليس شك في ان رجل الفكر إنسان يتجاذبه عاملان : الوطنية والانسانية . وهو في الغالب وطني أولا ثم إنساني بعد ذلك. غير أنه قبل كل شيء

رسول العدل والحكمة والحرية ومن واجبه اذا طغت عليه الظروف وزجت بلاده بنفسها في مشكلة لاتقوم على أساس من العدل والحكمة أن يردها الى الصواب فاذا لم يستطع فلا أقل من ان يحتفظ بالصمت احتراماً لفكره وتقديساً للرسالة التى أعدته الطبيعة لتأديتها .

ورجل الفكر مطالب في الشعوب المستعبدة المهضومة الحق المنزاعة الى احتلال مكانها المشروع تحت الشمس بأن ينضوي تحت راية المجاهدين ويستخدم ذكاءه وعقله وقلمه للدفاع عن قضية الاستقلال والحرية لان رسالته الفكرية تأمر بذلك وتفرضه عليه والا كان وجوده وعدمه سواء.

أما في الشعوب المستقلة فرجل الفكر هو حارس هيكل الحكمة وهو القوة العاقلة اليقظة المتنبهة التى ينبغي أن تسهرعلى سياسة الدولة وتراقبها وتحاسبها وتنقدها وتردها الى سواء السبيل .

وقيمة رجل الفكر تنحصر في إخلاصه للحق والعدل من أجل مصلحة وطنه ومصلحة الانسانية ، وفي حرصه على ألا تنحط كرامته العقلية والنفسية الى ممالأة الساسة والمتمولين على دعايات يعلم تمام العلم أنها ظالمة وأنها لاتستند الى أساس من الحق والعدل

والشعوب الكبيرة الحرة تعترف باستقلال مفكريها ولا ترغمهم على الاخذ برأى حكوماتها وترى فيهم دعاة المثل العليا. ولكن هناك طائفة من أولئك المفكرين تأبى عند هبوب العواصف إلا ان تشترك فيها وتنكر رسالتها من أجل الدفاع عنها وتتفانى في هذا الدفاع ولوذهب الفكر فريسة له

وهذا ما وقع في ألمانيا قبيل اعلان الحرب الكبرى . فقد أصدر جرهارت هاوبتمان منشوراً وقعه عشرات الكتاب والاساتذة الالمان دعوا فيه الى وجوب الحرب والى مشروعية الحرب والى حق القوى في اكتساح الضعيف والي ضرورة بسط سلطان القوي على العالم بالسيف والنار.

ولم تتفرد المانيا بتجنيد الفكر على هذه الصورة بل اشتركت فيه فرنسا أيضاً. فقد استخدم أحد كبار كتابها وهو موريس باريس بلاغته وذكاءه في سبيل الترويج لفكرة الحرب وأخذ الثأر وابتكر فلسفة تقوم على عبادة الاسلاف وتقديس الموتى ووجوب اعادة مجد الوطن الفرنسي بواسطة التأهب للحرب وغرس بذورها فى نفوس الشبان واعدادهم لها بمختلف الوسائل

وانساقت وراء موريس باريس طائفة كبيرة من المثقفين كتلك الطائفة التي انساقت وراء جرهارت هاوبتمان ، وهكذا اتسع ميدان الحرب وساهم فيه الفكر واستغلت الثقافة واستخدم الادب كأدوات كفاح وجلاد .

ولم يحدث في تاريخ العالم ان سخر الفكر لبث الدعوة الى القتل كما سخر في تلك الايام . وكان النائب والخطيب الاشتراكي الفرنسى الكبير جان جوريس في طليعة من أحسوا الخطر ورفعوا عقيرتهم منبهين اليه ، فلم يلبث أن اعتدى عليه وقتل تخلصاً من تأثيره البالغ على الاحزاب والجماهير وخشية أن يفضى هذا التأثير الى اضعاف الشعور العام وعرقلة الجهود التى تبذل لاضرام فكرة الحرب وابقائها حية مشتعلة في النفوس .

ولم يحس من رجال الفكر في تلك الآونة أعمق احساس بعظمة رسالته وقيمة فكره ، ولم يخلص لهذا الفكر أشد الاخلاص ولم يروج لمبادىء العدل والسلام أوسع ترويج الا الكاتب والقصصى الفرنسي رومان رولان .

هذا الكاتب أبت عليه كرامته الفكرية وعاطفته الانسانية وحبه الحق والعدل والحرية الا أن يثور في وجه الحرب والقائمين بها ويتهم الجميع بأنهم مسئولون عن احداثها وينصب نفسه رسولا للسلام يذود عن الاخوة البشرية وسط قصف المدافع وصليل السيوف .

وكان من واجب رومان رولان ان ينخرط في صفوف الجيش الفرنسي المحارب وان يؤدي واجبه الوطنى كجندى ولكن ايمانه العظيم بفكرته ، واعتقاده ان القتل ايا كان جريمة ، واستنكاره ان تلطخ يداه بدم اخيه الانسان ، واعتداده

بكرامته البشرية ، ورغبته فى ان يكون الرجل الشجاع الباسل الوحيد ، مضرب المثل فى النقاء والطهر بين أفواج السفاحين المجانين ،كل هذه العوامل دفعت به الى الفرار من الجندية وتغليب عاطفة الانسانية في نفسه وامام ضميره على العاطفـة الوطنية

واستقر رومان رولان فى سويسرا وأخذ ينشر سلسلة رسائل يحمل فيها على الحرب ومثيريها والمنتفعين بها جمعها بعد ذلك في كتاب رائع سماه « فوق المعمعة » .

وناصر رومان رولان في ذلك الوقت الكاتب الانجليزي الاشهر برتراند رسل ولكن الفضل في خلق هذا التيار المعارض النبيل يرجع الى شخصية الاول ومكانته وحرارته النفسية وقوة عارضته وايمانه بما يدعو اليه .

ومنذ تلك اللحظة الرهيبة ورومان رولان يحلق في سماء الادب الاوربي كممثل لعظمة الفكر وحريته واستقلاله وكرسول للسلام والاخاء العام .

ولا ينبغي أن يفهم القارىء مما تقدم أن رومان رولان بدعوته الى الانسانية يدعو الشعوب المستعبدة الى انكار وطنيتها والكف عن جهـادها والاستسلام للغاصب يسومها الخسف والعذاب، كلا ،إذ هو يحارب الاستعمار أينما وجد ويحمل على أنصاره ولو كانوا من الفرنسيين مواطنيه ولا ينفك ينشر الرسائل والكتب يفضح بها دسائسهم ويغري الشعوب المهضومة الحق بالسعى للتحرر من نيرهم الثقيل. فعندما قامت الحركة الهندية واشتدت مقاطعة البضائع البريطانية في الهند وفتكت السلطات بالمتظاهرين الابرياء وشعرت الهند بأنها فى حاجة لمن يسمع صوتها الجديد الى أوربا والعالم ، انبرى رومان رولان للدفاع عنها وتأييد حركتها فوضع كتابه المشهور عن المهاتما غاندي

وعند ما قامت الديكتاتورية في بولونيا واستبدت بأحرار الفكر أسرع رومان رولان بتجريد قلمه ضد الاستبداد والطغيان .

وعندما عصفت ديكتاتورية الجنرال بريمودي ريفيرا بالحياة العامة في اسبانيا وأنزلت باحرار الفكر أيضاً شرضروب الهوان فشردت منهم من شردت وفتكت بمن فتكت ، رفع رومان رولان صوته الجهير فى وجه الظلم وجعل ينشر المقال تلو المقال يفضح فيها أساليب الديكتاتور الاسباني ويحث الحكومة الفرنسية على قبول مهاجرى الاسبان الاحرار في بلادها وحمايتهم وتوفير أسباب الراحة لهم وتمكينهم من الاعراب عن آرائهم الحرة ضد الديكتاتور وسياسته .

وعندما اضطرمت في الهند الصينية منذ بضعة أشهر تلك الثورة الوطنية العنيفة ضد الاستعمار الفرنسى حمل رومان رولان على حكومة بلاده وانتصر للوطنيين ولفت أنظار العالم قاطبة الي الفظائع التي كانت يرتكبها هناك الحاكم بسكيه الفرنسي

وعندما اقتحمت اليابان الاراضى الصينية وهاجمت شعباً ضعيفاً وبسطت أجنحة استعمارها على منشوريا وهزأت بعصبة الامم وبالعرف الدولى ثارت ثائرة رسول الحرية والسلام فاتهم فرنسا بممالأة اليابان على سياستها واتهم أصحاب مصانع السلاح الفرنسية بتوريد الذخائر الحربية الى اليابانيين واتهم عصبة الامم بالخضوع لدكتاتورية الدول الكبرى وبالعجز عن توقيع أية عقوبة على الدولة المعتدية ثم حذر الساسة من العمل بهذه الكيفية على القضاء على هيئة العصبة وبالتالى على فكرة السلم . والواقع أن كل جهاد في سبيل الحرية والعدل والسلام يجد في رومان رولان نعم الداعية ونعم النصير . فهو الشخصية الادبية التي تمتاز في هذا العصر بسلامتها ونبلها وبعدها عن الغرض والمصلحة وانقطاعها لخدمة الناس بصرف النظر عن قومياتهم وجنسياتهم مادامت تجمع بينهم جامعة العذاب والاضطهاد .

والرجل فوق هذا كاتب من أبلغ كتاب عصرنا أسلوبا وأغزرهم مادة وأعمقهم فكراً وأقدرهم على الهاب العواطف والميول ، يمزج في أسلوبه روح النثر بالروح الشعرية المتقدة وتتدفق عباراته فى تيار موسيقي هادر ساحر يحملك على موجه ويسمو بك الى حياة مثالية رائعة .

ومبادىء رومان رولان نلمحها في مقالاته كما نلمحها فى قصصه . فسيادة الفكر

وكرامته واستقلاله يلمسها القارىء في روايته الكبيرة « جان كريستوف » ،وتمجيد الحرية وتقديسها هما مادة رواياته المسرحية التي وضعها عن الثورة الفرنسية،والرغبة في تحقيق العدل الاقتصادي والدعوة الى تمجيد العمل باعتباره القوة الوحيدة التى تخلق شرف الانسان وشخصيته ، هى العناصر التى تتألف منها قصته الاخيرة « النفس النشوى »

فانت تري من ذلك أن الرجل أديب انساني بالمعني الصحيح لا يعيش لبيئة محدودة أو لعصر معين ، بل لمثل أعلى يغمر العالم ويتصل بالابد .

وهذه النزعة الانسانية الجريئة الحرة المتوهجة فى جميع أعماله كجوهرة نادرة هي التي اكسبته ذلك النفوذ الادبي العظيم ، وهى التي قدرتها فيه أكاديمية ستوكهولم عند ما منحته بعد الحرب جائزة نوبل .

هنري دي منترلان

في فرنسا اليوم نهضة أدبية متعددة النواحي مزدهرة الفروع تشمل القصة والمسرح والشعر والفلسفة وتبدع من هذه الانواع أعمالا طريفة لاتمت لافي شكلها ولا في جوهرها الى أدب ماقبل الحرب بسبب

ومن الروائيين الفرنسيين المعاصرين الذين جددوا فن القصة وأحكموا الصلة بينها وبين روح العصر الحاضر واستطاعوا بما وهبوا من تفوق ونبوغ أن يخاطبوا الشعب عن عواطفه الراهنة واحساساته اليومية السائدة «هنري دي منترلان» أقدر أدباء الشباب في فرنسا اليوم وأخصبهم خيالا وأقوامهم أسلوبا وأقربهم الي التعبير عن حياة القرن العشرين

كان معظم أدباء فرنسا يميلون في الفترة القصيرة التي تقدمت الحرب الى دراسة الميول والاهواء الغرامية وتحليل حوادث العشق التي تقع في محيط الاسرة وتجمع بين الزوجة والزوج والعشيق تحت سقف واحد. فكان طابع الادب إذ ذاك هو طابع الفضيحة البيتية وما يترتب عليها من فواجع وكوارث تصيب ذلك الثالوث الملعون وتنقض في النهاية على رؤوس الاطفال الابرياء المساكين

وكانت هذه الظاهرة شائعة في المسرح الفرنسي وممثلة في أعمال كبار كتابه كهنري باتاى وهنري برنشتين وموريس دوناي وجورج دي بورتوريش وأضرابهم.

وكانت شائعة في القصة أيضاً وممثلة في بعض أعمال بول بورجيه وهنري بوردو ومن نحا نحوهما مما أثار سخط طائفة من الادباء الاحرار كاناتول فرانس وورومان رولان وهنري بربوس الذين هاجموا ذلك العارض المرضى أشد مهاجمة ونادوا بوجوب ابداع أدب جديد واسع الافق جم الحيوية يتناول بالبحث والتصوير شتي

العواطف ومختلف المعضلات الاجتماعية .

ومضي أناتول فرانس في طريقه يصب في القصة روح الفلسفة، وأخذ رومان رولان ينقد المجتمع الفرنسي في رواية «جان كرستوف» ويرتفع بها عن مستوى الموضوعات الشائعة ويرسم فيها حياة رجل عبقري ، وانطلق هنري بربوس يبحث عن نفسه ويدرس المشاكل الاجتماعية القائمة ويتهيأ لنزول ميدان الكفاح السياسي والاقتصادي مدافعاً عن المباديء الاشتراكية ، ثم جاءت الحرب ومضت فقلبت الاوضاع وزعزعت التقاليد واطلقت الغرائز من عقالها وطوحت بالاخلاق وخلفت وراءها سلسلة من الازمات المالية والاقتصادية ضاعفت الفوضى الخلقية والاضطراب النفساني. وكان ان شعرت بهذا الانقلاب اعمق شعور وأبلغه تلك الدول التي خرجت من الحرب مهزومة كالمانيا او التي خرجت منها فريسة الثورات كالروسيا. وشاهد العالم اذ ذاك الحركة الادبية والفكرية في المانيا تصطبغ بصبغة روحانية شرقية أسيوية وتحاول على يد المفكر والفيلسوف الكونت هرمان كايزرلينج أن تستعين بروح الفلسفة الهندية على انعاش الاخلاق والعقائد والاداب الالمانية والاوربية المتداعية

ثم تطورت هذه الحركة واتجهت شيئا فشيئا نحو الاجتماعيات ولما أن عصفت الازمة بالبلاد الالمانية ونشأت عنها العطلة وجدت في ليوناردو فرانك ولدويج ران أدباء اجتماعيين اجتهدوا في بحثها وتحليلها واخضاع الفن الادبي لمعالجتها وتصوير نتائجها .

أما في روسيا فقد فرض الشيوعيون أنظمتهم على البلاد فرضا وكان من جراء هذا ان ارتفعت الاصوات منادية بوجوب خلق أدب شيوعي جديد يتفق والانقلاب الاقتصادى الذى وقع

وحدث في انجلترا أن الجهود العظيمة والتضحيات الكبيرة التي قام بها الافراد في أثناء الحرب اكسبتهم ضربا من الحرية الفرديه المتطرفة وأوجدت فى نفوسهم

نوعا من التمرد على الحواجز الخلقية التقليدية والافكار والمبادىء الطهرية المشهور بها الشعب الانجليزي فكان أن تغلبت النزعات الحرة على الادب والفكر، واقبل شباب أدباء الانجليز يعالجون فى صراحة مروعة تلك الموضوعات الخاصة بالمسائل الجنسية التى كان ينفر الخلق البريطاني من المكاشفة بها لفرط رجعيته ومحافظته وتمكن الروح الطهرية البروتستانتية منه . وظهر اذ ذاك الروائي لورنس وتقدم في جرأة نادرة وفى عدم اكتراث ملؤه التحدى وجعل يضع القصص الدائرة حول الموضوعات الجنسية وحدها وحول ما تحدثه الغرائز الجنسية الخفية من تفاعلات خطيرة فى الآداب والاخلاق

وظهر فى فرنسا فكتور مرجريت واشتهر بكتابه « لاجرسون » ولكنه كان يرمي بهذا الكتاب لا الى دراسة الغرائز الجنسية بل الى رسم التدهور الخلقى الذي أعقب الحرب والدعوة الي ضرورة ايجاد أخلاق وآداب جديدة تتفق والاحساس الشديد بالحرية الشخصية الذي تأصل في النفوس عقب تلك الحرب

ولكن فكتور مرجريت لم يخلق مدرسه أدبية ولم يؤثر في كتاب الشباب الفرنسيين قدر تأثير لورنس في الحركة الادبية الانجليزية وفي كتابها الشبان فظلت فرنسا حافظة توازنها . وكما استطاعت من الوجهة الاقتصادية أن تتغلب على أزمة الفرنك وتقر النظام فى حياتها السياسية وتمضي في مشروعات البناء والتعمير، استطاعت من الوجهة الادبية والثقافية أن تضبط نزعاتها الفكرية ولا تميل مع الافكار المتطرفة وتقي الادب شر الاسراف فى معالجة المسائل الجنسية وتبقيه بمعزل عن المشاكل السياسية الكبرى. وعليه فليس في فرنسا اليوم أدب جنسى أو أدب اشتراكى أو أدب فاشي كما هى الحال فى انجلترا وفي روسيا وفى المانيا وايطاليا ولكن فى فرنسا أدب انساني يبحث ويرسم الانسان الابدي بصرف النظر عن النزعة الجنسية العارضة وعن المذاهب السياسية والاقتصادية . وليس معني هذا أن محاولات ابتكار آداب جنسية أو اشتراكية أو فاشية لا وجود لها في فرنسا

البتة . كلا اذ هناك طائفة كبيرة تعنى بهذه الاداب ولكن المهم أن ليس بينها عبقري قد تفوق في احدها بحيث استطاع أن يطبع النهضة بطابعه أو يخلق مدرسة كبيرة تردد جهودها صدى دعوته

فاذا كان الادب الفرنسي لم يتجدد في مجموعه من هذه الناحية فقد تجدد ولا ريب من ناحية أخرى وهذه الناحية هي العاطفة البشرية وما يمكن أن تلقح به من نزعات روحية طريفة تكبح جماح الاضطراب الخلقى السائد وتتجه بالفرد نحو الايمان بقيم معنوية جديدة تحدث في نفسه الحائرة بفعل الفوضي الراهنة رد فعل منشط طيب بعيد الاثر

ولقد تمكن الكاتب الشاب هنرى دى منترلان من ابتكار تلك القيم المعنوية الجديدة التى تتفق واحساس أبناء هذا الجيل وما هم فى حاجة ماسة اليه

فهنري دي منترلان يقدس الجرأة العضلية، والجرأة الفكرية، والجرأة العملية ، ويشيد على هذه الدعائم الثلاث بناء فلسفته . وهو يمجد الجسم البشري الوثيق التركيب ،المتسق الخطوط ،المنسجم التقاطيع ،المتين العضل في رشاقة ومرونة وعظمة ترجع بنا الى عهد الاغريق .وهو يمجد الحياة العملية الحافلة بالاختبارات المنيفة والمغامرات الخطرة والجهود الشاقة كميدان فسيح يمكن ان تتبارى فيه تلك الابدان السليمة والعقول الجريئة الحرة

وهنرى دى منترلان يركز الانسان الجديد على قاعدة العضل ،ويرى الجمال الجديد فى رشاقة العضل، ويدعو الناس الى الحياة الرحبة المليئة عن طريق تقديس العضل .

فالالعاب الرياضية تفتنه، والجسارة والصراحة والفرح الساذج البريء وشتى فضائل الرجولة الملحوظة في ملاعب الرياضة تبهره وتذهله ، فيهلل لها ويشدو بها ويمجد أبطالها من ملاكمين ومصارعين وعدائين وسباحين وغيرهم

وهو أقدر الكتاب اليوم على وصف التواءات الجسم البشري، وتثنياته وقفزاته

ولطمانه،وما فيهذه الحركات جميعا من تفوق على الركود اليومي، وعلى حياة المصانع والمكاتب ،وعلي الشهوات الجنسية التي تذهب روعة البدن وحرارة العقل وتحيل الفرد عبداً لانانيته وعبداً للمرأة وعبدا للكذب والنفاق والجبن والتأمل الاجوف والحلم الباطل وسائر العواطف الوضيعة التي تلازم الشهوة عادة وتقترن بها.

ويستخدم منترلان في تمجيد الرياضة أسلوبا متوترا كالعضل المشدود واستعارات خلابة مباغتة جريئة جرأة ضربة الملاكم قبيل النصر ، وكل هـذا في تدفق شعرى موسيقي يعيد الى الاذهان تدفقات فاجنر مع شيء من الاتئاد يتلاءم ورصانة الحركات الرياضية وما فيها من ثقة معتزة هادئة

فمرونة العضل وجرأته وجماله هى الحافز الاكبر فى نظر منترلان لمرونة العقل وجرأته،ولمرونة الفرد في حياته العملية ،وفي اقتحامه الاخطار وتذليله العقبات وارتقائه ذروة البطولة التى تجتمع فيها آخر الامر فكرة الجمال الامثل.ومن البديهى ان هناك طائفة من رجال الفكر تشعر بتلك الجرأة الفكرية دون ما حاجة الى قوة عضلية فذة ولكن منترلان لا يخاطب تلك الطائفة التى تدافع من خلف المكاتب عن افكار ومبادىء ونظريات . ولكنه يخاطب رجال العمل ورجال المغامرات ورجال الفنون وسواد الناس وكل من يتصل بالحياة الواقعة أويرغب فى الاتصال بها اتصالا مباشراً بغية إخضاعها لحكمه واذلالها لمشيئته والتمتع بما يكنه صدرها من حقائق جديدة ومنافع جديدة وألوان جمال لاتحصى

فتقديس البدن القوي الجميل يؤثر في نفوسنا ويدفعنا الى تقديس العقل القوي الجميل.وهذه القوة وذلك الجمال لابد ان ينعكس طلبهما في أعمالنا وتصرفاتنا فنحس عظمة الاباء والشمم ونعتاد الاقدام والمخاطرة ونكيف جهودنا الجريئة وفق روح التناسب والتماسك والانسجام المشتملة عليها أجزاء جسمنـا القوي وعقلنا القوي بحيث يتمثل فيها معني الجمال الذى يجب ان تتوج به حياتنا . فحيثما وجدنا الخطر ينبغي ان نسعى اليه ونبذل قصارانا في التغلب عليه أونموت دونه ، وحيثما

وجدنا الحقيقة محجوبة مظلمة ينبغي ان نشق ظلامها ونهتك حجابها أو نذهب ضحية لها،وجدنا الطبيعة وحشية معاندة ينبغى ان نتحداها ونجرد سواعدنا لترويضها ونستخدم أبداننا القوية وعقولنا القوية في هذا الترويض كي نخلع على الطبيعة نفسها فضائل قوانا العضلية والفكرية أي المرونة والرشاقة والبساطة والسرعة والتناسب والنظام والجمال. ولكي يحس هنرى دي منترلان لذة الجرأة العضلية ولذة الرشاقه الفكرية ولذة التفوق على الطبيعة تراه يترك القلم ويهجر المكتب ويهبط ملاعب الرياضة ويشترك في حياة الرياضيين ويلعب الكرة ويلاكم ويسبح ويمارس أشد التمارين صعوبة وأخطرها على الحياة

ولقد ادرك فى النهاية أسرار الفنون الرياضية جميعا فلم يسترح اليها وأراد أن يستزيد عليها الطريف الهائل فرحل الى اسبانيا وخالط مصارعي الثيران وتتلمذ عليهم ولما خيل اليه انه حذق فنهم هبط الملعب وشاركهم فى صراعهم فجرح وكاد يموت. وهو باستهدافه لمثل هذا الخطر يود أن يرمز فى شخصه الى خلاصة فلسفته ويود أن يعلمنا عن طريق حب الرياضة كيف نطبق فضائل الجرأة والقوة والبطولة والنظام على الحياة

وخير ما نختم به هذا المقال تلك الكلمة التى قالها المارشال هندنبرج منذ بضعة عوام بعد أن طالع قصتين لمنترلان هما «الحلم» «والجنة تحت ظلال السيوف» : «لو كان فى المانيا اليوم خمسة كتاب كهنرى دي منترلان لعادت أقوى وأعظم مما كانت عليه أيام بسمارك !»

كاترين مانسفيلد

لو سألتني أيها القارىء من سيدة أديبات هذا العصر اللواتى قرأت لهن لأجبتك على الفور هى كاترين ما نسفيلد

وأنا ان حدثتك عن كاترين ما نسفيلد فانما احدثك عن شخصية كاتبة عظيمة ، عاشت من أجل فنها وماتت فى سبيله وهى فى شرخ الشباب .

ماتت ولما تبلغ الرابعة والثلاثين ولـكنها في تلك الحقبة الصغيرة ما بين يقظة عبقريتها ومقدم الموت قد استطاعت أن تظفر بكل ما تمنحه الحياة لمحبيها الاوفياء الصادقين . وكان قد أصابها داء السل وظل يطاردها فهامت على وجهها من مدينة الى مدينـة ومن مصح الى مصح حتي استقر بها المطاف فى ضاحية من ضواحى فونتنبلو بفرنسا فماتت هناك ودفنت فى قبر يقول بعض من حج اليه أنه ضئيل متواضع مقصي لا تكاد تميزه العيون

ولدت كاترين ما نسفيلد عام ١٨٨٨ فى زيلندا الجديدة . ثم هجرتها الى لندن وهي فى الثالثة عشرة من عمرها ثم عادت اليها وهى فى الثامنة عشرة أشوق ما تكون الى حياة الحرية .

لم تألف سكنى البيوت ، وخدمة الاقرباء ، وكان فقرها ونبوغها يدفعان بها للتحرر من سيادة الغير وتجربة حظها بمفردها فاحترفت شتى المهن وكانت ممثلة ومغنية ومعلمة . . .

أرادت أن توازن بين قواها وقوى القدر فغالبت الفقر ما استطاعت واحتملت من صنوف التعب والالم والتقتير ما مهد للعلة فى صدرها ومكنها منها فهرعت الى مصح فى المانيا وهناك استضاء عقلها بغتة واضطرب فيهـا استعدادها الحقيقى كما يضطرب الجنين فى أحشاء أمه فشرعت تكتب رسائلها الاولى

وفى عام ٩١٥ اقترنت بالناقد الانجليزى جون ميدلتون مريـ ولم تكد

تهنأ بزواجها حتي قتل في نفس العام وفي ساحة الحرب احب اشقائها اليها واخلصهم لها، فأشتدت عليها وطأة الداء فأسرعت بالرحيل الى مصح آخر فى (البروفانس) وهى لا تدري أن لم يبق لها فى فسحة العمر غير ثمانى سنوات !

وكان السل ينخر رئتيها ويأخذ بمخنقها . وهى مع ذلك تكتب . تكتب غير حافلة لا بالالم ولا بالموت . وهى فى رسائلها الرائعة تصف لنا كيف كان يطوف الموت بها ويزعزع جسمها ويفتن فى اعتصار قواها . وكيف كان عقلها المتوقد يلاحظ كل ذلك ويجاهد ولا ينفك يتصور ويفكر وينتج .

ودام هذا الصراع بين الفن والموت عدة سنوات لم تكف كاترين ما نسفيلد في خلالها عن الكتابة قط . بل جعلت تسكب فى رسائلها وقصصها خلاصة أفكارها وصفوة تجاربها وأحلامها .

وها أنا أقلب الان هذه الرسائل وأعيد تلاوة البعض منها فأدهش لتلك الروح الملائكية المرفرفة على صفحاتها ، وكأنى بالداء العياء قد زاد مشاعر الكاتبة لطفاً وأعصابها دقة ، وبصيرتها اشراقا ، فاستطاعت أن ترى كل شيء ، وتعجب بكل شيء ، وتفطن لسر الجمال المودع فى أبسط شيء

انها تندمج فى جزئيات الكون اندماج الصوفى . فالزهرة المترنحة فوق أصيص نافذة تفتنها وتخلبها وتبعث فى ذهنها اروع الخواطر والاحلام ، ومجرد حديث تافه مع خادمة يميط لها اللثام عن عواطف عديدة وخلجات نفسية خفية واحساسات تفيض بالالم تارة واخرى بالفرح الدافق العميق .

والظاهرة البارزة فى كاترين ما نسفيلد هى انها لا تعيش متصلة بالاشياء والاشخاص فقط بل تعيش معها و بواسطتها، يسرى عليها ما يسرى على ما يحيط بها من مختلف عوامل الحياة .

والسر فى هذا الاتصال الدائم هي قوة الحب التى كان يزخر بها قلب تلك المرأة.
فكأن القوة التى تسربت من بدنها المضمحل قد احتشدت في قلبها واستحالت الى حب وسع كل شيء !

فاستمع اليها تقول فى عرض خطاب لها :

« انى لأحس ان بى حاجة للحياة فى الحب . فى حب كل ما يقع عليه بصرى. اود ان انفذ الى باطن كل شيء فى قدرة وصدق وعمق المحبين »

هذه القدرة على الحب برغم الألم هى الوحى الذى اهتدت به الكاتبة فى تصوير مفاتن الطبيعة ومعرفة دخائل النفوس . فقد كانت تنكر ذاتها أمام الجمال وتتواضع للحقيقة وتستقبل الناس بقلب مفتوح وهكذا أحبت الطبيعة فكشفت لها الطبيعة عن أسرارها

لقد برعت كاترين مانسفيلد براعة فائقة فى وضع القصص الصغيرة لا سيما فى كتابيها « المقدمة » و « النعيم »

أما فنها الروائى فقائم على الحلم يغمر القصة وأشخاصها ولا يتعارض والواقع بل يهيىء له و يقترن به ويكمله . وهذا الحلم الشائع فى قصصها هو ذلك الضباب الروحى المنعقد فى جو كل نفس انسانية والذى ترى الكاتبة أن لا بد من تصويره والا جاءت شخصيات أبطالها أجساما بلا أرواح .

فهى ترسم الجسم فى أهم مظاهره البارزة ثم تلفه فى ذلك الضباب الحالم فتحس لفورك أن الروح قد نفخت فيه

ولقد كانت هذه طريقة الروائى الروسى الشهير انطون تشيخوف ولكن ما تمتاز به كاترين مانسفيلد عن تشيخوف هو أن ذلك الضباب أو الحلم يمتد بك الى آفاق بعيدة من التأمل الفلسفى ويصور فى الأشياء او الأشخاص كل ماه و مودع فيها من شعر غامض ساحر غريب

وفوق هذا فقد كان تشيخوف يرى أبطاله بعين بصيرته وعقله المتشائم . وكان وهو يرسمهم يسخر منهم سخرية خفيفة ملؤها المرارة والأسى أما كاترين مانسفيلد فتراهم ببصيرتها وتحبهم بقلبها وهذا الحب هو مبعث شاعريتها وسرها

ومن آرائها فى الفن هذه العبارة المأثورة :

« ليس العقل فى العمل الفنى إلا عبد الروح واداتها · فالروح هى السيد

ولكنى لا أرى عند معظم الفنانين غير العبد ... وهذا العبد جميل ولكنه يفتقر الى سيده . والحياة الصحيحة الكاملة لا تتمثل الا فى اقتران السيد بالمسود أى الروح بالعقل . والفن العظيم هو فى ايجاد التوازن الكامل بين الاثنين »

وهناك ظاهرة غريبة أخرى نلمسها فى قصص كاترين مانسفيلد وهى أنها محكمة الصناعة دقيقة التخطيط وثيقة التركيب مما يدل على جهد صاحبتها الشاق فى وضعها.

و برغم هذا الجهد فقد كانت المرأة مغتبطة . كان اقدامها على الجهد سعادة . كان عملا من اعمال الفرح والحب دفع بها لكتابة هذه الكلمة الخالدة :

« انى اكتب كما لو كنت ماضية فى الضحك »

كانت تحس الرغبة فى الضحك بينا السل ينهش جسمها

وهكذا تشفق الطبيعة علينا وهى تتهكم بنا .

تطعننا فى الصميم ثم تلوح لنا بطيف جميل يحجب عن أنظارنا ظلمة القبر المروعة.

ومن خصائص كاترين مانسفيلد ذلك الصدق التـام فى التعبير عن الميول والاهواء .

فهى لا تموه على نفسها العواطف الكبيرة ولا تفتعل الاحساسات العظيمة الصاخبة أي انها لا تنظر الى الأدب كصناعة قائمة على التهو يل العاطفى فى سبيل إحداث اكبر تأثير ممكن فى نفس القارى بل تعبد البساطة وتنشد الا تزان وتعلم أن الصدق فى تأدية الميول أبلغ فى التأثير من مختلف ضروب الصناعات اللفظية مجتمعة .

و كما أن فنها القصصى يعلمنا القدرة على الحب كذلك هو يعلمنا كيف أن الصدق فى الاحساس ، والصدق فى العمل، والصدق فى التعبير ، خير طريق لمعرفة الحقيقة عن أنفسنا وعن الغير .

أما الأعوام الأخيرة من حياة الكاتبة فجديرة بالرحمة والرثاء .

فهى تشكو الضعف وتشكو الفاقة ولا حيلة لها فى دائها ولا مال .

وهى وحيدة شريدة ترتاد المصحات والابتسامة الهادئة لا تفارق شفتيها والحلم

الباطنى لا يزايل عينيها ، وخلقها الساكن لا يعكر صفاؤه أى تبرم بالناس أو أى سخط على القدر .

فاذا ما التقت بصديق عابر وخاطبها عن دائها وفنها انكمشت وتراجعت وانطوت على نفسها وآثرت ألا تفضى بدخيلة همها إلا لمن تستوثق من حبه لها واهتمامه الصادق بها .

وحتى فى حديثها مع أخلص أصدقائها كانت تحتفظ بشممها وابائها فلا تكاشفهم بحقيقة أحزانها مخافة أن يشفقوا عليها فتقوض هذه الشفقة آخر ما تبقى لها من كرامة وشجاعة تتحدى بهما الموت وتستطرد جهادها الفنى .

وأنت ايها القارىء فى وسعك أن تتصور ما انتاب احساس هذه المرأة من العذابات والآلام فهى تحب الناس وتخشى أن تصارحهم بهذا الحب ، وهى تود أن تتكلم عن نفسها فيمنعها تواضعها وحياؤها الفطرى . وهى ترغب فى رؤية الوان متعددة من الشخصيات البشرية ومرضها يحبسها فى المصحات ، وهي تريد أن تفهم الغير ولا سبيل الى مخاطبتهم فى استفاضة ودراسة وشرح وتحليل .

فهي مرغمة إذن على الاكتفاء بالصور العابرة ، والكلم العارضة ، والوجوه الزائلة ، مرغمة على معرفة الحياة بواسطتها فقط . وهذا منتهى ما يصيب الفنان فى حياته الفنية من ألم إذ الفن كالعلم كلاهما يقوم على الرغبة الجنونية فى المعرفة

ولكن الفنان العظيم له من بصيرته ما يستعيض به عن المعرفة المباشرة

وبصيرة كاترين مانسفيلد كانت من التوقد والاشراق والحدة بحيث أن حادثة بسيطة أو نبتة جميلة أو طيفا ساريا كان يمزق الغشاء عن عينيها ويكفيها لتخيل أعمق أسرار الكون واثباتها فى قصصها على حقيقتها .

ونحن اذا أضفنا الى ذلك قدرتها على الحب أدركنا كيف استطاعت أن تقرن تصوير الحقيقة اليومية بما فى الحياة من شعر حالم أبدى !

آدا نجرى

يعرف الأيطاليون بحدة المزاج واتقاد العاطفة والولع بالمبالغة والاستسلام عن طيبة خاطر للذة الطيش والنزق والخيلاء .

والفارق بين الايطالى والفرنسى – وكلاهما لاتينى النزعة – ان الأول يمضى فى مبالغته غير محتفل . أما الثانى فلا يكاد يشعر انه قد أسرف فى الركون الى عواطفه وابتعد عن الواقع المحسوس حتى يثوب توا الى رشده ويستعين بقوى عقله على تهزىء نفسه والتهكم بها وتعييرها وحبس انفعالاتها ما استطاع فى دائرة المنطق السليم .

وأثر المبالغة واضح في الأدب الايطالى كما ان اثر المنطق واضح فى الأدب الفرنسي . والأدباء الايطاليون بوجه عام اميل إلى الفن (الرومانتيكى) القائم على تغليب العاطفة على العقل من زملائهم الفرنسيين . وأنت عبثاً تحاول ان تعثر في تاريخ الأدب الفرنسى كله على قصصى كجبرييل دانونزيو يرسم لك شخصيات خيالية تحركها العواطف والشهوات والأحلام الشعرية فحسب . أو على شاعر كمارينيتى ينكر أدب الماضى بتاتا ويسلم عقله لحكم الساعة وينقل الشعر من محيط الوجدان إلى محيط الميكانيكيات ولا يتغني الا بالقطارات والطيارات وناطحات السحب ومختلف مظاهر السرعة والتفوق المادى الحديث .

وليس معنى هذا أن الأدب الفرنسى خلو من العواطف المشبوبة او النزعات الحديثة المتطرفة ولكن المثل الاعلى للأدب فى نظر الفرنسيين هو ضبط النسبة بين العاطفة والعقل . وهذا سر إعجابهم بشاعرهم (راسين) الذى يرون فيه رمز عبقريتهم .

ومما لا ريب فيه ان هنـاك طائفة كبيرة من أدباء فرنسا لا تعترف بضرورة إجراء التعادل بين العقل والعاطفة فى العمل الأدبى . كما ان ثمة طائفة كبيرة من ادباء الايطاليين لا تقر سيادة العاطفة على العقل . ولكن هذا التقسيم على ما فيه من تعسف يرشدنا الى الظواهر الأكثر بروزا فى كل من أدب الأمتين اللاتينيتين.

وانا لم امهد لهذا المقال بهذه المقدمة إلا لا تحدث عن شاعرة إيطالية معاصره خرجت بفنها على تقاليد عنصرها وأفرغت صفوة جهودها فى سبيل التوفيق بين عواطفها المحتدمة وبين ارادة عقلها الصارم فى تحرى الحقائق النفسية البعيدة التى تمس جوهر شخصية المرأة وخصائص انوثتها من ناحية ، ومتعدد الوان الحياة من ناحية اخرى.

نشأت (آدا نجرى) فى اسرة شعبية ذاق افرادها من مرارة البؤس ما هذب طبائعهم ولطف مشاعرهم وحلاها بأسى مخامر كظيم وعلمهم فضائل الصبر والاحتمال والمقاومة ، وأحالهم فى الوقت نفسه عبيد العمل اليومى الشاق .

كانت الأم عاملة فى مصنع . وكان لهـا ولدان ربتهمـا بعرق جبينها ، وكد ساعديها ، وحنان قلبها ، وازدرائها ملذات الصبا ، ودأبها على التضحية الـكاملة فى غير تبرم أو كلال .

وكان من عادة الولدين عقب تناول العشاء ان يهرعا الى امهما ويجلسا حولها صامتين خاشعين يتطلعان اليها بعيون شاخصة قلقة فتأخذ الوالدة فى سرد حكاياتها الغريبة بين ملاحظات (آدا) ومراجعاتها ولهثاتها وتهليلها الصبيانى البرىء . وكانت للأم قدرة فائقة على تنميق القصص وكلف بالألم والمتألمين . تتخير من حيـاة العمال اروع الحوادث وافجعها وادلها على الشقاء ، وتفتن فى عرضها وإبراز تفاصيلها والتعليق عليها ، كأنما كانت تجد لذة عظيمة فى اضافة ألم الآخرين الى المها الخاص..

وهكذا شبت (آدا) وترعرت وفى نفسها ابلغ الاثر من اخلاص امها واقدس الاحترام والحب لها ، لا تنفك تذكرها وتذكر حكاياتها وما كانت تولده فى المخيلة من صور وأشباح متلوية صارخة اقترنت بعهد الطفولة الساحر .

واحترفت آدا نجرى مهنة التدريس ردحا من الزمن فى قرية صغيرة من قرى لومبارديا . وانصرفت الى العنـاية بتلاميذها انصراف حب مبعثه الرغبة الملحة فى الأمومه . واطمأنت الى هذه الحياة وانحنت تقرأ فى جباه الأطفال وعيونهم ما يعتلج فى اعماق نفوسهم من عواطف غريبة . فخامرها مثل ما يخامرهم من ميول واهواء ساذجة حرة لا تعرف الخوف ولا النفاق .

ففي ضوء طلاقة الاطفال ومراحهم وفي ذلك الجو المتشابه المتواضع الرقيق، استفاقت شاعريتها فنظمت ديوانها الأول (القدر) وهي ما تزال بعد في ربيعها العشرين.

وكانت قد صاغت من مادة حياتهـا الحاضرة ومن ذكريات الطفولة الغابرة ورجع اصداء حكايات الأم، مادة شعرها البسيط الصافي المتدفق من قلبها تدفقا ينم عن نبوغها الطبيعي الاصيل.

وأتبعت ديوانها الاول بآخر اسمته « العواطف » تجلت فيه نزعة الألم والرحمة التي ورثتها عن والدتها.

ولقد طالعت في بعض المجلات الفرنسية عدة منتخبات منقولة عن هذا الديوان وإذا بي حيال امرأة تشعر أعمق الشعور وأتمه بحيـاة الشعب وترسم لنا بريشة رخوة عذبة، مختلجة كأجنحة طـائر معذب، بضع مآس شعبية تعبر عما يضطرم في صدور العامة من ثورة وما يحسونه من فاقة وشقاء.

وليست دقة الوصف هي التي استهوتني في تلك القصـائد ولـكنها الحمـاسة الباطنية المحتدمة، والاكبار من شأن الشعب، واجلال الطيبة والرحمة، والانتصار المطلق للمنكوبين والفقراء. على أني تبينت فوق هذا أن آدا نجري تخص بعطفهـا الفقير العامل وتحرم منه المترف العاطل الكسول بل هي تحقد بطبعها على كل عاطل يعيش عالة على سواه ويستلب جهود غيره ويرى في حيـازة الثروة أو المجد غايته القصوى.

ومن هذه الناحية تبدو لي آدا نجري كأولى الشاعرات اللواتي جعلن من حياة الشعب العامل مصدر حب وإلهـام وفن يشعرنا بما فيه من عظمة رابضة وقوى هائلة متحفزة ويمهد لحكمه في المستقبل القريب أو البعيد ...

أما شعر آدا الغزلي فمجموعة عواطف تسبح هي الأخرى في محيط الألم لا شيء هنا من فرح المحبين وجنونهم وعبثهم بالحياة وفوزهم عليها وانتهابهم لملاذها. بل أنوثة محطمة حزينة تفكر في الناس أكثر مما تفكر في نفسها، لا يكاد يسعدها القضاء بساعة حب واحدة حتى تستنشف قرارتها وتأتي على آخرها وتشرف

على ما بعدها ، فتبوء بالخيبة والحسرة ، وعندئذ تتمثل لها آلامها وآلام النساء جميعا ممن آمن بالحب فغدر بهن ، ووهبنه حياتهن فسخر منهن ، فأمسين وحيدات منبوذات مشردات تنقضي أعمارهن في التحرق على حب مضى أو على حبيب صارعن من أجله القدر فلما حظين به ، عدا عليه الموت فلم يبق منه الاذكرى تطفو لحظة ثم ترسب في جوف الزمن !

وكان ما طالما صبت اليه آدا فتزوجت وأصبحت أما وأصدرت ديوانها الثالث « الامومة »

وهذا الديوان علي ما فيه من افراط عاطفي يحجب في بعض الاحايين صدق العوامل النفسية ويشوهها ، لا تزال مقطوعاته المتصلة بأحساس المرأة كزوجة وأم أبدع مثال للشعر الناضر الحي الشبيه في بساطته العظيمة ببساطة غريزة النوع التي خلقته

وأنا لا أعرف بين شاعرات هذا العصر من أسمعننا شدو الامومة بهذه البساطة والقوة مثل آدا نجري وتلميذتها الفرنسية مدام هنرييت شاراسون

ومرت الايام وتذوقت آدا حلاوة النعيم الزوجي وتغنت به وخلدته في شعرها ولكنها كانت قد أسرفت في ذكر خيبة الحب في قصائدها الغزلية الأولى كي يغض القدر طرفه عنها ويدعها موفورة السعادة ولا يبتليها بالذي كانت تحذره وتخشاه .

دب الخلاف بينها وبين زوجها فانفصلت عنه وهجرت ايطاليا ومكثت في ضاحية من ضواحي سويسرا حيث شغفت حبا برجل بادلها احساسها وأمتعها بعلاقة كاملة وثيقة صادقة لم تعكر سماءها الصحية سحابة واحدة

وكأن القضاء أبى — أبقاء على شاعريتها واضراما لنارها الخابية — الا آن يسمها بميسم اللعنة ويطعنها في حبة قلبها، فأعلنت الحرب الكبرى وانتزع حبيب أدا من بين ذراعيها وذهب ليقتل مع من قتلوا من عشاق أولئك النسوة المنبوذات المشردات اللواتي تحدثت عنهن الشاعرة في مستهل شبابها وخلدت عذابهن وعذابها من حيث لا تدري ! .

غير أنها كانت في صباها الاول تذكر الالم كخيال فأضحت اليوم تمسه كحقيقة

نضاحة بالدماء !

كانت بالامس تأسف وتتحسر وتغمغم، ولـكنها اليوم تصرخ وتتلوى وتكاد تلتاث. واليك احدى مقطوعاتها التى نظمتها عقب موت عشيقها وأسمتها «الجنون»:

سقطت الورقة على الارض وهزت رجفة قلب الشجرة !

هو أنت من يدعونى !

أري عيوناً خفية تخترق الظل وتنفذ كمسامير فى حائط !

هو أنت من ينظر الى !

أشعر بأيد خفية تحط على كتفي وتدفع بى نحو ماء البئر الراكد !

هو أنت من يشتهيني !

أن الجنون ليسرى فى سلسلة عظامى المجلدة بارتعاشات صامتة شاحبة ويتصاعد الى عقلى !

هو أنت من ينقذنى !

لقد فارقت أقدامى الارض ورفرف جسمى فى الهواء وطوح بى دوار مظلم !

هو أنت . هو أنت من يحملني ويذهب بى !

وأمثال هذه المقطوعة كثير فى « كتاب مارا » وهو الديوان الذى وضعتـه الشاعرة أيام محنتها وأرسلت فيه من الصرخات الممزقة ما يدل على عظـم الآمال التى كانت تعلقها على حبها ومبلغ الصدمة التى أحست بها ومدي اتساع الهوة التى تردت فيها أحلامها .

وعاشت آدا أعواما طويلة كطيف يلوذ بطيف . تحلم بحبيبها وتخاطبه ثم تنظم الحلم والحديث شعرا هو كل ما تطمح اليه نفسها من عزاء .

وكانا يتخاطبان في القصيد فى هدأة الليل فتقول له :

إعطنى على الأقل قبلة لان بى ظمأ . بى ظمأ الى فمك يكاد يقتلنى . فيجيبها: — لم تعد لى شفاه . وان كنت تبصرينها !. . وها انا أنحل فى الهواء عندما تلمسنى أية يد ، فتقول آدا :

— ولـكن لماذا لا تبتلعنى فى جوف عدمك ؟ . الا تشفق على ؟

فيجيبها الطيف :

— يجب أن نتألم أيضاً. ونصلى أيضا . وننتظر أيضاً . ولسوف تدق الساعة !

* * *

تلك كانت حياتها وأشعارها فى هذه الحقبة من عمرها ولـكنها لم تستطع المضى فيها الى النهايه . وأى مخلوق يستطيع ذلك ولا سيما اذا كان شاعراً ؟ . .

اجل . لم تتمكن آدا من اخضاع سليقتها الفنية لذكرى فرد واحد من الناس وتصوير لون واحد من الوان الشعر يستبد بخيالها ويطرد منه سائر الالوان والصور وراءها على مر الايام ان لا بد لها من تغذية قلبها بنفس دائـه ، وخشيت ان تباعد هذه الحال الجديدة بينها وبين الحياة وتقصيها فى ظلمات الماضى السحيق فراحت تنشد نسيان حلمها وتجديد فنها باستلهـــــام محاسن الطبيعة والتغنى بمفاتن الوجود

ولاحت فى أفق حياتها بوادر الشيخوخة فابتسمت لها ورحبت بمقدمها و وطأت لها أ كنافها ورضيت من الحياة بالعزلة المرة المتجهمة كأول وآخر ملاذ روحى

ولـكن هل مثل آدا نجرى من يقنع بالعزلة بدون رسالة فكرية وعاطفية يؤديها للناس !

وهل مثلها من تستغرق الانانية قلبه وقد كان بالامس يعطف على كل بائس منكوب !

كلا ، لقد بذلت آدا جهد استطاعتها فى اعتناق رسالة تعلل بها سبب مجيئها الى هذه الدنيا وتخدم بواسطتها الانسانية جمعاء

وهذه الرسالة هى حب العمل وتمجيده والتماس الراحة والعزاء والسعادة فيه !

واليك هذه المقطوعة المقتطفة من ديوانها الاخير « كتاب الغسق »:

أحبب عملك . احتمل فى سبيله أجمل مشقة وأخفاها . هبه شمـــس أيامك وظلمة لياليك !

ينبغى ألا يصرفك عنه شيء ، لا تعب آخر ولا حب الكسب ، ولا عقيدتك المرة بأن العمل كلما كان حياً عظيما كانت سخرية أعدائك به أشد ، وصمت الجهلاء حياله أعمق ، والامل باطلا في رؤيته مقدراً ومباركا ومحبوبا !

أحبب عملك بدون غايه . أحببه لانه وحده يشبهك ، وهو وحده نعم الخلاص ونعم الحب ! .

ليون تولستوى

رجل هادىء فى الظاهر ، موفور الدم قوى الاعصاب جم الحيوية أقرب الى الفرح بالحياة منه الى التأمل الحزين فيها ، ولوع بالخمر والميسر والنساء ، لا يتورع عن اقتراف شتى المحرمات ولا يقف به مبدأ او معتقد عن الايغال فى ميوله والتمادى فى لذائذه مهما كانت العقبى ومهما كان الألم .

ذلك هو القصصى الفيلسوف الروسى تولستوى ايام شبابه

ان رقة العاطفة ، والضمير الصارم الحى ، والشعور الدقيق بالمسئولية ، لم تكن لتؤثر فيه فتيلا ولم يكن لينزع بحكم شبابه الجامح الى الوقوف بها لحظة خشية ان تعكر عليه صفو حياته وتحول بينه وبين الاستمتاع الكامل المليء بما فى الحرية القصوى والاباحية المطلقة من مناعم الجسد والروح

كان ارستقراطيا وكان ضابطاً فى الجيش وكان فى اخلاقه ذلك العبث والاستهتار وتلك القسوة المنفرة الشائعة في معظم الضباط . وكان يتألم بعض الألم السائغ البسيط لما يكتنفه من مرح وعدم اكتراث ولكن الثورة على مجتمعه الماجن الرخو لم تقم بنفسه لحظة ولم تدفع به الى التفكير فى مصيره الخاص ومصير وطنه والانسانية

غير ان العادات المتبعة فى ذلك الوسط الاستقراطى الذى نشأ فيه : حب الترف والشغف بالمظهر وعبادة المال وتقديس العرف الرجعى وحماية المعتقدات والذود عنها والتعلق بنظام روسيا الاتوقراطى الاستبدادى ، كل ذلك كان يلاحظه العبقرى الناشىء بعين فاحصة مدققة ، وغريزة فى الملاحظة عميقة الغور بعيدة المرمى .

كان تولستوي يدهش من نفسه ويعجب بعقله كيف يبصر ما يحيط به من ضعف وانحطاط ثم لا يثور على هذا الضعف ولا يتمرد

وشاع فى وجدانه ميل ممض الى الادب والفن . واستحوذ على ذهنه جشع عقلى قاس فارتمى بجمعه فى عالم المطالعة السحرى ، يقرأ القصص ويقتلها بحثا ، ويقرأ كتب الاجتماع فتصدف عنها نفسه ، ويقرأ الفلسفة فلا يلبث أن يمعن فيها حتى يخامره

الضجر وينتابه الاعياء .

وكان حبه الحياة واحساسه بهـا وهو يرسل ميوله على سجيتها دون وعى أو حساب، هما اللذان دفعا به لحب الادب وايثاره على فروع المعرفة الاخرى، اذ الأدب هو رجع صدى الحياة الداوية فى قلبه وهو صورتها الصادقة وهو رمز الحركة اليومية ونتاج الفطرة والروح .

وانكب تولستوى على كتابة القصص يعالجها فى تؤدة وجلد، لا يكاد يفرغ من الواحدة حتى يتبرم بها فيطرحها جانبا ويعاود الكرة فى صبر وعدم احتفال

أخذ ينهل من مورد الآداب الأوربية فطالع (بلزاك) و (زولا) و (ستندال) و (ميريميه) و (ديكنز) وغيرهم . ولكن طابع الادب الغربى وما فيه من منطق وصناعة وعناية باللغة باللفظ كان ينفره ويحدوه الى مراجعة التفكير فيما يجب ان يكون عليه فن القصص، وفيما يجب أن يبتكره هو نفسه من اسلوب جديد وطريقة مستحدثة يعرف بها من بين الكتاب جميعا .

وكان طبعه السلافى الحالم الوديع ، وما يرقد فى اعماق روحه الروسية من براءة وسذاجة، وما خلفته فيه تقاليد وسطه القائمة على الملق والرياء من نزعة متأبية خفية الى الصدق، وما كرهته نفسه من طابع الادب الاوربى الصناعى ، كان ذلك كله من اهم البواعث التى حفزته للتحرر شيئا فشيئا والاستقلال بفكره والنظر في وضوح الى مواهبه ' والانتهاء بفنه الى البساطة المطلقة والسذاجة العذبة وتجريد الاسلوب من محسنات اللفظ والعودة بالقصة الى روح الحكايات فى عصور الانسانية الاولى .

ولقد اولع تولستوى بالبساطة لانها تناقض روح الكلفة والافتعال الشائعة في وسطه الزائف، ولانها تريحه من اسرافه فى اتباع رذائل هذا الوسط ، ولانها تخفف عنه عبء الانتساب اليه ، ولانها تعبر عن جوانب نفسه الطيبة الخفية التى كان يسترها ما استطاع لئلا تعكر عليه صفو لذائذه ....

فتولستوى يكتب كما تقص عجوز رقيقة ذكية الفؤاد جمة الأختبارات أو كما يقص طفل قد احتشدت فى خياله صور الاشياء فهو ينثرها تباعا فى بساطة مبهمة فاتنة .

فالبساطة هي قاعدة فنه ، ورسم الاشخاص من الظاهر هو السر في ملاحة أسلوبه وسحره .

فتولستوى لا يحلل العواطف ولا يعبأ بالنفاذ مباشرة الى ظلمات الميول يطلقها من اسارها و يشرحها و يعلق عليها كما يفعل أساتذة الادب الفرنسي ومعظم قصاصي الانجليز ، ولكنه يصور الانسان أدق تصوير وأتمه، فى اشاراته وحركاته وسكناته وملامح وجهه وما يبدو على ظاهره الجثمانى من تبدل واضطراب لما تنتابه أزمة من أزمات النفس . وهذا التصوير افرط كماله وصحته يعبر تمام التعبير عما يجول فى الشخص من عواطف وأهواء ، ويفوق التحليل النفسانى قوة وتأثيراً ، ويشعرك بحقيقة الانسان وحياته بابلغ مما تشعر به لو ان تولستوي عمد الى رسم خلجاته رسما عقليا مباشرا

وهذه الطريقة أقرب الى الحياة الظاهرة من أية طريقة فنية أخرى . فنحن نعيش بالجسم اما ارواحنا فملك لنا لاسبيل الى معرفة الآخرين بها مهما حاولوا ومهما اجهدوا العقل بالشرح والتحليل

فالجسم هو مرآة الروح و بقدر ما يكون مصور الجسم عبقريا فذا بقدر ما يستطيع ان يشعرنا بما يدب فى مجاهل الروح

وكذلك كان تولستوي على انه لم يكن كلفا برسم الشخصيات الخارقة والاحساسات الشاذة ، والعواطف المعقدة ، فكانت طريقته اصلح الطرق لجوهر الحياة البسيطة التى يصورها

فهو يتوخى البساطة فى الاسلوب ويتوخي البساطة فيإختيار ابطاله أيضاً . وهو مصور النفوس العادية الشائعة ولكنه أعمق مصور لتلك النفوس . واهتداء بهذه الطريقة كتب تولستوى أعماله الفنية الخالدة مثل قصة « أنا كارنين » وهى فاجعة المرأة الخارجة على الاسرة وتخبطها بين واجب الحب وواجب الامومة ، وقصة « الحرب والسلم » وهى ملحمة رائعة لشعب يهب عن بكرة أبيه للذود عن وطنه ضد الغزاة الفاتحين ، وقصة « البعث » وهى فاجعة أخرى لرجل يحاول بكل ما أوتى

من قوة الحق والفضيلة ان يكفر عن جريمة اقترفها وراحت ضحيتها فتاة نقية مسكينة ، جميع تلك القصص تتناول أبطالا عاديين ولكن المواقف التى يضع فيها الكاتب أولئك الابطال وعمق فكره و بعد مرماه ودقة تصويره تجعل منهم ابطالا عالميين يخاطبون كل شعب فى كل زمن .

هذه لمحة عن تولستوى وعن حياته ايام الشباب . فما هو الاحساس الذى تطور بهذه الحياة ؟ وما هى الازمة الخطيرة التى بدلتها وهزت قواعدها من الاعماق ؟

كان تولستوى يخفى عارضا شديد الوطأة عليه ، يلهب دمه ، و ينهك جسمه ويفت فى أعصابه ، و يهد قواه . يحاول ان يطرده او يكبحه فلا يستطيع . وهذا العارض هو الشهوة . شهوة مكتسحة عاصفة ، تقض مضجعه ، وتؤرقه الساعات الطوال ، و يستفيق فى ظلمة الليل على عوائها المزعج فيشمئز من نفسه و يلعن مقدوره ويستشعر الضعف والاستخذاء حيال سلطان الطبيعة الغادر ، فيستنكر ويثور ويأخذ فى التفكير على الرغم منه فى علاقة الجسد بالروح ، وفى علاقة الشهوة بالارادة ، وفى علاقة الخطيئة بالحياة الاجتماعية كلها ، فيحار و يضطرب وتطمح نفسه الى البراءة الفاتنة الشائمة فى فنه ، فيعجب كيف يكون فنه مثال النقاء ونفسه مثال الدنس فتنمو فى عقله فجأة فكرة الله فيهرع اليها و يتشبث بها ويناجيها ملتمسا فيها راحة لجسمه وعزاء لروحه و سلوى

ثم تغيب الفكرة وتتبدد تحت موج الشك والسخرية والكبرياء ، فينهض تولستوى من فراشه ، و يسرع الى مكتبه ، ويحاول استطراد عمل كان قد بدأ به . ولكن جبار الشهوة يعود فيجثم على صدره و يجلد دماءه و يعذبه ماشاء له جسمه الدموى الضخم المتقد صحة وحياة .

وفى ذات ليلة خارت قوى الرجل ولم تجده المقاومة نفعا فلم يجد سبيلا لطرد الشبح عنه غير اللجوء الى الخيال العلوى المنقذ ، فهب من فراشه واتجه نحو مكتبته وتناول الانجيل وجعل يقلب صفحاته فى أمل متشنج لاهث . فهدأ اضطرابه وقر بعض الشيء واستراح !

هذه الازمات الجثمانية الفظيعة ، التى كانت تعقبها على الدوام ازمات نفسانية حادة ، هى التى بدلت شخصية تولستوى ، وهى التى ساقته الى التأمل الطويل فى حياته ، وفحص ضميره ، ومراجعة اعماله ، ومحاسبة نفسه ، والنظر الى الكون والناس بعين جديدة ، واعتياد مزاولة شتى انواع الرياضات الروحية الصارمة التى اشتهر بها الانبياء والرسل و بعض كبار المؤمنين فى عصور المسيحية والأسلام الأولى .

ولم يكد يشرف الرجل على الخمسين من عمره حتى كانت الحياة بأسرها قد تغيرت فى نظره ، فكرة وغاية ومعنى .

لم يعد يقنعه ان يرسمها على علاتها فى امانة وحذق شأن الروائى الفنان . اراد ان يذهب الى ابعد من ذلك . ان يفهم سرها . ان يسمو الى موطن القوة الالهيه ويخاطبها ، ويدرك لماذا هى خلقت الحياة ، لأى معنى ، لاى غرض ، وفى سبيل اى شىء ؟ ...

شعر بألم فظيع . تخبط فى الظلام الدامس . اصطدم بالعقبة الكؤود التى تحطمت عليها رؤوس اكبر الفلاسفة والمصلحين .

ادرك انه لن يستطيع مهما حاول معرفة ذلك السر بعقله وان لا بد له من أداة جديدة تكشف له عن غاية الوجود .

بدأ يبحث عما يكمن خلف الحوادث اليومية وخلف الصور والاشكال
بدأ يبحث عن رموزها ومدلولاتها وما ترمى اليه .

شاهد فى فرنسا رأس احد المحكوم عليهم بالاعدام يسقط على المقصلة فذعر اشد الذعر وجعل يفكر في القتل وهل هو مشروع وهل يملك المجتمع حق اعدام ايما انسان !؟

كان يمر بفلاحيه غير محتفل ، وينظر اليهم نظرة السيد الى المسود ، ويستنكف التحدث اليهم والاهتمام بهم . ولكنه ابصرهم الآن ...

ابصرهم عراة الاجسام ، حفاة الاقدام ، اذلاء النفوس ، فرائس المرض ، تعساء

بائسين، يخشون سطوة المـال ، و يتمسحون بكبـار الملاك ، و يتملقونهم، و يبيعون في سبيل مرضاتهم أعز ما يملك الانسان من عرض وضمير !

ابصرهم علي حقيقتهم . وأبصر أولئك المـــلاك وقد قدت قلوبهم من الصخر الاصم يستبدون بالفلاح و يسلبون حقوقه ويسومونه مر العذاب ويتكرمون عليه بفتات موائدهم . فاخذ يفكر فى هل له الحق مثلهم في استعباد ذلك الفلاح ، هل له حق ابقاء الفقير على فقره ، والجاهل علي جهله ، و المظلوم مصفدا بالقيود والاغلال ؟

نظراً الى مهنة الجندية وما تنهض عليه من توحش مشروع

نظر الى السجون وما يرتكب فيها من فظائع

نظر الى سيبريا ومن يزج فيها من رجال الفكر وأبطال الحرية ، فاحس أنه ليس بالغريب عن الفـلاح المضطهد ، والجندي المستعبـد ، والسجين المنكود الذى راح شهيد الواجب وضحية الحرية . أحس أنه ليس بالغريب عن هؤلاء جميعاً وأنه أخالهم وأن من العـار عليه أن ينعم فى قصره المنيف بمتاع هـذه الدنيا بينا أخوانه فى الانسانية يشقون ويتعذبون !

ساءل نفسه في هدأة التأمل الكبرى : أى معنى لهذا الشيء او ذاك ؟ .. أى نفع لهذا العمل أو ذاك ؟ .. هل هذا نظام مشروع أم غير مشروع .. هل هو جائر أم غير جائر ؟. هل وضع لخدمة الناس أم لاستغلالهم ؟ ...

وانتهى به التفكير الى الشعور بان مقياس الحقيقــة فى هذا العالم الارضى هو هذا الالم الانسانى الهائل ! هذا الظلم البشرى الفاجع ! فطفق يردد . كيف .. كيف يجب أن أعيش ؟! . وكيف أستطيع أن أعيش بحيث أنقذ نفسي وأنقذ الناس!

وما أن استولى عليه هذا العـارض حتى شعر أن فنه العظيم بما فيه من حقائق نفسانية وجمال رائع لم يعد يكفى لحل هذا المشكل الكبير . أدرك أن رواياته التى هتف لها العـالم قامت على مجرد تصوير الحياة ، وأن الواجب عليه الآن أن يبحث لا أن يصور ، أن يفسر الرموز لا أن ينقلها، أن يمزق القناع عن وجه الكون لا أن يكتفى برسم أوضاع وتقاطيع هذا الوجه المزيف

فقد ثقته بالفن الخالص وفقد ثقته بالعلم أيضاً . اعتقد أن العلم أخفق فى رسالته وأن هو الآخر أصبح اداة تمتع واستغلال وقتل وتدمير ، ركزت فى ايدى رجال المال لخدمة مطامعهم

تداعى كل شيء امامه ، هوت صروح المجتمع عند قدميه ، حفت به الاطلال من كل صوب ، فاتجه بكل ما فيه من قوة نحو الله !

لاذ بالايمان . وسرعان ما أراد أن يبلغ بحياته قمة ايمانه ، فبدأ يحطم فى نفسه كل اخلاقه وطباعه القديمة النكراء : العظمة ، الكبرياء ، الانانية ، القسوة ، الشهوة ، حاربها جميعاً ليسمو الى أفق الطهر والتواضع والسذاجة والحنان والرحمة والمحبة

شرع يفحص الحياة من خلال تعاليم الكتب المقدسة

شرع يدرس حياة المسيحيين فى ضوء تعاليم المسيح

شرع يبحث ويقابل بين أصول الدين وبين ما هو عليه فى الحقيقة الواقعة

ونظر الى الكنيسة الاورذكسية فاقشعر وتراجع !

شاهد رجال الدين يناصرون أصحاب رأس المال ، ويحمون النظام القائم ، ويعيشون عالة على الشعب ، يستنزفونه عملا ، ويعتصرونه مالا ، وتكتظ بطونهم باللحم ، ويسمنون على حسابه ، ثم يضعون له من الطقوس الدينية الجوفاء ما يحيله الى قطيع أعمى ، ثم يبشرون فيه بعد ذلك بفضائل المحبة والتضحية وهم منها براء !

وعاد تولستوي الى عالم الثقافة والفكر

طالع سقراط وافلاطون وكونفوشيوس ونيتشه ، ولكنه لم يسترح لاقوالهم ، لم يطمئن لتعاليمهم ، لم تأخذه تلك الحمى المقدسة التي كان ينشدها ، فلم يتردد واستجمع قواه وذهب الى الشعب !

ذهب الى الفلاحين ، الى الاميين ، الى البائسين . وقال فى نفسه : ما دام هؤلاء يؤمنون وما دام ايمانهم يدنيهم من الخير وينأى بهم عن الطمع وحب الظلم فلا بد أن يكون قد نبع من قلوبهم البريئة ، وإذن فهو القلب البريء الذى يهدى الى النور وليس هو العقل الاناني المتغطرس

وأراد تولستوى أن يتصل بالفلاحين كواحد منهم ، أن يروي قلبه الظامىء من ايمانهم البسيط ، أن يخالطهم ويحادثهم ويعيش معهم ويفهمهم، فطرح جانبا رداءه الارستقراطى النظيف ونزل اليهم !

لبس قفطانهم الخشن . ذاق خمرهم الحادة . حرث الحقول مثلهم . اشتغل بكلتا يديه كاسكاف ونجار !

واذ ذاك أحس وقر حيـــاته الماضية واستضاءت أمامه كل ذنوبه وخطاياه فكتب في مذكراته يقول « واهاً لي ! .. لقد قتلت أيام الحرب رجالا مثلى . . . تبارزت مع الكثيرين .. بددت جزءا كبيرا من ثروتى فيالميسر ، ثروتى التي سرقتها من عرق الفـلاحين ! أجل أستبحت اعراض نساء كثيرات وخـدعت ازواجهن أصدقائى ، كذبت وسرقت وزنيت وظلمت وارتكبت شتى المعاصى ، ولكنى الآن أرى كل هذا وافهم نفسى ، أما الفن وأما الادب فلقد أحببتهما لا من أجل فائدة النـاس بل لانال المجـد وأضاعف ثروتى ، وهكذا خنقت فى صدرى كل ما هو طيب وأنحدرت الى اعماق الخطيئة ! .. »

هذه الثورة النفسية ساقت تولستوى من جديد الى مطالعة الكتب المقدسة

فتح الأنجيل ايضاً وطالعـه بانهـام شديد فازداد افتتانا بتعاليم المسيح ولا سيما الذى ورد منها فى (عظة الجبل)

بهرته شخصية المسيح ، وسحرته ، والتهمته !

أخـذ بحياة ذلك الرجل الجواب الشريد ، الذى لا بيت له ولا مال ولا امرأة ولا ولد ، ذلك الرجل الذى لا يهتم باليوم ، ولا يحفل بالغد ، ولا يكترث بالناس ، ويمضى فى الارض العراء متلفعا عباءته ، يتحدث عن الحب والرحمة والمغفرة حديث طفل أوتى حكمة الآلهة ، ويعيش كما تعيش طيور السماء التى يرزقها الله من فضله قوت يومها فترفع اليه على الدوام أناشيد العبادة والشكر

فتن تولستوى بهذه الشخصية ثم تعرف الى شخصية أخرى تضارعها مجداً وعظمة

تعرف الى محمد وأمعن فى دراسة حياته ثم طالع القران فراعه ما فيه من عمق الايمان ، والشعور القوى بمشيئة الله : فاحس أن بين الاسلام والمسيحية صلة وثيقة وأن حياة المسيح نفسه كانت محض اسلام نفسانى مطلق لمشيئة الله ، فاحب المسيحية والاسلام معا ، احبهما على أصلهما وكتب عن محمد كتابه المشهور ، الذى نقل بعضه الى العربية ، والذى يدل على مبلغ صفاء ذهن الكاتب ونبل طويته ونزاهة حكمه وتجرده التام من شوائب التعصب الممقوت

ومن الانجيل والقرآن ، والازمات الوجدانية الشخصية ، وتجاريب الحياة فى مدى ثلاثين سنة ، والاندماج فى اوساط الشعب من فلاحين وعمال ، استخلص تولستوي فلسفته التى ضحى بفنه من أجلها بل أنكر الفن والجمال في سبيلها ووقف أيام كهولته وشيخوخته للدفاع عنها

أما هذه الفلسفة فلا تمتاز بجدتها ، وانما تمتاز بعناصر الصدق والاخلاص والحرارة والحماسة التى ملأت جوانب نفس تولستوى وهو يبشر بها ويحاول تطبيقها على شخصه . .

فقيمتها فى العاطفة وفي ارادة التطبيق وفى قوة الاقناع ، لا فى الجدة والطرافة ، لذلك أثرت فى الناس وخلدت اسم الرجل

وتنهض هذه الفلسفة على عبارة مأثورة فاه بها تولستوي أمام جمع من الفلاحين اقبلوا عليه ذات صباح ، واحتاطوا به ، وحكموه فى نزاع قام بين أثنين من أبناء قرية واحدة

نظر اليهم تولستوي وابتسم ، ثم حول بصره نحو الفلاح الذى انتقم من رفيقه بان حاول طعنه فى قلبه بمدية وقال:

« لا تقاوم الشر بالشر والا اشتركت مع الشرير فى شره فماتت الفضيلة بينكما ! . »

ولكن ما الذى يجلب الشر على الناس في عرف تولستوى ؟

ما الذى يحرض الابن على أبيه، ويوغر صدر الاخ علي أخيه، ويفعم الدنيا شقاء وبؤساً وألماً ؟

ما الذى يجب أن يبغض ويقاوم ويهدم ؟

ان ما يجب ان يقاوم ويهدم هو ذلك الحق الذى فرضه القوى على الضعيف، وسلبه القوى من الضعيف، أى حق الملكية !...

فالملكية اصل كل الم وعذاب، أصل كل طمع واستغلال، اصل كل رذيلة وانحطاط. والمالك شرير بطبعه لانه مرغم على التذرع بكافة الوسائل ليحمى ملكه أولا، ثم ليزيد هذا الملك ثانيا. وهو لا يستطيع تحقيق هذين الغرضين الا باستعباد من لا يملك شيئا !...

فالرق القديم زال واعترف للفرد بحريته، ولكن ما نفع هذه الحرية التى فاز بها الاغنياء وحرم منها الفقراء؟ ما قيمة هذه الحرية التى لا تزهر ولا تثمر ولا نستطيع التنعم بها الا متى اقترنت بالملكية وحق الملكية على حساب التعساء والمساكين ؟

فالملكية هى نظام الرق بعينه تستره خيالات الحرية الشخصية، والملكية هى الشر فلكى تعيش وتنمو لا مفر لها من استخدام العنف لجمع الثروة والاستزادة منها والدفاع عنها. ولقد قامت الدولة نفسها لتحمى الملكية وترد عنها غوائل الدهماء.

وهى تحميها بقوة الجيش وقوة القضاء وقوة الدين ممثلا فى الكنيسة !

وهى تحمى الشر بواسطة الشر فتمكن للرذيلة وتقضى القضاء المنظم على كل خير !

فتولستوى كما ترى اشتراكى النزعة يدعو الى هدم فوارق الطبقات، ونشر العدل والمساواة الاقتصادية بين الجميع

يدعو صاحب المال ان يتجرد من ماله ويوزعه على الفقراء ويقتدى بهم ويأكل خبزه كفافه بعرق الجبين !

يدعو الجندى الى الامتناع عن حمل السلاح وقتل الناس ولو عوقب بالقتل هو نفسه !

يدعو الى التمرد على نظام الدولة التى تتحكم فى الضمائر وتفسد الاخلاق والاداب !

يدعو الى تحطيم الحاجز القائم منذ الازل بين السياسة و الاخلاق !

يدعو الى ان تكون اخلاق رجال الدولة هى اخلاق افرادها . فلا نعلم الافراد ان الفضيلة فى المحبة والاحسان والشفقة والنزاهة والتعاون والصدق ، ثم نعلم الساسة ورجال الدولة فى نفس الوقت ان الفضيلة فى الكذب والنفاق والتباغض والطمع والغدر والبطش !

يريد تولستوى الا يقوم المجتمع على حق الملكية وحق القوة ، بل على غريزة الاخاء العام الكائنة فى اعماق النفس الانسانية والتى تقصيها وتحاول خنقها اطماع رجال الحكم و رجال المال ورجال الدين !

فغريزة الاخاء العام التى نهضت عليها الاديان جميعا ، والتى يشعر بها الانسان نابضة مختلجة فى صدره كلما عاد الى اصله واقترب من الله ، هى التى يرغب تولستوى فى ان تسود وتحكم

لذلك يقول في احدى قصصه علي لسان بطل من أبطاله يخاطب شابا يبحث عن قاعدة للحياة :

« لا تخضع لاي قانون لايطمئن له ضميرك المشبع بفكرة الاخاء العام النابعة من صلب نفسك وروح الله ! لا تخضع ولو أدى بك الامر الى تضحية حياتك ! »

هذه صفوة تعاليم تولستوي ، أعتنقها بعقله ، وأحسها بقلبه ، وروج لها وأذاعها فى كتبه ، ثم اراد توكيدا لايمانه بها ، واخلاصه لها ، أن يطبقها على نفسه ليجعل من وحدة الفكر والعمل قاعدة لحياته ؛ فاعتزم الاقدام على شىء عظيم . عقد النية على أن يتجرد من أمواله الخاصة تجردا تاما ليتسنى له أن يشعر بانه فقير وأنه يقول كما يفعل . !...

كانت اعماله الادبية العديدة المشهورة تنقل الى مختلف اللغات و تدر عليه وعلى اسرته الغنية سيولا من الذهب الوهاج . وكانت هذه الاعمال ملكه الخاص

الذى يستطيع ان يتصرف فيه كيف شــاء دون ان يعتدى على حقوق اسرته ، فعزم ان ينزل عن جميع حقوقه فى تلك المؤلفات للشعب كى يطبق مبدأه على نفسه ويدلل على ان حق الملـكية يجب ان يزول !

وكما انه انسلخ عن وسطه ، وخرج على بيئته ، وتحرر من اوضاعهـا ، وتجرد من مفاتنها ، وركل بقدمه الجبارة ادوات الترف واسباب النعيم ليرتد فقيرا كالفلاحين والعمال الذين يحبهم ، كذلك اراد ان يعمل مثلهم ويكافح للخير العـام لا لجمع الثروة واكتناز المال .

ان الفلاح يشتغل ليعيش ، فيجب عليه هو ايضا ان يكـتب ليعيش !

وما دامت الارض التى يحرثها الفلاح ويزرعها لا تعود عليه باية ثروة ، فينبغى الا تعود مؤلفات تولستوى على شخصه او على اسرته باية ثروة !...

ان ارض الفلاح يجب ان تكون ملـكا للجميع ، وكـذلك حقل الذهن البشرى يجب ان يكون ملـكا للجميع . اما جزاء العمل الشخصى فليس حيـازة الثروة بل الحصول على الـكفاف !..

وشرع تولستوى فى كتابة وصيته بهذا المعنى .

شرع فى كتابة وصيته فلم تكد الـكونتس زوجه تعرف بذلك حتى جن جنونها !

عز على هذه المرأة المادية العملية ان تذهب كل تلك الاموال هدرا ضياعا لمجرد فـكرة خيالية قامت برأس زوجها ، فاستشاطت غضبا ونصبت نفسها للدفاع عما سمته حقوق ابنائها فى اعمال والدهم وارباحه ، مع انهم اغنياء ومن وسط استقراطى .

وارادت الـكونتس الاستيلاء على الوصية ، بل ارادت سرقتها !

فكانت تنهض فى الليل من فراشها ، وتجتاز غرف القصر بخطى وئيدة حذرة ، وتراقب زوجهـا ، وتتعقبه ، وتتجسس عليه ، ثم تسطو على مكاتبه فى غفلة منه ، وتنبش ادراجه ، وتقلب اوراقه ، باحثة عن الوصية ، ويدها الضامرة الصفراء ترتعش كيد المجرم اليافع يخشى التعثر والافتضاح !

صارحته برأيها فى عمله وكاشفت ابناءها بما عزم عليه !

ولما حاول اقناعها بضرورة ذلك هددته بالانتحار ان نعل !

هددته بالانتحار وذكرته بانها سوف تحمى مصالح الاسرة على الرغم منه وضد خيالاته واحلامه مهما كلفها الامر .

وتلفت العبقرى حوله واذا به يتقلب فى جو خانق تكتنفه النيران !

العالم ينظر اليه وينتظر منه ان يحقق مبادئه فى عمل حازم ويصبح فقيرا حقا كما يعلم الناس ، وامرأته تنغص حياته ، وتفسد جهاده ، وتؤلب عليه اولاده ، وتحفزهم لمعارضته ومناوأته ثم تلوح له بالانتحار كى تيئسه وتشل قواه !

لم يعد يدرى ما يجب عليه ان يفعل !

ايخضع ويسلم ويخون وينكر كل شيء وهو فى الثمانين من عمره والموت واقف له بالمرصاد ؟ أم يناضل ويقاوم ويثبت فيهيج ابناءه عليه ويقوض صرح اسرته ، ويدفع بامرأته — التى يعرف عنادها واصرارها وطيشها العصبى — الى ما لا تحمد عقباه ؟...

لم يعد يدرى ما يجب عليه ان يفعل !

استحال بيته الى جحيم شـــاع فيه الحذر والشك والسخط والتبرم والغيظ والاستنكار ، فاحس تولستوى انه ليس بالانسان الحى ، وانه موشك ان يفقد حريته ويصبح عبد اسرته ، فلم يطق واستحوذت على ذهنه شيئا فشيئا فكرة التنفيذ السريع والفرار السريع !...

وفى ذات يوم تحامل على نفسه واستجمع قواه وتشجع وخرج من قصره متجها صوب غابة تدعى غابة جريمون .

وهناك ، هناك فى اقصى الغابة ، انطرح على جزع شجرة ، وجاء بثلاثة شهود من اصدقائه ، ووقع وصيته بالنزول عن جميع حقوقه فى مؤلفاته للشعب !

وقع الوصية ثم تنفس الصعداء وظن انه استراح ، ولكن فكرة الفرار لم تكن بعد قد تمكنت منه فعاد الى البيت وعاد اليه الشقاء !

علمت زوجه بما وقع فثار ثائرها ، ففقدت كل شعور بالتسامح والرحمة ، وانطلقت كمعتوه يطارده جنونه ، تحطم الادراج وتنقب وتفتش ، باحثة عن الوصية ، عازمة على العثور عليها و إتلافها وانقاذ تلك الثروة العظيمة من عبث ذلك الشيخ المخرف المأفون !

ركبها شيطان المال فلم تشفق على زوجها ، لم تفهمه ، لم تقدر تضحيته ، بل جعلت تصب عليه جام غضبها ، وتهزأ به ، وتتهكم بارائه ، وتسفه تعاليمه وتطعنه فى أحب وأقدس شىء لديه

وانتشرت نزعاتها المسمومة فى البيت كله ، فسممت الابناء أيضاً ، فطفقوا مثلها يسخرون من والدهم الشيخ ، ويهزأون بمبادئه ، ثم يتحببون اليه تارة ، ويتبرمون به أخرى ، محاولين استدراجه من حيث لا يشعر الى الاذعان لهم ونقض وصيته

وكان يراهم متكالبين على المال ، على المال الذي لم يفكر واحد منهم فى الحصول عليه بعرق الجبين ، فاشمأزت نفسه ، واسودت الدنيا فى عينيه ، وضاق صدره ذرعاً باسرته ، وكاد يختبل من فرط ما احتمل فكتب فى مذكراته فى شهر يوليو يقول :

« ليس أمامي سوى الفرار !.. الفرار من ياسنايا بوليانا .. الفرار من بيتى..! لا أحد هنا يحتاج الى ..ساعدنى يا ألهي !.. ارشدنى !. لا أريد الا أن انفذ ارادتك! سأترك جميع الذين أحبهم وأنصرف اليك وحدك ! ..»

وعندئذ استضاءت روحه ، وغمر النور قلبه وعقله ، ودوى فى اعماق نفسه صوت يقول :

« انهض . تلفع بعباءتك ، وتوكأ على عصاك ، وسر ! ..»

وعلى حين فجأة أحس الشيخ الضعيف أن لا بد له من الذهاب لملاقاة ربه ! ..

أحس كأن سيلا من دم الشباب قد صب فى عروقه ، وكأن عصارة الحيوية الماضية قد بعثت ودبت فى كل جزء منه ، فنهض لفوره وتأهب للرحيل !

وكان ذلك اليوم المشهود هو يوم ٢٨ اكتوبر عـام ١٩١٠ نحو السـاعة السادسة صباحا .

نهض تلستوى وتلفع بعباءته ، وتوكأ على عصاه ، وانتعل حذاء من المطاط ، وسار فى أروقة القصر الهادىء بخطى اللص الحذر ، يعـالج فتح الابواب فى رفق مخافة أن يسمع صرير اقفالها فيوقظ أفراد الاسرة الملعونة !

وخرج ! خرج مصحوبا بطبيبه ، حاملا دفتر مذكراته وقلما من رصاص

ويمم وجه شطر المحطة القريبة من منزله ثم استقل القطار الى الدير الذى تعيش فيه اخته الراهبة

ولم يكد يستقر به المقام ويفرغ من توديع شقيقته ، حتى وافته احـدى بناته ، وكانت اشدهن ملاحظة له ، واهتماما به ، وحرصاً على حياته ، فالتمس اليها أن تسرع به الى خارج الروسيا بلا ابطاء

جلس فى العربة قرب ابنته ، ولـكن ما ان تحرك القطار حتى كانت الروسـيا باسرها قد علمت بان الكونت ليون تولستوى فر من البيت !

طيرت الاسرة النبأ . أرسلت من يبحث عنه . تبودلت المخاطبات بين المحطات المختلفة . تدخلت الحكومة فى الامر وكلفت البوليس بمنعه من اجتياز الحدود

تحالفت عليه الدنيا تريد حرمانه من حقه البسيط فى الحرية ، فى الحياة وفق هواه ، فى العيش كما تملى عليه مبادئه ، فى التخلص من شر هذا العالم والتوجه الى الله بنفس نقية طاهرة !

شاهد كل ذلك فادرك أن الفرار محال !

وكان قد اعياه التعب وبرحت به كل هذه العواطف والاحساسات ؛ فلمحت عليه ابنته شيئا من الاصفرار ، ورأته يختلج اختلاجا عنيفاً فهلع فؤادها وحارت وانتظرت ريثما يقف القطار .

وفى محطة استابوفو ، نزل تولستوى ، شاحب الوجه ، غائر العينين ، مقوس الظهر ، مربد التقاطيع ، ولجأ الى كشك ناظر المحطة .

وهناك في الكشك المتواضع البسيط ، اضطجع على سرير حديدى وبدأ يعالج سكرات الموت وهو يغمغم : « الله محبة ! »

وتوافد الموظفون ، و رجال البوليس ، والصحفيون ، والعظماء واشباه العظماء ، يشهدون مصرع العبقرى المسكين !

وجاءت زوجه ايضا ولكنها لم تجسر علي الدخول ، بل ظلت تحدق اليه من خصاص النافذة وترتعد وهو مسجى امام عينيها يحتضر في صبر وهدوء !

وفي اليوم السابع من شهر نوفمبر عام ١٩١٠ ، استيقظت ابنته بغتة وتأملته ثم صرخت صرخة هائلة اذ رأته وقد أجال حوله نظرة وداع ، يميل على نفسه ، ويهوى رأسه على الوسائد ، ثم تنطفىء عيناه البراقتان ويسلم النفس الاخير !

قصـــــص

الضحية «١»

كانت فلورنس روميه من أولئك النساء اللواتي تغلب فيهن قوة العاطفة على قوة الحواس وتتحكم في شخصياتهن المبادىء الكبيرة والاحساسات الشريفة فلا تدع في أفئدتهن مكانا لسيطرة الرذائل واستبداد الشهوات

نشأت فلورنس في بيت قروي في ضاحية بعيدة من ضواحي باريس فاشربت نفسها منذ حداثتها حب الطبيعة وتفتحت عيناها منذ نعومة أظفارها على مختلف الوان الجمال تبدو في الحقول الناضرة والطيور العابرة وأناشيد الحصاد وأغاني القرويات ومرح الريف وبهجته وسحره

وكانت تقضي معظم نهارها بين الحصادين ترعي مواشي والدها أو تشرف على شئون مزرعتة أو تهتم باخوتها الصغار أو تنفق سحابة يومها في الغناء بصوت ناعم رخيم يجمع الفلاحين عند نافذتها ويثير في نفوس الشبان ارق وأعمق الانفعالات

وبعد أن أتمت فلورنس دروسها الابتدائية انقطعت لخدمة أبيها في مزرعته والفت حياة الريف وصادفت روعة الطبيعة من نفسها هوى كبيرا فلم تحفل بحياة المدن ولم تفكر في الذهاب الى باريس وقنعت من عيشها بمشاهدة الحقول تتألق في الصباح تحت أشعة الشمس ، والفلاحات يتراكضن على العشب الاخضر ضاحكات هانئات ، والشبان يبذرون البذور ويجنون الثمار ، والنساء يتعهدن بيوتهن وأولادهن او يذهبن الى الكنيسة حيث يلقى الكاهن الشيخ عظاته البليغة وحيث التسابيح والتراتيل تتصاعد من قلوب طاهرة نقية فتصل توا الى مسامع الله !

وتشبعت فلورنس بالعواطف الحالمة الرقيقة وتمكنت منها مبادىء الصدق والشرف والاستقامة الشائعة بين القرويين فكانت ساذجة النفس في شمم وإباء بسيطة الروح في توقد فكر وحدة ذكاء ، طيبة رحيمة تعنى بالبائسين وتشترك في كل هيئة وجماعة ترمى الى اغاثة التعساء وأسعاف المنكوبين

---

(١) ملخصة عن برنار جافو

وكانت الى هذا رمز الطلاقة والمرح وعنوان الشباب الناضر الحى تضحك على الدوام وتبتسم للجميع ولا تتبرم باشق الاعمال بل تقبل عليها فى فرح ونشوة واغتباط كأن العمل مادة حياتها وكأن الجهـاد اليومى واجب مقدس فرضته عليها قوة علوية لا بد من اطاعتها والاذعان لها

ولم يكن بين فتيات تلك القرية من تشبه فلورنس فى صبرها وجـلدها وقدرتها على العمل والاحتمال كما أنه لم يكن بينهن من تشبهها فى جمالها الباهر الفتان . كانت طويلة القامة فى امتلاء لين منسجم ، سوداء العيون فى يقظة دائمة يمازجها الحلم، متوردة الخد دقيقة الانف ناصعة البياض ينسدل شعرها المموج فيغمرها فتبدو من خـلاله رائعة مهيبة تمليها مسحة من وحشية الفطرة يخففها ظل ابتسامتها البادية الصفاء

وكان شبان القرية يهيمون حبابها و يعقدون حلقات السمر حولها ويبذلون جهد الطاقة فى التقرب اليها وخطب ودها أما هي فكانت تحترم نفسها ولا تسرف معهم لا فى الحديث ولا في المزاح ولا فى اللهو بل تظل محتفظة ببساطتها ولطفها فى حدود الوقار والاحتشام

وهكذا أسرت البـاب الجميع وفازت باعجاب الجميع ولقبت لطهارتها وجمالها بعذراء الحقول فلم تزهو ولم تتكبر وزادها التقدير ظرفا وحياء وتواضعاً

وكان أن اعتادت فلورنس الحياة بين الاشجار والانهار والماشـية والدواجن وأصوات الطواحين وخرير المياه وقصف الرعود فاندمجت الطبيعـة فيها واندمجت نفسها فى الطبيعة وباتت جزءا منها تنعكس عليها اضواؤها و يتمثل فى ورد خديها سحر الربيع وفى وهج عينيها حرارة الصيف وفى تثنى قامتها أحـلام الخريف وفى وقار طلعتها جلال الشتاء ورهبته

هذا الولع بالطبيعة اضرم فى كيانها شعـلة العواطف وباعد بينها وبين شهواتها الدنيا ولطف من حدة غرائزها وصقل ميولها وأشاع فى نفسها رغبة شديدة فى السمو لكل ما يحيط بها والتحليق بخيالها فى عوالم جميلة كالسماء التى تظللها وتهب القوة والنماء بكل شيء حى . فتولد فى قلبها على مر الزمن ميل غريب الى العزلة وميل آخر أشد

غرابة فى الريف الى مطالعة الشعر، فكانت تجلس الساعات الطويلة بالقرب من نافذتها تنشد مقطوعات رقيقة لا لفريد دي موسيه أو فيكتور هوجو أو سولى برودوم أو الفونس دى لامرتين . ثم يخيم الليل فتأوى الى مضجعها لتعود ثانيا الى المطالعة والتأمل والانشاد .

ولم تكن فلورانس على حظ وافر من الثقافة لتستطيع أن تتبين أوجه القوة والضعف في أعمال أولئك الشعراء ولكنها كانت على الرغم من ذلك تفهمهم بقلبها واحساسها وعواطفها وتستشف معانيهم بقوة بصيرتها وإلهامها وتجد فى أغانيهم العذبة المطربة غذاء لأمالها وأحلامها

وكان جمال شبان القرية يطوف بخيالها اللحظة بعد الأخرى فكانت لا تنفك تحلق فى صراحة وبراءة وفطرة حرة سليمة الى عضلاتهم القوية وأكتافهم العريضة وقاماتهم المديدة وبريق الصحة والفتوة المنسكب على وجوههم المشرقة الضاحكة ولكنها لم تطل التفكير أبدا فى واحد منهم ولم تؤثر شابا على آخر ولم تشعر حيال أى كان بمثل تلك العاطفة العاتية المجتاحة التى كانت تقرأ عنها فى دواوين الشعراء

ونمت فى رأسها فكرة الحب وزادتها الحياة الغريزية نموا وازدهارا فكانت تلوذ بالصمت وتتشبث بالعزلة وتروغ من أحاديث الزواج وهى لا تفتأ تراقب الشبان وتبحث بينهم عن رجل احلامها المنشود

وكان قد أثر فيها سلطان العاطفة والخيال أبلغ تأثير لفرط اتصالها بالطبيعة وانكبابها على مطالعة الشعر فتصورت الحب احساساً معنويا بحتاً وشعوراً قدسياً سامياً وقوة علوية خارقة تهذب الاهواء والميول فاستسلمت لها وطفقت تناجيها وترفع اليها صلاتها وتدعو الله ان يهبها أياها ويودعها قلبا كبيرا ترصد على خدمته صفوة حياتها وشبابها

ذلك القلب الكبير كان أقصى ما تطمح اليه فلورنس

ذلك الحب العلوى كان غاية ما تصبو اليه من آمال

ولكن أين ذلك القلب وأين ذلك الحب؟ لا أثر منهما ولا شيء حولها يدل

عليها . الشبان جميعاً يطمعون فى جسمها والعيون جميعاً تلاحقها وتلتهمها والالفاظ المعسولة تطوف بها ولا تطرى منها غير محاسن البدن ومفاتن الهيكل المادى السريع الزوال

كانت فلورانس تطلب حبا يستطيع أن يسمو فوق المادة ويتغلب عليها ويصرعها ويفنى فيها ويحيلها فى النهاية جوهرا علويا شبيها به . وعبثا كانت تبحث فى القرية عن مثل هذا الحب ، عبثاً كانت تعقد صلة الصداقة بالشبان ، عبثا كانت تمتحنهم وتستخدم كل ذكائها للتعرف الى شخصياتهم . لم يكن بينهم رجل أحلامها المعبود . لم يكن بينهم غير شاب واحد خيل اليها ذات مساء أنه هو الضالة المبتغاة ولكن سرعان ما خاب ظنها عندما رأته يغتنم فرصة وجودها وحيدة فى البيت وينقض عليها ويحاول ضمها وتقبيلها فى قسوة وشره وجنون

يئست فلورنس من تحقيق حلمها فاخذت شخصيتها تتبدل وتتنكر شيئا فشيئا . تجهم وجهها وزايلتها ابتسامتها الناضرة وهجرت المجتمعات القروية ونفرت من خلطة الفلاحين وتبرمت بالشبان واعرضت عنهم وأمعنت فى العزلة وانقطعت للتأمل والشعر وأعمال البيت والحقل والمزرعة

ولم تعد تنبعث اغانيها العذبة الرخيمة من نافذتها الصغيرة المطلة على حديقة البيت ، وفقدت تلك النافذة اطارها السحرى وغشت الدار كلها سحابة قاتمة فضج شبان القرية وراحوا يستفسرون والد فلورنس عما حل بابنته وينصحون له بتزويجها على عجل مخافة أن يعصف بها داء العذارى ويرديها مورد التهلكة .

وكانو يعتقدون فى القرية ان لا بد لكل عذراء من الزواج فى سن محدود والا غضبت عليها الطبيعة وابتلتها بداء الأسى وعجلت بموتها فى شرخ الشباب .

ثارت فلورنس على رغبة والديها وعارضت فى التزوج من رجل لا تعرفه ولا تحبه فاستشاط والدها غضبا وعز عليه كيف تخرج ابنته عن طاعته وتقاليد القرية فاضطهدها ونكل بها واوغر صدر امها حقداً عليها وهددها بالامعان فى تعذيبها

ان هى اصرت على رأيها حتى تسأم الحياة فى الريف فتلجأ من تلقاء نفسها الى الدير وهكذا لا تلحق باسرتها عاراً لا يمحى.

وكان لوالدها صديق غنى من اصحاب المزارع ، يدعى روبير فوكيه . وكان هذا الصديق الموسر قد طلب يد فلورنس فوعده الوالد بهـا واتفق الرجلان على اقامة حفلات العرس فى مستهل الربيع القادم.

علمت بذلك فلورنس وادركت انهم يبيعونها بيع الماشية وان لا مفر لها من الاختيار بين زوج لا تحبه وبين جدران الدير وظلمته الشبيهة بظلمة القبور . ولكنها كانت بنت الطبيعة الحرة ووليدة الفطرة الحية وعروس الحقول والمروج لا يسعها ان تستغنى طوال عمرهـا عن العدو على العشب الأخضر ، والرقص فى الحدائق الغنـاء ، والاستحمام فى الجداول الناصعة ، وتسلق الهضبات ، ورعاية الماشـية ، والاشتراك فى اغانى الحصادين .

لذلك صمتت وكبحت عواطفها وأسلمت قلبهـا لمقدورها واعتقدت فى صميم نفسها انها لن تجد الحب أبداً فدب فى جسمها الهزال وغارت عيناها وعلت الصفرة وجههـا وانتشحت بالسواد كأنما هى فى حداد دائم على حظها وكأن قلبها المتأجج المضطرم قد ابترد ومات !

واقبل الربيع المشؤوم وطردت السحب من صفحة السماء وتألق النور واينعت الازهار وغلت عصارة الارض وانطلقت صدور الفلاحين بأبدع الانغام ، أما فلورنس فقد ابغضت هذا الجمال بقدر ما كانت تحبه وتمزق فؤادها لمرأى الطبيعه تمنح السعادة الجميع وتنكرها عليها وهى التى طالمـا استمد الربيع حياته من حياتها وطالمـا تجلت الطبيعة فيها بشتى الوانها وفنونها.

واقيمت حفـلات العرس وجاء الفلاحون من جميع اطراف القرية حاملين آلاتهم الموسـيقية العتيقة وشرعوا يعزفون ويرقصون ويتبادلون اكواب الخمر ويهتفون باسم فلورنس ويتوجونها ملـكة على القرية . وكانت واقفة بجوار عروسها تجاه الهيكل والـكاهن يتمتم صلواته والموسيقى تعزف والاطفال يرتلون والعجائز

تهامس والبنات تتطلع اليها وهى ترتعد وتغض من ابصارها وتعض شفتيها مخافة ان تنهمر من عينيها الدموع .

و بعد ان انصرف المدعوون واحتواها المخدع هى زوجها أحست أبلغ احساس وأعمقه بفظاعة الواجب المفروض عليها فطأطأت رأسها صاغرة وجاهدت لتبتسم ثم تركت نفسها تقع بين ذراعى قرينها جثة بلا ادراك ولا شعور .

وسارت الحياة فى مجراها وانقضت بضع سنوات وفلورنس تبذل جهد الطاقة لتخنق فى صدرها شخصها القديم وتألف حياتهـا الجديدة وتعتاد معاشرة زوجهـا واستقبال الناس والظهور فى المجتمعات القرويه ورعاية شؤون المنزل وتولى ادارة المزارع ومحاسبة التجار ومراقبة الحاصلات وتعهد نمائها . وهكذا تطورت مظاهر اخلاقها على مر الزمن واصبحت فى رأى الجميع امرأة عاقلة رشيدة ساكنة النفس هادئة العواطف عملية النظرة لا يشغلها سوى الواجب والمصلحة .

ولـكن القدر الغاشم ابى الا ان يسخر منها و ينكل بها .

كانت قد بدأت تألف الهدوء وكان زوجها يعاملها خير معاملة ويخلص لها الود ويقدر عطفها وجهودها ويغمرها بالمال ويجلب اليها من باريس احدث الأزياء واجملها طمعاً فى اكتساب قلبها الأبى النفور . وكانت تعطف عليه وتكبر منه أن يبادلها على الدوام اعراضا بحب وقسوة باحتمال وكبرياء بتواضع وصبر حتى أوشكت ان تلين وتخضع وتفكر فى احتمال تفتح فؤادها يوما لهذا الزوج الوفى النبيل . غير ان القدر الواقف بالمرصاد مد اليها مخالبه ودمر فى قلبها هذه المرة أيضا حلم حياتها الجديد .

وحدث ذات صباح بينما كانت فلورنس تتعهد حديقة بيتها وتشذب اشجارها وتروى زهورها أن لمحت عن بعد شابا غريب المظهر لم تقع عليه عيناها قبل اليوم فى القرية . ما أن ابصرته حتى ارتجفت من قمة رأسها الى اخمص قدميها وأحست كأن قلبها يهبط فى صدرها وكأن سحابة كثيفة انجابت عن عقلها وخيالها .

اشاحت بوجها وتأملت الشـاب خلسة فرأت جبهة عريضة ناصعة وعينين واسعتين متقدتين وقامة مديدة وملامح رزينة تتألق فيها الرجولة والارادة والشمم .

اقترب منها وحياها فى أدب واستفسرها عن صحة زوجها واعماله وقال انه غريب وفد الى القرية بدعوة من قرينهـــا ليعمل معه فى مشروع مشترك يتعلق بتصـــدير الفاكهة .

رحبت به وقدمته الى زوجهـا وما لبث الرجلان ان تعارفا وتفاهمـا وشرعا يتحدثان عن المشروع والقرية وسكانها والعلاقات التجارية بين فرنسـا والبلدان المجاورة .

ولم تكد تمضى عدة أيام حتى اصبح ريمون بلوندل صديق الأسرة المفضل وشريك الزوج فى العمل وكاتم سرة وموضع ثقته والقوة الشابة التى يستند اليها فى جميع معاملاته .

واستقر ريمون فى القرية واتخذ له منزلا صغيراً بجوار بيت شريكه ، فكان يرى فلورنس كل يوم وكانت تلتقى به كل صباح وكل مساء .

وهكذا حرمتها المقادير من الحب قبل الزواج كى تمنحها اياه بعد ضياع الفرصة وفوات الوقت .

احبت ريمون حباً عاصفاً غلابا .فاجئا ا كتسحها اكتساحا كاعصار .

احبت ريمون بكل قوى احساسها المضطرم المكبوح ، احبته بكل آمالها القديمة وعذاباتها الطويلة وحسرات شبابها المطعون .

وافاقت من غشيتها واذا بالكون غض جميل والسماء مصحية لامعة والازهار بسامة ضاحكة والطبيعة على عهدها بها أفتن ما تكون بهجة و نضارة وحياه .

ولم يكن فى وسع ريمون تجاهل هذا الحب فاستجابت نفسه له وتفتحت عليه وامتدت اليها شعلته فالهبتها الهابا .

وعندئذ شعرت فلورنس بالهوة السحيقة السوداء تحفر تحت قدميها شيئا فشيئا .

هناك الواجب الزوجى ، وهنا الحب العظيم المبتغى . هناك قانون الفضيلة والشرف وهنا قانون الفطرة والحياه

هناك العرف والمصطلح ، وهنا المثل الرائع الأعلى الذى اقبل في النهاية بعد جهد مرهق وصبر طويل .

ونشبت المعركة الهائلة فى نفس فلورنس

أيهما تؤثر وأيهما تعتنق والى أيهما تتجه بأحساسها وعواطفها ورغبة جثمانها المتلهف المسكين ؟

لقد كان الزوج مخلصا امينا فاضلا محبا لا يستحق الخديعة والنفاق ، وكان الحبيب شابا جميلا قويا مشبوب العاطفة شعرى التصور يمثل الخيال الكامل المنشود

حارت فلورنس واضطربت وبدأت تتخبط من جديد فى محيط الهواجس والآلام

كانت شريفة بعقلها وادراكها والمباديء التى طبعت عليها ونزعة الاستقامة والنزاهة الشائعة فيها منذ حداثتها .

كان من المستحيل عليها ان تخون .

كان من المستحيل ان تهب جسمها لغير قرينها ولكنها كانت تحب . وكان حبيبها لا ينفك يطاردها ويقطع عليها السبل ويضيق المسالك ويستعطف ويتوسل ويبكي ويطالب بحقهما المقدس فى التمتع والهناء .

حاولت ان تفر منه . سافرت الى باريس وقضت هناك شهرا كاملا ثم عادت فلم يزدد غرامها الا تأججا واشتعالا .

حبست نفسها فى غرفتها الايام الطوال ولكنه استأثر بخيالها وعذبتها صورته اكثر مما يعذبها وجوده .

لجأت الى الله واسرفت فى الصلوات ولكن عين الله انصرفت عنها وخلفتها فريسة التجربة .

ذهبت الى قسيس القرية وافضت اليه بذات نفسها فنصح لها بمكاشفة زوجها بالأمر فاختبلت وكادت تجن جنونا .

اما ريمون فقد دهش من هذه المرأة التى تحبه اعظم الحب ثم تعرض عنه ، تتحرق شوقا الى قبلة ثم تروغ منه ، تناديه بكل قوى جسمها وروحها ثم تخشى مجرد النظر اليه

وثارت اعصـابه ودبت فيه عوامل الاستنكار والسخط واستحال حبه على مر الزمن الى ضرب من الحنق سرعان ما انقلب تحت ضغط الشوق والحرمان الى كره وبغض . أبغضها بقدر ما تحدثه له من عذاب .. واحست فلورنس هذا البغض فتضاعف حبها وتضاعفت شفقتها واشتد فى الوقت نفسه ميلها الى المقاومة والنضال فكانت حياتها جحيما يوميا قل ان يستطيع احتماله مخلوق . جثت عند قدمي حبيبها وناشدته الرحمة واستحلفته بحبه لهـا أن يجاهد معها ليسمو بهذا الحب فوق ادران المادة ولكنها هى نفسها كانت تتوق الى الفناء فى المادة . كانت تعبد جسم ريمون. كانت ترى الحب فى ضوء جديد تمتزج فيه الوان المادة بانوار الروح ولذلك لم تطق منه أن يبغضها ولم تطق من نفسها ان تعذب احب انسان اليها فخارت اعصابهـا وتداعت قواهـا واستسلمت لريمون ووعدته بالذهاب الى داره خلسة فى صبيحة اليوم التـــالى

وكان زوجهـا قد استشعر هذا التبدل العجيب فى اخلاقها وحديثها وملامح وجهها فجعل يراقبها من حيث لا تدرى ويراقب ايضا شريكه الشاب

ولما اقبل الصباح ارتدت فلورنس اجمل ثوب لديها واتشحت بوشاح ابيض حريرى وتعطرت وتجملت وذهبت لملاقاة حبيبها . فتح الباب واستقبلها ريمون وقد تهلل محيـاه فوزا وفرحا ثم احتضنها وغمرها بالقبلات وهو يضحك تارة ويبكى أخرى كطفل ظفر بلعبة نادرة بعد شكاية مرة وصبر طويل .

وعز على فلورنس ان تطيل أمد عذابه فاطرقت لحظة ثم رفعت رأسها وحدقت اليه وشرعت فى خلع ثيابها .

ولم تكد تطرح عنها وشاحها وتفك بعض ازرار ثوبها وتلمح حبيبها واقفا بجوارها مشرئب العنق متلهف الطلعة محموم البصر غليظ التقاطيع يلهث شهوة حقيرة نكراء، حتى صرخت صرخة داوية واستيقظت فيها بغتة كل فضيلتها وتجمعت فى صدرها خلاصة مبادئها واحلامها، وهالها ما سوف تنتهى اليه وما سيحل الساعة بمثلها الطاهر الأعلى . فاسرعت فى عقد ازرار ثوبها . ثم اختطفت وشاحها وعدت

نحو الباب وريمون يلاحقها وهى تصيح وتضربه بقبضتها وتصر على الخروج وقد طفر الدمع من عينيها وتصاعدت شهقاتها حادة مستغيثة ممزقة .

وعندئذ عيل صبر ريمون وعاوده البغض فسبها ولعنها وفتح لها الباب وطردها شر طرد .

وما ان اجتازت الحديقة واستدارت متخذة طريق البيت حتى جحظت عيناها وسمرت فى مكانها اذ شاهدت زوجها مقبلا عليها صامتا هادئا يلمع في مقلتيه الباردتين غضب هائل كظيم .

ثارت ثائرة الزوج واعتقد في زوجه الخيانة فعضته الغيرة بنابهـا وكبر عليه أن يجازى على حبه القوى واخلاصه الشديد بالخداع فلم يصح ولم يعاقب ولم يتكلم بل ارسل فى طلب جميع أفراد اسرة امرأته ، وبعد ان التأم جمعهم تقدم اليهم وقص عليهم ما كان وصارحهم بعزمه على طلب الطلاق !

وهكذا فقدت فلورنس المنكودة كل شيء : حبها العظيم وشرفها المقدس وكرامة اسرتها أى الماضى والحاضر والمستقبل ايضا !

***

وفى مساء نفس ذلك اليوم عثر الفلاحون فى النهر الصغير على جثة مشوهة طافية على وجه الماء تغمرها بعض الأزاهير والأعشاب !

القديس «١»

نشأ جان مارو فى أسرة فقيرة من والد يعمل في أحد المصانع ووالدة كانت فى مطلع شبابها معلمة صبية .

وما أن بلغ السادسة من عمره حتى أرسل به الى مدرسة صغيرة يتولى ادارتها جماعة من الرهبان فشب وترعرع والعقيدة الدينية ملء نفسه والايمان بسيطر علي قلبه والخوف من عذاب الآخرة يلازمه والرغبة فى الثواب تدفعه الى عمل الخير ما استطاع الى ذلك سبيلا .

كان يذهب الى الكنيسة كل صباح ويجثو تجاه الهيكل ويظل اللحظات الطويلة يصلى ويبتهل الى الله أن يمنحه القوة الروحية التى تمكنه من اجتياز طريق الحياة دون الحاق الاذى بالناس .

وكان طيب القلب رقيق العاطفة سريع التأثر لا تأخذ أبصاره مشهداً مؤلماً إلا ويخفق فؤاده حنانا ولوعة ولا تقع عيناه على فقير إلا وتمتد يده بالاحسان ولا يدب الشجار بين رفاقه إلا ويسرع اليهم فيقر بينهم التفاهم والسلام .

ولم يكن جان مارو ليشعر بالحياة كما يشعر بها الآخرون . بل لم يكن ليتحرك ويتنفس فى مثل الجو الذى يعيش فيه رفاقه من الاحداث والشبان . كان منصرفا بكليته الى صورة غير منظورة ، الى مثل علوى بعيد ، الى عالم من الصفاء والكمال غير هذا العالم ، الى دنيا من الرحمة والعدل والاخاء يحملها فى خياله ويضم عليها قلبه ويستوحيها عمله ولا يرى سواها كأنما هو يأبى إلا أن يمزج بينها وبين هذه الارض ويطبع الناس بطابعها ويجعل منها الحياة الصحيحة المنشودة .

وكان أساتذته يلقبونه بالقديس أما رفاقه فكانوا يهزأون به تارة ويحترمونه أخرى ويدهشون من قدرته على التأمل والتحصيل الطويل . غير انه لم يكن ليحفل

---

(١) ملخصة عن جان ماراليك

بهم أو يكلف نفسه عناء الاهتمام بسخرياتهم أبعد ما يكون عنهم وعن كل ما يحيط به من مظاهر الحياة.

وتغلغت التعاليم الدينية فى اطواء نفسه وتشربتها ميوله واهواؤه فكان يفرط فى الصوم حتى تتلوى امعاؤه من شدة الجوع و يفرط فى الصلاة حتى يغيب عن رشده ويفرط فى التسامح حتى يطمع الغير فيه ويفرط فى الاحسان حتى التجرد ويفرط فى العفة حتى الزهد المطلق والتنسك التام، وكل ذلك ليكفر عن ذنوب وهمية يخيل اليه انه ارتكبها أو ليكفر عن ذنوب حقيقية ارتكبها الآخرون ..

وهكذا كان يعيش أشبه بالضحية رافعاً آلامه وعذاباته الى الله مقدما نفسه فدية لسواه شاعراً بالسعادة في احتمال أوزار الغير ناعم البال مطمئن القلب صافى الذهن صفاء سحريا عجيبا :

وكان يخاف المرأة خوفه من الشيطان ويتمثلها مخلوقا ماكراً خبيثاً قد اجتمعت فيه كل الرذائل، ويتجنبها جهده ويسخط على المتعلقين بها وينظر اليها كأصل الشر ومبعث الغواية وسبيل كل تدهور وانحطاط

وكانت بنات الحى الذى يسكن فيه أعرف منه بالجانب الضعيف من نفسه فكن يبتسمن له ويتحككن به ويكشفن أمامه عن سواعدهن وسيقانهن ويقذفن فى وجهه بضحكات طويلة تهزه من منباته وتغلى الدم فى عروقه وتؤرقه الليل الطويل ..

ولم يكن أشق عليه من احتمال الليل .. كانت أحلام الشهوة تطوف به تحت جنح الظلام وتجثم على صدره وتصليه مر العذاب وكانت بنات الحى تتراءى له فى شفوف حمراء مشرقات الوجوه عاريات الابدان يلوح اليه البعض منهن تلويح الدعوة والاغراء ويستلقى أمامه البعض الآخر فى أوضاع منكرة رهيبة تفقده صوابه وتشعل فيه نار الحمى فيهب من فراشه مذعورا ويشعل المصباح ويتجه نحو النافذة فيفتحها ثم يرتمى جاثيا على الارض ويرفع بصره الى السماء المرصعة بالنجوم ويصلي !..

بذل جان مارو جهد طاقته في اخماد لواعج بدنه وخنق رغبات جسمه وكبح

ميوله وأهوائه حتى دب فيه الهزال وغارت عيناه و برزت أوداجه واصبح الى الهيكل العظمى أقرب منه الى الانسان .

وكان جميلا فزاده الهزال جمالا . وكان رقيقا فزادته النحافة ليناً وفتنة . وكان أسود العينين فى حدة بصر وجلال معنى ، دقيق الانف، مستدير الذقن ، مديد القامة كساه التعب والسهر والصلاة وفرط الصوم والنضال حلة قدسية تسترعى النواظر وتسترق المشاعر وتأخذ بمجامع القلوب

ولما أن بلغ العشرين من عمره وأتم دراسته والتحق بوظيفة فى احدى الشركات وطن النفس على تكريس حياته لخدمة والدته وتعزيتها عن فقد أبيه والعيش معها فى بيت ريفى مهجور بين كتبه وأوراقه بعيداً عن اللهو ، بعيداً عن الزواج ، بعيداً عن المرأة بعيداً ، عن العالم

وعبثا حاولت الام صرفه عن عزمه وعبثا زينت له الزواج فقد كان يتبرم بكل حديث تذكر فيه المرأة ويفزع من كل كلمة تذكره بغريزة النوع ووظيفة الحياة حتى أخضع والدته آخر الامر لرغبته وأنزلها على حكمه وأقنعها بان الانسان يتزوج ليحمل مسؤولية بضعة أشخاص ويستطيع أن يخدم بضعة أشخاص ولكن من الخير العظيم له ألا يفكر فى الزواج اطلاقا اذا كان يرغب فى حمل المسؤوليات جميعاً وخدمة أكبر عدد ممكن من الناس

وكانت مبادىء الانسانية والعظمة والاخلاص والتضحية تحتل قلب جان مارو وتتمكن منه وتسوده شيئا فشيئا

كان مغرما بتمثيل دور البطل والقديس، لا يلبث أن ينطلق فى المساء من محل عمله حتى يسرع فيطوف بشتى المخازن يشترى طعاما وفاكهة وخمراً وعرائس صغيرة وبيوتا من خشب وقطارات من صفيح وصفافير وأبواق ومعازف ثم يتأبط هذا كله وقد اشرق وجهه فرحا ولمعت عيناه السوداوان ويضرب فى الاحياء الشعبية البعيدة حيث يقطن العمال المساكين فيدخل بيوتهم ويجلس الى مرضاهم ويحادثهم ويواسيهم ويخدمهم ويداعب أطفالهم ثم يخرج بعد أن يكون قد ترك لهم كل شىء

وكان يجد لذة عظيمه فى هذه الحياة الليلية السرية التى لم يعرف بها انسان. كان يكتمها عن الجميع حتى عن والدته. وكان يبكى فى وحدته من البكاء كلما تذكر أولئك الفقراء وكيف ينقضون على الخبز واللحم انقضاضا. وأولئك الاطفال وكيف يصيحون ويهللون لمقدمه. وأولئك النساء التاعسات وكيف يقبلن أطراف ثوبه ويستمطرن عليه الدعوات الصالحات ويتبركن به كأنه حقا قديس أو نبى.

وكان يقتر على نفسه ليستطيع أن يحسن الى الغير. ويقتر على والدته ليشهد ظل ابتسامة على وجه فقير. وكنت تراه منطلقا الى محل عمله زري الهيئة رث الثياب محنى الظهر كشيخ متهدم يحدق الى الارض أبدا تواضعا منه واستسلاما وخشية أن تعصف به الكبرياء ان هو تطلع لحظة واحدة الى السماء وحاول أن يستشف من خلالها وجه الله!

ولقد اضطر الى الكذب على والدته وزعم ان مرتبه ضئيل فصدقته وكانت تقتصد وتقتر هى الاخرى حتى ضاقت فسحة حياتها وازداد قلقها على ابنها وحارت فى حياته من بعدها ويئست من حمله على الزواج فاصيبت بضرب من الحسرة الصامتة ظلت تحز فى صدرها حتى انتابها داء عضال تمكن منها وأودى بها.

وتلفت جان مارو ذات يوم واذا بالعزلة تكتنفه من كل صوب وجدران البيت تستقيم أمامه وتتعالى كجدران السجن. لا أنيس ولا سمير. لا محدث ولا رفيق. بل سكون دائم وتأمل متصل وصمت عميق.

حاول ان يغشى المجتمعات والاندية ولكنه تبرم بالناس حاول ارتياد دور اللهو ولكنه اشمأز ونفر. حاول أن يسرف فى المطالعة ولكن الضجر فاجأه، حاول أن يفرط فى زيارة الفقراء ولكنه شعر بفراغ فى نفسه لم تعد قادرة على ملأه لا ابتسامات المرضى ولا تهاليل الاطفال ولا عبارات التقديس ولا الدعوات الصالحات

عندئذ عاودته الشهوة. جاءه الشيطان حاملا خيالاته القديمة وأطيافه المنكرة جارا خلفه معرض الأبدان العارية راقصاً عليها مغريا القديس بها ضاحكا منه عابثاً به مستغربا حماقته مشعلا فى دمه نار الشهوة والحب.

ارتمى جان على أرض حجرته منهوك الأعصاب خائر القوى وطفق يصلى فى حرارة وتوسل وقنوط ويكرر صلواته ويضرب صدره بقبضته ويطلب الى الله أن يغفر له خيالاته ويعينه على طردها من مسرح عقله ويمنحه بعض الشجاعة وبعض القوة وبعض التمالك والهدوء .

ولكي يطفىء الشهوة المتمشية فى عروقه كسيل من نار صام النهار بطوله ولما أقبل الليل هام على وجهه فى الشوارع وظل يمشى ويمشى حتى مطلع الفجر وعندما احتوته جدران غرفته القى بنفسه على فراشه كجسم أفرغ من عصارته وحاول أن ينام ولكن أعصابه الضعيفة المتعبة تمددت وتوترت من فرط التعب فصارع النوم وصارعه وغالب الارق وغالبه فلم يستطع اغماض عينيه ولبث محدقا فى الفضاء وهو يلهث حتى تضاربت خواطره واختلطت خيالاته وانبثقت من جوفها المدلهم نفس الأطياف وتراكضت أمامه فصرخ صرخة هائلة وهب من فراشه وترك البيت وانطلق ثانيا يتسكع في الطرقات .

وشعر جان ان لا قبل له بمقاومة تلك الأشباح . أحس كأن دماءه قد سممت وكأن قوى عقله قد استنفدت وكأن روحه الملتهبة القديمة قد ابتردت وكأن شخصه المحمى المحصن قد انفتحت أبوابه لجميع الخطايا والآثام .

وأبصر نفسه فجأة فى حديقة عمومية فجلس على مقعد واعتمد رأسه بين يديه وراح فى تفكير طويل .

أراد أن يتحايل على شهوته ، أراد أن يخدع عقله ، أراد أن يصرع جسده ، أراد ان يتسامى بهذا الجسد وتلك الشهوة إلى أفق خيالى شعرى منقذ . فأمعن فى التفكير وأمعن فى الصلاة ونظر حوله فجأة وإذا بعينيه تأخذان عن بعد تمثال امرأة عارية نصب فى مؤخرة الحديقة وسط خميلة رائعة متهدلة الأغصان .

حملق فيها البصر وأحس بغتة كأن نورا ساطعاً يغمر عقله فأطرق لحظة ثم تنهد ثم قام وتحامل على نفسه ومشى الى التمثال وجلس على العشب عند قاعدته ورفع رأسه وحدق اليه !

شاهد امرأة جذابة الملامح ساحرة المنظر فى تقاطيعها فتنة وانسجام وفى محياها عزة واباء وفى عينيها سطوة وتحدى ، فاستوى على قدميه وأمسك بكتفيها العاريتين وظل يتأملها كأن فيها السر المبتغى والخلاص المنشود .

وازدهرت روحه فجأة وتفتقت أزهارها وانطلق من صدره الممزق شبه أنين

أحب هذه المرأة لأنها جمعت محاسن المرأة كلها ما خلا الدم والحركة والحياة . أحب هذه المرأة لأن في وسعها أن تشبع روحه دون أن تمتد فتنتها الى الجسد . أحب هذه المرأة لأن حبها خيالى مأمون العاقبة . أحب هذه المرأة لأنها كانت تمثالا من حجر !

وتأملها مرة أخرى وترقرق على وجه ضوء الفرح فاختلج وانحنى عليها وطبع على صدرها العارى قبلة صغيرة ملؤها الأجلال والتقديس .

واصبح هذا التمثال غاية حياته وعلة وجوده وعزاء نفسه وسلواها ، فكان يغشى الحديقة كل يوم ويجلس عند القاعدة ويحدق الى محبوبته ويبكى من فرط الراحة والطأنينة والهناء .

وأخذ يحدث زملاءه فى المكتب عنها و يفتن فى وصف تقاطيعها . و يغرب فى الكلام عن دقة صنعها ، ويزعم أنها خلاصة الفن العالى وصفوة الشعر والجمال .

وحدث ذات يوم وقد برح به الوجد ان اقتطف من الحديقة طائفة من الازهار وجلس ينظم منها عقداً لعشيقته وبعد أن أتم صنعه وطوق به جيدها فاجأه الحارس وانتهره وأراد أن يسوقه الى دائرة البوليس فصاح جان مارو فى وجهه وسبه فاجتمع عليه الناس وأحدق به الصبية ولمح أن الجميع ينظرون اليه نظرات طويلة غريبة أثارت أعصابه ولم يفهم لها معنى ...

واشتد به الولع فجاء بمصور ماهر ودفع له أجراً كبيراً وعهد اليه برسم التمثال ليحتفظ بصورة منه فى بيته ، يراها على الدوام ويناجيها على الدوام ويرقد فى سريره تحت رعايتها مطمئن النفس قرير العين هادىء المخيلة والاعصاب

ولكي يهب محبوبته نفخة الحياة ويدنيها منه ويحكم أواصر الغرام بينهما دعاها

« ماري » وطفق يحادثها ويناديها ويداعبها ويقبلها ويتحسس بياض صدرها وذراعيها كأنما هي قد أصبحت زوجه المعبودة وشريكه في هذه الحياة

ولكن جان المسكين جاء لنفسه بنعمة في طيها نقمة . كان خياله المشوش النابع من جسمه المحطم المريض يبالغ في تصويره الاشياء ويخرج بها عن حقيقتها ويصل بينها و بين ذات الفكرة الفاسقة من طريق خفي بعيد ...

كان وجود صورة التمثال بجواره أفعل في بدنه وعقله من مختلف أطياف النسوة العاريات مجتمعة !

كان يمر يده على التمثال فيخيل اليه أن أصابعه تجرى على جسم نسوى حي !

كان يحتضن صورة التمثال فتعصف به الشهوة وتقض مضجعه وتقلبه على فراش من نار .

كان يقبل صورة التمثال فينتشي لذة وهوى ويتداعى و ينطرح على الارض كالمغمى عليه .

طوح به أعصار الشهوة من جديد ودبت في تمثال عشيقته حيوية هائلة وطردت « ماري » جميع الخيالات والاطياف والرؤى وحلت محلها وسيطرت على أحلام الليل فكان لا يلبث أن ينام حتى تجثم على صدره بمفردها وتعتنقه وتتلوى عليه وتوسعه ضما وتغمره بالقبلات .

ادرك جان أن الشيطان غرر به وانه اخطأ في رسم التمثال والاحتفاظ بصورته تجاه السرير في مخدع نومه . فأخذ الصورة ولفها في وشاح من حرير ودسها في درج خزانة قديمة وظن أنه قد استراح . غير أن القلق عاوده والطيف المستبد لم يبرح خياله فقاوم واشتد في المقاومة وأصر على عدم اخراج الصورة والاكتفاء بزيارة الحديقة والتمتع فقط بمشاهدة التمثال الأصيل

ولكن ما أراده القدر كان !

تبدل التمثال فجأة وزايلته حرارته .

شحب لونه وتقلصت ظلال جماله .

تنكرت ملامحه وغادرها بهاؤها القديم

فقد التمثال سحره فى النهار وأمسى غير قابل للتأثير والفتنة إلا فى الليل ..

كان الظلام يرده الى أصله وكان يتخذ في الظلام صورة المرأة بلحمها ودمائها ونشاطها وحركتها ولون بشرتها واغراءات عيونها .

وازداد عذاب جان وضاق ذرعا بأحلامه وهواجسه ولم يعد في وسعه الاحتمال فاحس ذات مساء قبيل الفجر بميل غريب . بحاجة ماسة الى شيء جديد ، الى شيء محسوس حي ، فلم ينعم النظر فى نفسه ولم يفكر في حقيقة أمره وترك حجرته وهام كعادته فى الشوارع والطرقات الى أن ساقته قدماه الى حي من أحياء البغايا وهناك فى منعطف زقاق مظلم وعلى عتبة بيت مهدم ومن خلال أضواء كابية متراقصة لمح امرأة طويلة القامة عارية الصدر دقيقة التقاطيع فى محياها عزة وآباء فى عينيها سيطرة وتهكم فانتفض الشاب انتفاضاً عنيفاً وحملق البصر دهشاً وجمد فى مكانه وتوهم والعرق يتصبب من جبينه أنه يرى مارى بعينها . يرى التمثال الاصيل الساحر يختلج حماسة وشبابا ونضرة وحياة !

لم يتمهل . ولم ينعم النظر ، ولم يراجع نفسه بل تقدم مدفوعا بقوة لا تقاوم واجتاز الزقاق وجذب المرأة من ذراعها وصعد بها الدرج وهو كالمخبول

واحتوتهما الحجرة الضيقة ذات المصباح الخافت السقيم فانقض جان على البغى وروى بدنه الظامىء منها فخيل الى المسكينة أن جسمها يسحق سحقا وان هذا الرجل يفترسها !

ولما أن أفاق من نشوته وثاب الى رشده وشاهد فى أى مكان هو وبالقرب من أى مخلوق وفى فراش أى امرأة ، جحظت عيناه واندفق الدم الى رأسه واختلطت عليه الصور والافكار وأحس كل شيء يتهاوى أمامه ، حياته وآماله وكفاحه وبطولته ، فعز عليه أن يسخر به القدر الى هذا الحد فطفق يصيح ويبكي ويقتلع شعره ويضرب صدره بقبضتيه ويهذى هذيان مجنون ، ثم قام من فوره وترك للبغى حفظته بما فيها وانطلق يعدو فى الشوارع حتى أدرك الحديقة المشؤومة

وكانت المربيات تسوق عرباتهن والصبية يمرحون ويلعبون والشمس مشرقة والجو صحو والنسيم عليل فلم يلتفت جان الى أحد واقتحم باب الحديقة واخترق النساء والاولاد واتجه توا نحو الخميلة

وكانت مقفرة موحشة كصحراء فلم يكد يقع بصره على التمثال قائما وسط الاغصان المتهدلة رائعاً مهيباً جليلا حتى فقد صوابه واظلم الضوء فى عينيه وارتعشت شفتاه غيظا وكمدا وحسرة فرفع عصاه الغليظة وانهال بها على التمثال ضربا متواصلا قويا وهو يصرخ ويلعن وقد علا الزبد شدقيه وتألب الصبية والنساء عليه يزجرونه ويتجاذبون اطراف ثوبه ويستنجدون بحراس الحديقة عليه

ولما اقبلوا كان جان قد حطم التمثال وأفنى البقية الباقية من قواه فقبضوا عليه فلم يقاوم واستسلم لهم بين تهليل النسوة وهتاف الاولاد فاقتادوه وهو يهذى ويضحك ويبكى بكاء الاطفال

***

وفى صباح اليوم التالى شوهد جان مارو يبنى قصرا صغيرا من ورق فى العنبر الثالث من مستشفى المجانين !

العشق المحرم «١»

السماء حالكة السواد والريح تعصف وبوارق الرعد تشق الظلام والمطر يهطل والناس يتدافعون بالمناكب والبزابت تحاول جهد استطاعتها اقتحام صفوف السابلة كى تصل الى زقاق ضيق فى أقصى شارع كبير

اعترضها شاب متأنق غمز لها بعينه وعرض عليها سيارته فألقت عليه نظرة شزراء ودفعته بمرفقها ساخطة وانطلقت لا تلوى على شىء .

واصطدم بها آخر وكان شيخا مهدماً فابتسم لها واخرج محفظة نقوده وطارحها بعض عبارات الغرام فثارت ثائرتها وحدقت اليه لحظة ثم صفعته ومضت فى طريقها

وكانت رائعة الحسن ذات قوام ممشوق وعينين واسعتين ومشية خفيفة رشيقة تفيض عزة وقوة وشبابا .

وكانت الساعة قد بلغت الواحدة بعد منتصف الليل والجماهير خارجة من المسارح ودور السينما وكل امرأة متأبطة ذراع رجل ما خلا البزابت

اجتازت الشارع بعد جهد كبير ومظلتها فى يدها يترقرق الماء من جوانبها وابصارها مصوبة الى الزقاق وصدرها يعلو ويهبط كمدا وغيظا .

ولما ان بلغت الزقاق اتجهت نحو بيت عتيق مهجور وتطلعت الى الرقم ثم تنفست واستدارت ووقفت عن بعد تحت شرفة كبيرة فى زاوية حجبتها عن الانظار

وظلت هناك بضع دقائق لا تتحرك كأنما هى تمثال .

ومر الشرطى فلم يلحظها واستأنف السير ساكنا هادئا يطوح برأسه كالشارب الثمل .

وبعد فترة قصيرة فتح باب البيت المهجور وأطل منه رأس رجل ثم اغلق على

«١» مقتبسة عن جان ديسور

الفور وبعد لحظة اخرى فتح ثانية وخرجت منه امرأة قصيرة القامة ممتلئة الجسم متشحة الوجه بالسواد تلفتت حولها تلفت المذعور وانتظرت حتى اقبل الرجل فتأبطت ذراعه وهرول الاثنان يتخبطان فى الوحل و يبحثان عن سيارة

لم تكد تبصرهما اليزابت حتى اندفق الدم الى وجهها وسقطت مظلتها من يدها وأوشكت أن تصرخ وتعترض طريقهما ولكنها تمالكت نفسها والتقطت مظلتها ونشرتها ثم انطلقت من مخبأها كالسهم عندما رأت السيارة تحملهما وتختفى واصوات نفيرها المتقطعة تدوى فى الظلام

مشت بخطى عريضة ثابتة وأسنانها تصطك وأوصالها ترتعد ودمع الحنق يكاد يطفر من عينيها .

ولما ان بلغت الشارع الكبير استقلت هى الاخرى سيارة وقفت بها بعد قليل عند باب منزلها فى حى ارستقراطى منعزل من أحياء باريس

صعدت الدرج مسرعة واتجهت نحو حجرتها وشرعت تخلع ثيابها وهى تلهث وأحست قشعريرة باردة تدب فى اطرافها فدنت من الموقد وجلست على مقعد صغير ومدت قدميها العاريتين نحو النار وفى تلك اللحظة شعرت كأن يداً من حديد تقبض على عنقها فاختلجت ولم تستطع المقاومة فانهمرت من عينيها الدموع

ودقت الساعة دقتين فقامت اليزابت وعقدت شعرها وارتدت قميصها الليلى واندست فى فراشها وهى تئن وترتجف كشخص محموم .

ومرت بضع دقائق خالتها المسكينة دهرا . ثم طرق مسمعها صوت تعرفه يغنى أنشودة شائعة ويصفر فجذبت غطاءها وأخفت به وجهها وحينئذ فتح باب المخدع ودخل زوجها يختال ويتهادى

وانصتت فطرقت سمعها أيضا حركة باب يغلق وصوت شىء زجاجى يسقط على البلاط ويتحطم ، فعضت شفتيها وخنقت زفراتها ولم تجب على نداء زوجها بكلمة

وكان قد خلع ملابسه هو الآخر وارتدى بيجامته واندس بجوارها واحتضنها وجعل يلاطف محياها بأنامله ويضحك . فلم تكد تشعر بلمسه حتى انتفضت ودفعته

عنها فى عنف فأغرب فى الضحك وظنها تصطنع النوم لتداعبه وتغريه فعانقها بذراعيه الضخمتين وضمها الى صـدره وقبلها فى فمها وهى تصرخ وتضربه بجمع يدها وتحاول التملص منه

دهش (البير) من هذه المعاملة وارخى زراعيه وجمد لحظة وظل ينظر الى امرأته مبهوتا وقد لمعت فى عينيه المستديرتين الحادتين بارقة غريبة مبهمة . ثم اشرق وجهه وانبسطت ملامحه وابتسم لها واقبل عليهـا يترضاها بعبارات رقيقة معسولة ملؤها الطيبة والحب . ولـكنها هبت من فراشها وتدثرت بمعطف سميك وجلست تجـاه النار فترة قصيرة ساد فيها الصمت .

وقام البير ودنا منها وجثا عند قدميها فانحنت عليه وأخذت رأسه بين كفيها وتأملته طويلا ثم قبلت جبهته الناصعة وأجهشت بالبكاء

وتقاذفتها نوبة عصبية طاغية فارتفع شهيقها وتعالت زفراتها وجعلت تضرب وجهها بكفيها وتختلج وتتلوى وترسـل صيحات قصيرة مزعجة شبيهة بالعواء حتى خارت قواها فترنحت وسقطت بين ذراعى زوجها مسلوبة الحول

وفى تلك اللحظة فتح باب المخدع فى رفق ودخلت منه امرأة قصيرة ممتلئة البدن شقراء الشعر مجعدة التقاطيع زرقاء العينين عليها مسحة من جمال أكسبته الكهولة فتنة غريبة وجاذبية شهوية ساحرة

ما ان رأتها اليزابت حتى ثاب اليها رشدها فكفت عن البكاء فجأة ومسحت دموعها بكم معطفها ورفعت رأسها وحدقت اليها فى غضب هائل يمازجه الـكبرياء والتحدى .

ابتسمت المرأة ابتسـامه متهكمة خفيفة واستفسرت عما حدث واقبلت على اليزابت تطيب خاطرها وتنصحها بالاقلاع عن عصبيتها وتعدد لهـا فضائل زوجه وتشير عليها بطاعته فى كل ما يريد ، وتقول لها انها هى التى أبت ان ترافقهما الى السينما وان زوجها لم يذنب فى حقها حتى تغضب وتبكى وتملأ البيت صياحا فى هذه الساعة المتأخرة من الليل

وكانت المرأة تتكلم وهى تغدو وتروح مزهوة مختالة وشعرها الاشقر الذهبي يبرق في ضوء المصباح وصدرها عار حتي منبت نهديها وقيص نومها الابيض يشف عن تقاطيع بدنها الرخوة وعن ساقها المتألقة الممتدة في تناسب وانسجام كأنها قد صبت فى قالب من المرمر

ولمحت اليزابت أبصار زوجها تلاحق هذه المرأة وتستقر فى لهف واعجاب على الامكنة العارية من جسمها فكادت تصرخ وهمت بالفرار من الغرفة ولكن المرأة قهقهت طويلا وشرعت تثرثر وتمزح وتسوى شعرها المشوش . ولم تعبأ بما حدث وتقدمت الى منضدة التواليت وتناولت علبة البودرة ومسحت بالرشاش الابيض تجاعيد خديها وتعطرت وصففت شعرها وتحسست بيدها صدرها العاري وتطلعت إلى المرآة سعيدة مبتهجة راضية ثم استدارت وتخلعت فى مشيتها وأنت من فرط التعب والسهر ثم ارتمت على مقعد بالقرب من (البير) ووضعت ساقا فوق اخرى فبرزت مؤخرة فخذها العارية بضة رخوة مثيرة فاضطرب الزوج واشاح بوجهه وغشي الدم عيني اليزابيت واوشكت أن تصيح . ولكنها لم تكد تفتح شفتيها حتى كانت المرأة قد قبلت البير قبلة وداد بنوى عرفت كيف تجعلها طويلة عميقة ثم حيت الزوجين وضمت على صدرها أطراف قميصها ومشت الى الباب تتخطر وتتثنى كغادة لعوب فى مقتبل الشباب .

ولم تكن هذه أول مرة تظهر فيها تلك المرأة بهذا المظهر المنكر الوقح . كانت تسخر باليزابت على الدوام وتفتن فى ايلامها وتعذيبها وتجتهد ما استطاعت في التقرب الى زوجها واثارة حواســـه وميوله تارة بالحركة والاشارة واخرى بالضحك والابتسام والكلام .

كانت لا تكاد تشعر بان الزوجين فى خلوة حتى تدخل عليهما وتعكر صفو اليزابت . ولا تكاد تبصر اليزابت جميلة حتى تسرف فى التجمل والتبرج لتتفوق عليها . ولا تكاد تجلس فى صالون وتسمع امرأة تمتدح اليزابت حتي تكرهها وتغتابها. ولا تكاد تلمح الزوجين يتعانقان أو يتمابثان حتى تقطب حاجبيها وترتجف وتسرع

الى غرفتها فتطلى وجههـا بالمساحيق ثم تخرج رافعة الرأس مزهوة تختال فى ابدع واحدث اثوابها .

وكانت تفعل ذلك ببساطة غريبه وسـكون وفتور وعدم احتفـال مدفوعة بطبيعتها القوية ومزاجها المتقد ودهائها الغريزى وشهواتها المضطرمة التى ظلت تكبحها عشر سنوات منذ وفاة زوجها . لم تعرف الحب. ولم تجد فى الزواج أية متعة. وكان زوجها يعشق اخرى ويصدف عنها ويجيئها آخر الليل سكران معربدا يسبها ويضربها ثم يستلقى على فراشه وينام وهى بجواره ساهرة تئن وتتحرق دون جدوى .

وعندما أبلغوها ذات مساء ان زوجها وقع ميتا فى عرض الطريق عقب خروجه من حفلة ليلية ساهرة تعاطى فيها كميات كبيرة من الخمر ، تهلل وجهها ولمعت عيناها واحست كأن طريق حياة جديدة تفتح أمامها . فانطلقت تلهو وتمرح ما شاءت لها الحريه والشباب المكبوح .

وكانت تخشى الزواج لئلا تتجدد مأساة حياتها القديمة . كانت تخشى الزواج وتسعى وراء الحب .

كانت تطلب الحب خالصا من قيود الاستبداد ، مقترنا بالأمن والحرية، ممثلا في عاشق رقيق هادىء تراه كل يوم وتتحدث اليه كل ساعة ويغمرها عطفه وحنانه كلما احتاجت اليه ...

وافضى بها التفكير الطويل والخلطة الوثيقة والاغراء اليومى الى وجود العاشق المنشود فلم تحفـل بالقوانين والشرائع والعرف الاجتماعى واقدس العواطف الانسانية واحكمها صلة بالفطرة والقلب البشرى فجعلت تتودد اليه وتستميله وتفتن فى غوايته حتى اذلته وأخضعته وهام بها وكان لها منه ما تريد ...

***

تحركت البزابت فى مجلسها وهمت بالكلام . اوشكت ان تصارح زوجها بما رأته الساعة فى الزقاق المظلم. خيل اليها ان من واجبها ان تلقى بالحمل الثقيل عن صدرها دفعة واحدة وتستريح ، ولـكن كيف السبيل الى هذا ؟ امكن هذا ؟ افى وسعها النطق

بتلك الكلمات ؟ أفى مقدورها ان تاتى فى الشارع باقرب الناس اليها ؟ فى استطاعتها احتمال هذه الفضيحة ؟ لو كاشفت زوجها بالحقيقة لا نكرها وشفع كل انكار بقسم ، ولو صارحت بها تلك المرأة لسخرت من اوهامها او استنكرتها واصطنعت البراءة والسذاجة وامعنت فى البكاء والنحيب ! كيف تتخلص منها ؟ كيف تحتفظ بالزوج الذى ضاعفت الغيرة حبها له وحرصها عليه ؟ ! .

ولاح امام اليزابت طيف المرأة وهى تضحك وتنكت وتعرض صدرها الاملس اللامع وساقها العارية البديعة وتتبرج وتتعطر وتقبل البير فشعرت مرة ثانية كأن يدا غليظة تمتد الى قلبها لتنتزعه وجاهدت نفسها لتتكلم ولكن انقلابا فجائيا غريبا طرأ عليها واخمد الالفاظ بين شفتيها المرتعشتين

أحست بغتة شيئا من الهدوء المبهم يستولى عليها ويشيع فى كيانها ويملاءه نشوة فاترة قريرة لا عهد لها بها

أحست انها قوية وانها فائزة وانها استقرت فى النهاية على غرض بعيد مجهول

ولمع فى ذهنها الخاطر الشيطانى ثم انجابت عنه السحب فتألق فى مسرح خيالها واستوى امام ناظريها كانسان حى فتغضن جبينها وسرت فى بدنها رعدة ولكنها ابتسمت نصف ابتسامة ماكرة خفيفة والتفتت الى زوجها فطوقته بذراعيها وقبلته فى فمه واقتادته فى صمت الى الفراش وهو يتعثر باثاث الغرفة ويحدق اليها تحديق مذهول !

* * *

وكان منزل اليزابت محاطا بحديقة غناء بنيت فى احدى زواياها البعيدة شبه خميلة فسيحة يصعد اليه بسلم حجرى مرتفع ويطل الناظر منها على غابة مهجورة تموج بالاشجار والاخشاب والصخور

وكان من عادة اليزابت ان تقضى فى تلك الخميلة سويعات التأمل والحلم . ففى صباح ذلك اليوم نفسه أمرت بان يعدوا لها فى الخميلة طعام الافطار ثم خرجت حاملة بين يديها كتاب صلاتها الصغير واتجهت نحو السلم وصعدت درجاته فى بطء

واتزان وجلست هناك بين الاغصان والازاهير

وانهـا لمستغرقة فى المطالعة وافكارها ترف امام عينيها كسرب من الطيور السوداء احست وقع اقدام على الدرج وادركت انها هى .. قادمة كعادتها كل صباح تشاركها طعام الافطار وتتحدث اليها ايضا عن زوجها ... عن البير ...

وكان صدى خفق نعليها يدوي فى السكون الشـامل ويرن فى اذنى اليزابت ويقع على بدنها وقع المطارق ، فاغلقت الـكتاب وقبلته ووضعته بجوارها ثم ارسلت نفسا مستطيلا استجمعت به قواها وتهيأت لاستقبال الزائر المقوت .

وما ان لاحت المرأة على عتبة الخميلة حتى افتر ثغر اليزابت عن ابتسـامة حلوة رقيقة وتقدمت اليها فاخذت بيدها واجلستها بالقرب منها وراحت تتحدث وتضحك وتقص عليها أحسن النوادر والقصص كأن شيئا خطيراً لم يقع بالأمس .

واقتطفت وردة حمراء زاهية وثبتتها فى شـعر جارتهـا ولاطفت خدها باناملها وجعلت تقهقه قهقهة عريضة داوية .

دهشت المرأة من هذا التبدل العجيب وتأملت عينى اليزابت تستشف قرارة نفسها ولكنها لم تر غير السذاجة والطهارة والصفاء . وسرعان ما اطمأنت اليها واستأنست بها واخذت تضحك هى الاخرى ملء شدقيها ضحكات حرة طويلة هانئة

وقامت اليزابت وخطت بضع خطوات ثم اشرأبت بعنقها وصاحت فجأة ملوحة بذراعها تدعو المرأة لمشاهدة افعى كبيرة برزت هناك فى الغابة المهجورة بين الصخور

نهضت المرأة مجفلة واستدارت وأطلت من الحاجز الحديدى القصير وابصارها تنقب فى الغابة وصدرها يعلو ويهبط ويدها ممسكة بيد اليزابت

وحانت من اليزابت التفاتة فرأت عنقا ابيض ناصعا . وشعراً ذهبيا لامعا وبدنا ممتلئا شهيا و بشرة ناضرة صقيلة لم تشبها التجاعيد فطاش صوابها وتصاعد الدم إلى رأسها وتمثلت عذاباتها والآمها فجذبت يدها وتقهقرت بعض الشيء ثم مدت ذراعها و بكل ما تكنه نفسها من عواطف الحقد والحنق والانتقام دفعت المرأة خارج الحاجز فصرخت صـوتا هائلا وهوت فوق الصخور والاشـجار فشج رأسها وتهشمت

اعضاؤها وسبح جسمها في بركة من الدم .

ما ان شاهدت اليزابت هذا المنظر حتى جحظت عيناها وانخلع قلبها واصطكت مراشفها وادركت فظاعة ما اقترفته فحجبت وجهها بذراعها وهبطت الدرج مسرعة وانطلقت تعدو فى الحديقة كمجنون تطلب النجدة والغوث .

واحدق بها الخدم فانبأتهم بما وقع فهرعوا توا الى الغابة وحملوا الجثة الشوهاء وصعدوا بها الى البيت وفيما هم يقتربون من الباب الكبير اذا به يفتح فجأة ويخرج منه البير بثوبه الليلى منفوش الشعر زائغ العينين تائها مذهولا كغريق ضائع تتقاذفه الامواج !

والقى على زوجه نظرة حادة قصيرة فارتعدت وغضت من ابصارها فزفر زفرة عميقة وادرك كل شيء .

واعتبرت الحادثة قضاء وقدرا . وفى عصر ذلك اليوم المشؤوم وفد الكاهن وصلى على الجثة ثم حملت ووضعت فى تابوت اختاره البير كتابوت العذارى ابيض رائعا مزخرفا نقشت عليه صلبان ذهبية صغيرة تحف بها الاكاليل والورود

ولما ان فتحت المقبرة واودع فيها التابوت لم يستطع البير كتمان عواطفه فاختلج اختلاجا عنيفا وسقط بين رفاقه مغميا عليه . اما اليزابت فلم تذرف غير دمعة واحدة على قبر امها ! . . .

* * *

ومضت الايام والسنون واعتادت اليزابت زيارة القبر صحبة زوجها لوضع اكليل من الزهر الاحمر عليه

وفى كل مرة كان البير يحمل الاكليل بنفسه ويضعه على القبر بيديه ويبكي وهو يتمتم صلاة قصيرة حارة لا يكاد يفرغ منها ويتطلع الى اليزابت حتى تشعر من لمعة عينيه القاتمتين انه ما زال يبغضها ! ..

جسم وقلب «١»

اتجه فرنان الى النافذة وسرح ببصره فى الافق البعيد وارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة . وبعد أن تملى من مشهد السماء الصافية تنحل غيومها الخفيفة وتتبدد كأن لم تكن ، كر راجعا الى مكتبه واعتمد رأسه بين راحتيه وأطلق لفكره العنان.

ذكر الايام الاولى التى تعرف فيها الى جورجيت وكيف كانت فتاة طائشة لعوبا تعمل فى مصنع قبعات فأحبها واقترن بها وانقذها من مخالب الفاقة وفتح لها ابواب الثروة والنعيم .

كانت جورجيت اذ ذاك مخلوقا اثيريا لطيفا ، حلو المعاشرة ، فكه الحديث ، طلق النفس ، فى عينيه البراءة الأولى التى يقف حيالها الرجل خاشعا مفتونا ، وفى جبهته العريضة ذلك النصوع الأصيل الصادر عن قلب طاهر وروح فتية ملؤها الآمال والاحلام .

شغف بها لفرط ما وجد فيها من فضائل تناقض أشد المناقضة ما اصطلحت عليه بيئته من حياة . كانت هذه البيئة مترفة لاهية فاسدة العواطف وضيعة الميول مسممة بضرب من الكبرياء الوقحة المشوبة بحب الذات ، وكان فرنان يمثل بيئته ابلغ تمثيل ويحيا حياة الكسالى العاطلين ، لا هم له الا السهر واللهو وتبذير المال والتقلب من ذراعى غانية الى احضان أخرى

فلما التقى بجورجيت الفقيرة المعدمة التى تعمل سحابة نهارها لتعول اما عجوزا وثلاث اخوات تكشفت له الطبيعة البشرية عن جانب كان يجهله ، فادرك معنى البساطة وقدر عيش الجهد والكفاح وأوشك ان يفهم عظمة الفقراء ويحتقر نفسه ويبغضها.

وساعد جمال الفتاة على الهاب هذه العواطف فيه ، وضاعفت سذاجتها سلطانها عليه فعافت نفسه تقاليد طبقته وتاق لتبديل جو حياته بصحبة هذا المخلوق الصغير الذى

---

(١) مقتبسة عن روجيه مارتن

لم تقع عيناه الاعلى كل ما هو نبيل

عرض عليها الزواج فذعرت وخيل اليها انها مكيدة يدبرها كالآخرين ، ولكن فرنان كان شريفا وكان صادقا وأبيا فلم يعبث ببراءتها ولم يحاول الفوز منها بشيء بل استقدم نفرا من رفاقه ذات صباح وذهب فعقد عليها وتم قرانهما فى كنيسة متواضعة فى احدى قرى باريس

وكانت حياة زوجية سعيدة لم يحلم بها فرنان ، حياة هادئة تنطلق فى مجرى لامع صاف . حياة أشبه بحلم عذب طويل أو بتأمل فاتر عميق ليس له انتهاء

احس فرنان ان الشعر الذى طالما نزعت نفسه اليه يسود جو بيته وينبثق يوميا من عينى هذه المرأة ويغمر شيئا فشيئا أفكاره وعواطفه وتطوراته ونظرته الى الحياة

وقابلت جورجيت هذه النعمة بكل ما في فطرتها السليمة من وفاء واخلاص، ثم اشتد اخلاصها وتضاعف اعجابها واستحال تقديرها لزوجها على مر الزمن الى حب قوى صحيح .

أجل كانت تحبه . بل هى ما تزال تحبه . انها لترتعد غراما تحت وابل قبلاته .. انها لتنظر اليه نظرات تفيض حنانا يذيب منه القلب ويأسر الروح .. انها لتخاطبه بلهجة ملؤها الوداعة والخضوع كأنها عبدة له .. انها لتشرق على عقله ونفسه كسيل من نور يتدفق من عالم الهى . انها تحبه . اجل تحبه . ولكنه مع ذلك غير سعيد ... فقد سعادته الأولى . لم يعد يشعر بذلك الاندماج الوثيق الذى اتسمت به الاعوام الماضية . ان رجولته ظمأى الى الحب . ان بدنه لم يعد يرتوى منها .. انها قريبة بعيدة .. حارة باردة . متأججة خامدة . جسمها ملتصق به وروحها غائبة عنه . الحب يتألق فى حديثها وأشاراتها ولفتاتها وجوهر عينيها ولكنه يكاد يهم بالفرار من بدنها كلما اتصل بها وكلما ضمهما الليل فى هدأة من هدءات الهوى . انها لا تحبه. اصبحت لا تحبه . ومع ذلك فهى تحبه . وهو يتعذب . يتعذب لهذا التناقض الغريب. ماذا وقع وأية قوة خفية بدلت من شخصية امرأته وما هو ذلك السر الذى جعل منها انسانا جديدا لا يمت الى الآخر بصلة ؟

هذا ما كان فرنان يفكر فيه وهو جالس الى مكتبه جلسة رجل صرعته الحيرة وبرح به الألم وانهارت دعائم حياته امام عينيه

وفجأة فتح البـاب ودخلت امرأة ممشوقة القامة منسجمة التقاطيع لينة الحركة ذات انف مستقيم وشفتين دقيقتين وظل غامض ضعيف يجلل محياها وينم عما يحمل صدرها من هم دفين . وكانت ترفل في ثوب من الحرير الابيض وعلى رأسها قبعة كبيرة تتهدل منها ورود حمراء وفى يدها قفازها الطويل الابيض ومظلتها القصيرة الوردية اللون رسمت عليها بعض وجوه يابانية رائعة الجمال

رفع الزوج رأسه وحدق اليها وما كاد يبصر امامه هذا الهيكل الناصع البياض المتقد نضارة وشبابا وحياة حتى رجف قلبه وعض على شفتيه وارتد بصره كليلا حسيرا واطرق وجعل يعبث بصفحات كتاب ولم يتكلم .

وساد الصمت لحظة واخذ النسيم يداعب ستار النافذة وينعش الغرفة وكأنما هو يروح عن نفوس اصحابها

وفى هدوء لين ، وبخطى رشيقة خرساء تقدمت جورجيت من زوجها وطوقت رأسه بذراعيها وطفقت تقبل شعره الاسود الناعم ويدها الصغيرة البضة تمسح خده الشاحب وتلاطف شاربه المموج وتضمه الى صدرها فى رفق كما تضم الأم الرؤوم وليد احشائها .

وغمر الحنان فرنان وشعر مرة أخرى باندفاقات هذا الحنان ولكنه شعر فى نفس الوقت بفراغ هذا الحنان من تلك الشعلة المجتاحة المندلعة من جسد صادق العشق مشبوب الحواس فالتمعت عيناه ودفع زوجه واختلجت أعضاؤه واجهش بالبكاء

ولكن جورجيت لم تتكلم بل أمعنت فى ضمه وامعنت في ملاطفة وجهه وامعنت فى تقبيله . كان يتوقع منها ان تصرخ ، ان تنطق بكلمة ، أن تسرى عنه ، ان تلقى عن كاهله هذا العبء الثقيل ، فلما شاهدها مضطربة حيرى تلوذ بالأعيب انوثتها وتريد ان تخفى تحتها الفاجعة الاليمة التى تفصل بينهما ، عيل صبره وثارت أعصابه فدفعها ثانية عنه وقام من فوره وخرج لا يلوى على شىء .

اتبعته النظر وهو خارج وبعد أن أوصد الباب احست جورجيت كأن قلبها ينتزع انتزاعا فاستسلمت لعواطفها بدورها وتركت دموعها المحتجزة تنسكب على خديها طليقة غزيرة بكماء .

وشاءت الصدفة الساخرة ان تجلس جورجيت حيث كان زوجها الساعة وأن تعتمد رأسها بين راحتيها كما فعل وان تطلق هى أيضا لفكرها العنان .

ذكرت سعادتها الاولى وما انتهت اليه اليوم ، ذكرت ولاء زوجها ووفاءه والنعمة التى جاءتها على يده والترف الذى حباها به وفرط اخلاصه وحبه ورعايته ، ذكرت كل هذا ثم تلفتت واذا بحياتها الراهنة تستيقظ بغتة وتحتل خيالها وتستوى أمامها كشبح مخيف يضحك ثم يبتسم ثم يتوعد .

وعندئذ .. عندئذ فقط صرخت جورجيت من اعماق نفسها وارتفعت شهقاتها ودوت فى انحاء الغرفة تمزق حجاب الصمت .

وكانت فترة احست المرأة فيها ان لا بد من الاقدام على شىء ، لا بد من القيام بعمل فاصل سريع يخلصها مما تعانى ويردها الى زوجها المسكين وينقذ البيت من الدمار فكفكفت دموعها وسوت بيدها خصلات شعرها ، وقامت تتأهب للخروج ، وفى تلك اللحظة طرق سمعها وقع خطى خفيفة تتقدم على مهل ، فجمدت فى مكانها وشخصت بأبصارها الى الباب واذا به يفتح فى رفق ويدخل منه شاب اسمر اللون عريض الاكتاف وضىء الطلعة يحمل فى يده وردة كبيرة يتنشقها طويلا ويبتسم

ما أن رأته جورجيت حتى ارتمت على المقعد خائرة القوى ثم لوحت له بيدها أن ينصرف وهى تشير الى الحجرة المجاورة اشارات متعاقبة ملؤها الذعر . ولكن الشاب لم يحفل وتقدم اليها ثابتا والابتسامة لا تفارق محياه ثم انحنى عليها واسر اليها ان فرنان شقيقه قد خرج وان لا أحد فى البيت وانهما فى خلوة قد لا يسعدهما الحظ بمثلها الا بعد ايام طوال .

صعدت جورجيت نفسا مستطيلا ورمقت جورج بنظرة فارتعشت وأحست

كأن الدم يغلى فى عروقها وكأن حيوية جسمها تتجه برمتها نحو هذا الشاب وتناديه وتطلبه .

وتأملته وقارنت بينه و بين أخيه . اخذتها منه روعة أكتافه العريضة ووثاقة تركيبه وحدة نظراته وعضلاته المفتولة ولونه الاسمر الغريب فشعرت بالنشوة تدب فيها وبالألم اليومى يجيش فى نفسها الحائرة و يمزق قلبها تمزيقا

كانت تحب هذا الشاب وكانت تحب زوجها ايضا ..

وقعت عيناها على جورج لأول مرة منذ ثلاثة أشهر عقب عودته من المستعمرات الافريقية فأحست أمامه كأن وحدة كيانها البشرى تنفصم وكأن الجزء المتقد الحى من شخصها يفر منها ويلحق بهذا الشاب .

و بدأت تشعر نوعا من الفتور حيال دعابات زوجها و بدأ جسمها يتقلص تحت ملمسه و بدأت تروغ منه وتتجنب الاتصال به وتصطنع التعب والمرض لصرفه عنها والتخلص من تأدية واجبها الزوجى

ولكن فرنان كان يباغتها ويضيق عليها الخناق ويقضى منها مأربه فكانت تخضع مستسلمة صاغرة ثم لا تكاد تخلو الى نفسها حتى تستنكر ضعفها ويعتريها خجل من جسمها وينقلب هذا الخجل الى نفور شديد من زوجها سرعان ما تحول الى شبه عداء وكره خفى عميق .

ولما ان أحست هذا الكره يتمكن منها ويتأصل فيها استهولته وذكرت جميل زوجها والساعات الحلوة التى قضتها بجواره والغرام الشائق الشعرى الذى بادلته إياه فاستفاقت فيها عواطف الماضى وكبحت جهدها شهوات الحاضر ، ومن هذا النضال المطرد العنيف تولد فى قلبها من نحو قرينها ضرب من الحنان اشتد تحت ضغط الحيرة والقلق والعذاب واتخذ جميع مظاهر الحب وأصبح عشقا مبرحا طاغيا ولكنه العشق المجرد البرىء الذى يصيب الرجل فى كرامته ويطعنه فى صميم رجولته ، العشق الخالص المنزه النابع من الروح دون الجسد .

وكانت جورجيت تشعر ابلغ شعور وأوفره بهذا التوزع في شخصيتها . بهذا الانقسام المنكر الجنائي، تشعر بقلبها المتجه صوب زوجها وجسمها المتجه صوب حبيبها ، فكانت تتلوى غيظا وكمدا وحسرة وعجزا ، وكان هذا الالم يضاعف حبها لقرينها ويزيدها حنوا عليه ويدفع بها لمواصلة النضال ويغريها من حيث لا تدرى بالتخلص من كل هذه العذابات في احضان جورج ...

ولقد طالما فكرت في استعداء الزوج على شقيقه والدس له وايغار صدره عليه كي يقصيه عن البيت ولكنها لم تستطع لأن نداء الجسم كان أقوى فيها من نداء القلب ، ولأن اسرافها في العطف على زوجها والحنو عليه وتجنب الاتصال الحميم به ، ضاعف من سلطان شهواتها وأرغمها على التشبث بوجود الرجل الذى أيقظ فيها هذه الشهوات ، وعلى ضرورة النظر اليه يعيش ويتحرك ويلهو ويضحك أمام عينيها ! .

على انها بالرغم مما عانته من ألم ، كانت تقاوم وتأبى التسليم وتخادع بدنها ما استطاعت وتبذل قصاراها في اقناع نفسها بأنها ماتزال على عهدها لزوجها وانها تحبه وان هذا الحب متأجج فيها ، تلمس آثاره في عواطفها المحتدمة وفي قلبها الممزق وفي عطفها الشديد وطيبتها البالغة وحنانها الكبير

ولم يكن يعذبها احساسها بازدواج شخصيتها فقط ، وبتوزع غرامها بين زوجها وحبيبها فحسب ، بل كان لا يسعها ان تتصور انها قد تخدع زوجها مع أقرب الناس اليه واوثقهم صلة به واقربهم الى فؤاده بعدها . مع شقيقه الذى تربطه به رابطة الدم والحياة

غير ان هذه الرابطة نفسها كانت بمثابة إغراء قوى لها . اغراء ممثل في رجل يحيا بجوارها تتحدث اليه وفق هواها وتراه متى شاءت وتخرج برفقته على الدوام ولا يمكن ان تحوم حواليه الشكوك .

هذا الاتصال اليومى الساحر ، وهذه الطمأنينة الجذابة الغادرة ، وتلك الحيرة الحنون ، وذلك العذاب المر الطويل ، جميع هذه العوامل ظلت تندس في صدر جورجيت وتنمو وتختلط وتتدافع حتى أضنتها وزعزعت فيها قوى النضال وخلقتها

فريسة اليأس وأطمعت فيها القناص الماهر

وها هى امامه وجهـا لوجه . وانفاسه تغمر محياها ، وكلماته تترقرق فى أذنها ، وذراعه قد التفت حول خصرها ، يطيب خاطرها ويهدىء من روعها ، ويستنهض همتها ، ويسر إليها أن زوجها لن يعود اليوم وأنه أشار عليه بملازمتها ، وانها فرصة سانحة يجب أن تنتهزها ، وان تعيش وتسعد وتفهم فى النهاية انهـا تحبه هو ، هو لا سواه . تحبه بمفرده الحب القوى الصحيح الجدير وحده بكل بذل وتضحية .

وكانت تنصت اليه وصوته المتموج الرقيق يفتنها ، وعباراته الحارة تنحدر من فمه الجميل وتسرى فيها مسرى الحمى ، فرفعت يدها ومست جبينه وجعلت تلاطف شعره وخديه ، ولما أن ثارت ثورته فاعتنقها واوسعها ضما وتقبيلا وشعرت بذراعيه القويتين تهصرانها هصرا تراخى جسمها وانحلت عضلاتها ودارت بهـا الارض فلم تعد تعى على شىء !

افاقت من غشيتها وتلفتت حولها واذا بها مستلقية على المقعد المستطيل محلولة الشعر مشوشة الهندام في حال يرثى لهـا وجورج جاث بجوارها يطوق رأسها ولا ينفك يسكب فى اذنيها حديثه العذب . فتصورت ما وقع وما اقدمت عليه فوثبت من مكانها ودفعت الشاب عنها فى عنف ناسية ما شعرت به بين ذراعيه صارخة فى وجهه صرخات مزعجة متقطعة مشـيرة اليه بالانصراف ، وقد تصلب جبينهاوامتقع لونها وأوشك الدمع يطفر من عينيها .

وخرج جورج وأوصدت خلفه الباب واحكمت اغلاقه ثم عادت فارتمت على نفس المقعد المستطيل وهى تزفر ، وشرعت تتأمل وتحدق الى هذا الحدث الجديد الذى بدل حياتها .

واستدارت بغتة فوقع بصرها على صـورة لفرنان موضوعة ضمن اطار صغير مذهب الاطراف فنظرت اليها وانقبض صدرها وشعرت كأنما هي تنظر الى رسم مخلوق غريب ، اجنبي ثقيل دخيل ، لم تعرفه ولم تعاشره ولم تقاسمه أيامه ولياليه ولم يكن فى يوم من الأيام موضع غرامها الاول البرىء .

ذعرت أشد الذعر وقامت فتناولت الصورة وجعلت تنعم النظر فيهـا ولـكنها عبثا كانت تحاول اصطناع الشعور ولو بطيف ذكرى الماضى السحيق . خيل اليها ان قلبها نفسه ، قلبها الطيب الحنون العطوف قد انحرف عن هذا الرجل . وانسلخ من هذا الهيكل ، واستقر مع جسمها بين احضان ذلك الشاب . . .

واغمضت عينيها لتستعيد فى خلالها تلك النشوة التى لم تشعر بها عمرها فارتعدت أوصالها وانطلق من فمها شبه أنين وأوشكت تدرك ان جورج قد سيطر على كل شىء فيها وان حبها لزوجها قد مات . ولـكنها طاردت هذه الفكرة واختبل بها عقلها وها لها ان تخدع زوجها ثم تسلبه فوق ذلك آخر ما بقى فى نفسها من حب له ، فهزت رأسها غير مصـدقه وعولت على الصبر والانتظار ريثما يعود فرنان فتمتحن قلبها امامه وتقرر عندئذ مصير حياتها

ومكثت فى حجرة المـكتب حتى ما بعد منتصف الليل

لم تجسر على الخروج ، لم تجسر على رؤية جورج ، بدأت تحبه وتخشاه ، وتحس فى قرارة نفسها انها لو التقت به وعاد فسألها شيئا فمن المحال ان تخيب سؤله ومن المحال ان تعصاه ومن المحال ان تتردد فى طاعته لحظة واحدة .

وكانت تروح وتغدو فى الحجرة تعد الساعات وتستعجل القدر وتخاطب افكارها وتصيح وتهذى وترقب من خصاص النافذة مقدم الزوج

ودقت الساعة دقة واحدة ولم يشـأ جورج الدخول عليها فأوى الى مضجعه وفتحت هى الشباك وأطلت ، وعلى حين فجأة لمحت شبح فرنان يتقدم على مهل مخترقا باب الحديقة مجتازا الممشى الطويل صاعدا الدرج فى بطء وتثاقل وتعب

فتحت له الباب واستقبلته باسمه متهللة وفى خفة ورشاقة وعطف اقتادته الى نفس حجرة المـكتب وجذبته بالقرب من المصباح وعقدت ذراعيها حول عنقه وتطلعت اليه صامتة تستفسر عينيه عن سر حبها العظيم وعما بقى الآن منه ، فتأفف وتململ ولوى بوجهه عنها فأطالت التحديق اليه فشاهدت رجلا مغضن التقاطيع مربد الملامح بارز الأوداج محنى الظهر مهدما محطما ، فاقشعر بدنها وتراجعت واجست

لأول مرة هبة اشمئزاز عميق تندفق من صدرها وتخنقها ، فارتاعت وأيقنت صدق ظنها واشرفت على ختام حياتها الفاجع فصرخت صوتا هائلا وانطلقت تعدو الى مخدعها

وبهت الزوج لحظة . ولفرط حزنه وهمه وتبرمه لم يبال هـذه الصرخة وتنهد وأخرج علبة سجائره وتناول منهـا لفافة . وانه ليهم باشعالها واذا بطلق يدوى في الغرفة المجاورة وشيء ثقيل يسقط فانتفض الرجل والتمعت عيناه وأسرع من تلقاء نفسه الى مخدع زوجه فاصطدم بأخيه مقبـلا عليه وبالباب الموصـد فعالجه فلم يفتح فدفعه بكتفه ودخل ولم يكد يتقدم حتي تعثر بجثة امرأته نصف عارية منطرحة على الارض مضرجة بدمائها .

وهكذا انتهت حياة المسكينة جورجيت فدفنوها عصر اليوم التالى ودفنوا معها سر جريمتها ، ولم يعلم الزوج أبدا ان شقيقه هو الذى احياها وهو الذى قتلها !

المجرمة «١»

مالت الشمس نحو المغيب واصطبغت السماء بالوان ارجوانية زاهية وسرى نسيم عليل داعب وجه لورانس فتنهدت وحدقت ببصرها الى الافق البعيد .

وكانت امرأة فى الخامسة والاربعين من عمرها شقراء الشعر زرقاء العينين حديدة البصر ضيقة الجبهة فى صلابة وعناد وكبر صارخ يشوبه كثير من الجرأة والوقاحة والتحدى . وكان الناظر اليها يلمح بين زوايا عينيها تجعدات الكهولة وفى تقاطيع جسمها الرخو بوادر الترهل وفى حركاتها ولفتاتها شيئا من الغيظ والحسرة والحنق .

وعلى الرغم من ذلك فقد كانت جميلة شهية مغرية ، وكانت تعرف فى جسمها هذا السحر وتدرك انها تجتاز المرحلة الاخيرة من حياة الفتنة والحب فتسرف فى الخلاعة وتسرف في التبرج وتسرف فى اصطياد افئدة الرجال قبل ان تهبط بها الشيخوخة وتعجل بفنائها .

رفعت رأسها وسوت بيدها خصلات شعرها المتطاير ثم تناولت قدح الشاى وأدنته من شفتيها وهى ترتجف

ولما أنعشها الشراب وعاودتها الحيوية شرعت تتأمل فى مصير حياتها .

لم تعد تملك شيئا . الدائنون يطاردونها واملاكها قد حجز عليها ، وهذا البيت الجميل سوف ينتزع منها

لم يعد فى وسعها مسايرة المودة واقتناء السيارات ، والظهور فى الحفلات الكبيرة ومكايدة الاتراب ، والتألق فى صالونات باريس كالنجمة الرائعة العزيزة المنال .

بالامس كانت ملكة اللهو والحب فأصبحت اليوم وحيدة ذليلة مطاردة

بالامس كانت موضع الاعجاب ورمز الترف وغرض الشباب فأصبحت اليوم عاجزة مقهورة تتخبط بين جمال مدبر وفقر مدقم يوشك أن يردها الى حياتها

«١» مقتبسة عن جان ربي

البائسة الأولى ويتحالف والشيخوخة على القضاء عليها شر قضاء

بالامس كانت تطرد المعجبين والعشاق وتقسو عليهم وتمعن فى التنكيل بهم فاصبحت اليوم وليس بالقرب منها غير عشيق واحد . واحد فقط . بدأ يتبرم بها وينفر منها ويتوعدها بالهجران وتذهب به الجرأة الى حد مساومتها على أعز شيء لديها . على الصق الناس بها . فلا تكاد تغضب ، ولا تكاد تلتمس اليه أن يثوب الى رشده حتى يكشر لها عن نابه ويعود فيتهددها بالرحيل فلا تمالك من ان تطيب خاطره وتعده خيرا وقلبها يتمزق يأسا وكمدا ولوعة

لقد أفرطت لورنس فى حيازة اسباب الترف ، وكانت تبذر وتنفق بلا حساب ، وتعول طائفة كبيرة من أنصاف الحرائر وتفصل اثوابها عند اشهر الخياطين ، وتقيم فى صالونها الفخم وامتع السهرات ، وتعتقد فى خفة ورعونة وطيش ان هذه السعادة دائمة وان الحظ ان يتحول والدهر لن يتنكر و ينبوع الثروة لن يجف ما دام فى النفس البشرية حماقة وفي الدنيا الواسعة رجال

وهكذا عاشت لورنس منذ أن توفى زوجها حتى اليوم . عشرون عاما قضتها فى الحرية الفاسقة والرذيلة المروعة تتقلب من يد الى يد ، تفتن الرجال وتشرد النساء وتهدم البيوت وتبدد الثروات أولع ما تكون بالشر تبذر بذوره فى كل مكان

ولكنها كانت حمقاء . كانت الحماقة البشرية متأصلة فى نفسها هى أيضا . لقد عرفت كيف تستغل حماقة الرجال . ولكن هذه الحماقة استولت عليها من حيث لا تدرى وغلبت عليها حسادها وأفقدتها عشاقها وأقصتها عن الجميع واحالتها مخلوقا تاعسا شقيا يجب أن يطعن فى حبة قلبه ويتقبل الطعنة راضيا صاغرا كى يستطيع أن يتنفس ويعيش !

لماذا لم تحسب حساب المستقبل ؟ انها اليوم فى أشد الحاجة الى المال ، لا بد لها منه وليس فى وسعها الحياة بدونه . هذا الترف الذى الفته كيف تنصرف عنه ؟ وهذا النعيم الذى تقلبت فيه كيف تحرم منه ؟ ينبغى أن تسترد املاكها وتتحرر من دائنيها وتستعيد نفوذها القديم . ينبغى أن تخطر ثانيا فى الصالونات كملكة . وينبغى ان

تصيب حسادها فى الصميم ، وينبغى أن تقبض من جديد على ناصية الثروة وتخضعها وتحرص عليها وتعرف كيف تحتفظ بهـــا للبقية البـاقية من ايامها الغادرة المـكفهرة السوداء

وهذه الثروة الطائلة الجسيمة . انها هنا . على مقربة منها . فى متناول يديها .. ما عليها الا أن تتشجع وتسعى اليهـا . ما عليها الا ان تخنق صوت ضميرها كى تفوز بها . ما عليها الا أن تستخدم ارادتها الجبارة وعنادها القاسى وما اودعته للهنة في نفسها من وسائل الاغراء كى تذلل المستحيل وتحقق رغائبها وتطمئن الى المستقبل وتسود فتبتسم للحياة

اجل . يجب أن تقدم على هذا . أن فى المسألة موتها أو حياتها فيجب ان تنشط ويجب الا يقف فى سبيلها شىء !

جالت هذه الخواطر في ذهن لورانس مختلطة متدافعة وانها لفى غمرة التفكير وإذا بالجرس يدق وباب الشرفة يفتح وشيخ متأنق اصـلع الرأس محدودب القامة كبير الانف متسع الحدقتين دميم الوجه يدخل على مهل ويتقدم اليها بخطى وئيدة وينحنى فيلثم أناملها

قال وهو يربت ذراعها بكفه المعروقة الضامرة :

— هل خاطبتها ؟

فنضت لورنس من بصرها وتمتمت :

— لم أصارحها

فابتسم الشيخ وهز رأسه معاتبا مؤنبا وقال فى رفق :

— يجب أن تسرعى . ان ذلك فى مصلحتك . هذا أكبر دليل على اخلاصى لك . فكرى فى مصـيرك . فكرى فى مستقبلها . لا اخفى عنك انى احبها . نعم احبها ولا ادرى كيف تمكن هذا الحب مني لن اضن عليها بشىء . كلمة واحدة منها وتصبح الفيلا ملـكالها وكذلك السيارة والبيت الريفى الجميل . لن يكلفك هذا الامر شيئا . ارشديها الى ما فيها مصلحتها .

افتحى عينيها على الحقيقه . انقذيها من احلام الشباب . ان غرام الصبا سرعان ما يذبل و يموت مخلفا وراءه شبح الفاقة والذل . المثلك يجب أن أقول هذا ؟ اقنعيها وشجعيها وبددى اوهامها وثقى بانى ان انسى علاقتنا ولن اتخلى عنكم ما حييت

وكانت لورنس تنصت اليه وهى تتأمل فى صمت رأسه الأصلع وقامته المحدودبة واصابعه المرتعشة و وجهه المصفر وغضونه المجتاحة وانفه السكريه الغليظ

لم تأنف ولم تتقزز بل شعرت كأن هذا الرجل الثابت الواثق الدميم قد امتلك حياتها وجعل يسيرها وفق هواه و يتلاعب بها كيف شاء

هو اول رجل اخضعها وهو اول رجل اذلها وهو اول رجل يطالبها بما قد لا تجسر على تأديته احقر بغى ، ومع ذلك فهى تخافه وتحترمه وتقدر ثروته وتريد أن تظفر بهذه الثروة مهما كلفها الامر من تضحيات ...

هو الآن عشيقها . عشيقها الثرى الوجيه الذى لم يبق لها سواه . فهل فى وسعها اعتراض امره ، وهل تضمن بقاءه اذا ما ردته خائبا ، وهل تستطيع محاسنها الذابلة الأحتفاظ به وتحويل متجه أفكاره وشغافه من حبه الشائن الجديد ؟

انها لتشعر بعجزها المطلق عن هذا وتدرك حق الادراك ان من واجبها ان ترضخ وتسلم وتطيع . لا بد . لا بد من ذلك ... هو الان عشيقها وينبغى أن يصبح فى غد عشيق ابنتها والا انهارت حياتها وفقدت كل شىء !

وانطلقت فجأة ضحكة ناضرة عريضة وسمع وقع اقدام خفيفة تركض وتوسطت الشرفة بغتة فتاة مديدة القامة موردة الخدين زرقاء العينين مرسلة الشعر يفيض محياها غبطة وفتوة ومرحا ، وما أن وقع بصرها على الشيخ الأصلع يرمقها بعين شرهة وينهض لتحيتها حتى اختفت الضحكة فى صدرها وارتبكت ووقفت مبهوتة ثم استدارت وهمت بالخروج

لكن مدام لورانس قامت اليها وجذبتها من يدها ودفعتها بلطف نحو الشيخ فمدت اليه جوزفين يدا ترتعد وغمغمت ببضع كلمات وجلست بجوار والدتها وهى تخالسها النظر وتحاول جهدها كتمان عواطفها والتبسط في الحديث :

وكان البارون دى مارتيني لا ينفك يلاحق بعينيه كل حركة تصدر من الفتاة. كان يطيل التحديق الى شعرها اللامع المصقول وذراعها العارية الغضة وساقها الرشيقة المنسجمة ثم تحط عينه الظامئة على فمها المكتنز الدقيق فيتهلل وجهه وتزدحم غضونه وتنفرج عن ابتسامة كبيرة مزعجة بلهاء

واحست الفتاة كأن هذا الشيخ يعريها وينتهكها ويستعرض أعف خفاياها فتضايقت واضطربت وشاع فى نفسها ضرب من الذعر المتزج بالغضب والاباء فنهضت وهمت ثانيا بالخروج ولكن البارون شعر للفور بما يجول فى رأسها فضحك ملء شدقيه ولاطف خدها بيده وقام مستأذنا واعدا بالرجوع فى صباح الغد .

خرج يدب على الارض بعصاه محنى القامة مرتعش الأطراف . وتبعته مدام لورانس حتى الباب ، وقبل ان تودعه القت على ظهره معطفه ودثرته به جيدا والبسته قبعته ومشت به الى الدرج بضع خطوات ثم همست فى اذنه عبارة انتفض لها بدنه والتمعت عيناه .

ولما ان عادت الوالدة الى الشرفة ألفت ابنتها متكئة على الحاجز تنتظر مقدمها مرفوعة الرأس شاخصة البصر فى هيئة تنم على الجرأة والاستفزاز والتحدى .

لم تنبس مدام لورانس بكلمة بل اقتربت من ابنتها على مهل و وضعت يديها على منكبيها وثبتت نظرها فيها ثم تقطب جبينها الضيق وغشت وجهها سحابة جد وصرامة وعزم ، فاختلجت الفتاة وشعرت بالأصابع القوية تكاد تنشب فيها اظافرها. فصعدت نفسا مستطيلا واطرقت ، وحينئذ قالت الام بصوت غائر خافت :

— انه جاء لينقذنا ؟

فحملقت الفتاة وتراجعت ثم صرخت كمجنونة وهى تحاول التملص :

— كلا ... كلا ...

فلم تفقد الأم ثباتها ولم تضطرب بل القت على ابنتهـا نظرة شزراء وانحنت عليها . وفي لهجة آمرة قاطعة رددت :

— يجب ... يجب ان تقبلي ...

ولـكن الفتاة تملصت وعادت الى أقصى الشرفة وهى تصيح :

— ابدا ... ابدا ... افضل ان اموت ! نعم ... افضل ان اموت ! ...

فضحكت الأم ضحكة خرساء ثم لوحت بذراعها مهددة وقالت :

— احذرى ! ..

فعقدت الفتاة يديها خلف ظهرها واشرأبت بعنقها الى الفضاء الفسيح وأجابت :

— لن اخاف !

وما ان سمعت الام هذه الـكلمة وابصرت بارقة العزم تلمع فى عينى ابنتها حتى غلى الدم فى عروقها وكبر عليها تمرد هذا المخلوق الغبى وتعلقه بفضائل كان اتها كما سبب حياته ، فدنت من جوزفين وأمسكت بكتفها وجذبتها اليها فى عنف وراحت تلطمها بكفيها لطما قويا متواصلا ذهلت له الفتاة ولم تتحرك .

ولما شفت الأم غليلها صاحت بصوت لاهث متحشرج وهى لا تعى ما تقول :

— كل هذا الترف .. كل هذا الترف الذى نشأت فيه انما بعت نفسى لأهبه لك ، ولو انى لم اكن ملك الجميع لما تمتعت بكل هذا النعيم ... انت مدينة لى ويجب ان تطيعينى .. البؤس ينتظرنا وفى يدك انت خلاصنا منه .. لقد آن لك ان تشتغلى كما اشتغلت وتربحى كما ربحت وتجمعى الثروة التى شاء الحظ ان يسلبها منى .

فقالت الفتاة بلهجة هادئة وقد طوت ذراعيها على صدرها :

— لن استطيع !

فثارت ثائرة الام وصرخت وهى تقهقه :

— اجل .. تحبين جارنا .. ذلك الموظف البـائس الحقـير ! ... تؤمنين بالحب . ؟

— اجل اؤمن !

— الحب مع الفقر ؟

— لا فقر مع الحب !

— ايتهـا المسكينة . . اتعظى بى . . . اتعظى بحياتك . . . لو انى احببت رجلا

واخلصت له الحب لما كنت الآن أكثر من عاملة فى مصنع او موظفة فى مكتب او خادمة فى حانوت او معلمة صبية أو مربية اطفال .

— ليتنى كنت شيئا من هذا !

أنطلقت هذه الكلمات من فم جوزفين حارة متقدة صادقة تحمل من التوق والحسرة والألم الدفين ما بهر لورانس وافزعها فلم تمالك ان احتضنت فتاتها وجعلت تمرغ رأسها على صدرها وتقبلها وهى تغمغم :

— رحمة بى .. اريد أن أحيا .. فكرى لحظة في . لقد فكرت فيك طوال حياتى ! .

وانهمرت الدموع من عينى الام وتصاعدت شهقاتها وطفقت تعض شفتيها وتلوى يديها وتستعطف وتتوسل ولكن هذا الضعف زاد فى قوة الفتاة والهب عزيمتها واشعرها بمجد عفتها فتخلصت من بين ذراعى أمها وقالت كأنها تهمس أو تخاطب نفسها :

— كم انا ابغضكم . ! كم ابغض كل شيء هنا .. ما شعرت بهذا البغض إلا يوم احببت ! هذا الحب أيقظنى فعرفت من انت ومن انا ومع من اعيش و بأى مال اعيش وفى اى بيت .. لن اطاوعك ابدا ! .

ودفعت جوزفين امها فى عنف واتجهت نحو الباب ولكن لورنس تشبثت بها وصاحت :

— تريدين القضاء على ؟

فاجابت الفتاة بكل ما فيها من صراحة الشباب الاول وجرأته وبراءته :

— لا أريد ان احترف البغاء !

فامتقع وجه لورنس وجاش غضبها وبدت على محياها مظاهر السيادة والجبروت بأقسى مظاهرها فصرخت فى ابنتها صوتا صاعقا وهدرت :

— البارون دى مارتينى سيصبح فى غد عشيقك . هذه ارادتى ! .

ومشت اليها فانخلع قلب الفتاة وعاودها الشعور بعاطفة الرعب الشديدة التى طالما تملكتها ايام الطفولة حيال هذه المرأة ، فانكمشت وتقهقرت وانصرفت الى مخدعها بخطى كليلة متثاقلة

***

وجاء الليل واحتوى جوزفين الظلام والصمت ولم تستطع ان تنام فكرت فى يوم غد وفي القربان الذى عليها ان تقدمه راضية على مذبح الفجور ، ولاح لها طيف الشيخ الدميم وتصورت نفسها تتقلب بين ذراعيه الضامرتين فارتجفت واغمضت عينيها تحاول ان تطرد الرؤيا ثم لاح لها طيف الشباب النبيل هنرى صديقها وحبيبها الذى عاهدته على الزواج ورضى بها زوجا على الرغم من سمعة والدتها والعار المقرون باسم اسرتها فاشرق وجهها وانتعش فؤادها ودبت فيها قوى الحماسة من جديد .

ولفرط ما تخيلت حبيبها بجوارها واستعادت ذاكرتها العهود التى قطعتها على نفسها ، استهولت ما هى مقدمة عليه واستفظعت ما سيكون فى الغد منها ، فهبت من فراشها مذعورة وجعلت تروح وتغدو قلقة ملتاعة حائرة

كيف .. كيف الخلاص ؟ لا حياة لها فى هذا البيت ؛ من المحال ان ترضى بالتضحية، لقد استمتعت والدتها بمختلف الوان النعيم فلتتألم الآن ولتكفر ولتحتمل ؛ ولكن كيف السبيل الى الخلاص .. كيف السبيل الى الفرار من هذا البيت ؟ نعم . يجب ان تفر ... ان تسرع اليه .. الى هنرى .. انه جارها .. ان داره بالقرب منها . ليس لها فى الدنيا سواه . هو الذى فى وسعه ان يحميها . انه قوى وشريف ورجل

وما ان تملكتها هذه الفكرة حتى عمدت من فورها الى بعض اثوابها فطوتها داخل حقيبة صغيرة ثم ارتدت ملابسها وهى ترتعد واتجهت بخطى متلصصة نحو الباب

فتحت المصراع في رفق فصر صريرا مزعجا فتمهلت واصاخت السمع ، وكان الظلام مخيما والسكون عميقا فتشجعت وانطلقت فى المشى الطويل حتى واجهت الباب الكبير ففتحته وعندئذ اصطدمت حقيبتها بزهرية وضعت على منضدة فانقلبت وتحطمت ولكن جوزفين لم تحفل وهبطت الدرج مسرعة وما ان بلغت الحديقة حتى جعلت تعدو بملء قواها مدفوعة بنشوة الحرية والخلاص

وكانت فلورنس قد استيقظت على صوت الزهرية المتحطمة فلم تبالى ولم تترك

فراشها . ولكن حجرتها كانت مضاءة بمصباح كهربائى صغير يريق ضوءه السكابى على زجاج النافذة المغلقة ، فحانت منها التفاته فابصرت من خلال الاستار شبحا يعدو فى الحديقة ، فتبينته وللفور استشعرت الخطر وتأكدت ان ابنتها فرت من البيت وادركت انها فى طريقها الى منزل الشاب ، فطرحت عنها الغطاء ونهضت وارتدت على عجل ثيابها وخرجت هى الاخرى متجهة نحو منزل هنري

***

وسمع العاشقان طرقا متواصلا شديدا على الباب فتقدم هنرى وفتح لفلورنس فدخلت وهى تلهث والشرر يقدح من عينيها . ولما ان حاول الشاب تهدئة روعها والتلطف معها انتهرته واقصته عنها ثم اقتحمت الدار باحثة عن جوزفين وسرعان ما التقت الام والفتاة فى مخدع هنرى

وأشارت فلورنس الى ابنتها بالعودة معها الى البيت حالا ولكن الفتاة احتمت بحبيبها وتعلقت به وابت مغادرة الدار فاهتاجت الام وانقضت على ابنتها تريد الذهاب بها عنوة واقتدارا فتدخل الشاب وأمر فلورنس بالخروج فذهلت ولكنه دفعها الى الباب دفعا فلما شعرت بعزم العاشقين على النضال صاحت باعلى صوتها متهمة الشاب بمحاولة اغواء ابنتها واغتصابها فتألب عليهم الجيران واحتاطوا بهم وجعلوا يتغامزون ويتهامسون وينظرون الى الشاب نظرات الريبة والحنق والاستنكار ثم احدقوا به وفصلوه عن الفتاة وزجروها وتباروا جميعا فى خدمة مدام فلورانس جارتهم العظيمة الثرية صاحبة الضياع الواسعة والقصر المنيف ... ولما احست جوزفين انهم قد تغلبوا على حبيبها وانه حائر مضطرب لايدرى مايجب ان يفعل وان لابدلها من اللحاق بوالدتها ان طوعا وان كرها ، تصورت فى لحظة ماسيحل بها لو عادت الى البيت ، وتخيلت الحجرة القصية والفراش الكبير والشيخ الدميم يحتضنها فطاش صوابها وفقدت سلطانها على نفسها وامتدت يدها الى درج الخزانة الصغيرة الموضوعة بجوار سرير الشاب فاخرجت منه المسدس وصوبته نحو فلورنس واطلقت مرة واثنتين فصرخت الام صرخة هائلة وتهاوت على نفسها ثم سقطت جثة هامدة بين

ذراعي هنري !

***

وقضت المحكمة ببراءة جوزفين واستولى الدائنون على املاك فلورنس وتزوج العاشقان بعد عام ، ولكن العروس السعيدة ظلت شقية بالذكرى حتى وضعت طفلتها الأولى ودعتها فلورنس ، وعندئذ نسيت كل شيء وآلت على نفسها ان تجعل من فلورنس الصغيرة مثلا رائعا لما كان يجب ان تكون عليه فلورنس الكبيرة المنكودة الحظ

الغـــــيرة «١»

تزوج ارمان شنتال من جرمين بويسون وهو فى العشرين من عمره . ولم يكن قد عرف الحياة بعد ولااتصل باية امرأةولا شعر من نحو أيةفتاة بعاطفة الحب وكان مدرساً متوسط الحال يعيش فى حى قصى من أحياء باريس الفقيرة ، وينفق معظم أوقات فراغه فى المطالعة والتأمل والتفكير

ففى ذات يوم كاشفته والدة أحد تلاميذه برغبتها فى ان يعطى ابنها دروساً خصوصية مقابل مبلغ طيب من المال ، فرافقها أرمان الى بيتها وهناك تعرف الى أفراد أسرة بويسون فشاهد حياة جديدة لم يكن ليحلم بها

شاهد منزلا فخما شيد على أحدث طراز ، وتقاليد وعادات هذبها وصقلها فرط الادب والعلم ، وخيراً كثيراً وترفا عظيما وخمس فتيات مثقفات مرحات رحبن به وأكرمن وفادته واتخذن منه على مر الزمن صديقاً عزيزاً

وكان ارمان فتى رائع الجمال زاخر الحيوية ، اسمر الوجه فى شحوب فاتن ، عصبى المزاج ، حلو الحديث، اكسبه طول التأمل والتقشف ضربا من الرجولة القوية الواثقة

أعجب به الفتيات وتهافتن عليه وتسابقن الى خطب وده فذهل مما رأى وأحس فى نفسه مفاتن كان يجهلها فسر وابتهج واستسلم لتيار حياته الجديد .

الف الذهاب صحبتهن الى دور التمثيل والسينما . عرف بفضلهن الكوميدى فرانسيز والاوبرا ، وكان يجلس بجوارهن فى المقصورة الانيقة مرتديا ثوبه الاسود الرسمى الذى كلفه مرتب شهر كامل . وكان سعيداً وكانت والدة الفتيات تلحظ عليه هذه السعادة وتبتسم ابتسامة ماكرة خبيثة لم يفهمها ولم يحاول تعليلها

ولم يكن بين الفتيات الخمس اقدر من جرمين على التأثير فيه ، وجلب السرور

---

(١) مقتبسة عن جان مارليك

الى نفسه , ومحادثته فى مختلف فنون الادب والعلم . وكان يستريح اليها ، ويقضى الساعات الطويلة فى مساجلتها ، ولا يطمئن الا متى حضرت ولا ينصرف إلا باذن منها ولا يتولاه الأسى الا متى ابصرها تتلطف مع شاب غريب من اصدقاء البيت، أو تذهب إلى السينما بمفردها ، أو تقرأ كتابا لا تحفل بمعرفة رأيه فيه .

علمته كيف يتناول الطعام وفق آداب المادة ، وكيف يحادث السيدات العابسات الاستقراطيات ، وكيف يعقد ربطة عنقه وكيف يتأنق وكيف يرقص وكيف يروح ويغدو فى الصالونات .

وكانت جرمين أقل اخواتها جمالا واوفرهن ثقافة وأشدهن اعتداداً وكبرياء. فتاة فى الثلاثين من عمرها ، قصيرة القامه ممتلئة البدن ، مضطرمة الخيال ، كثيرة التصورات على وجهها المستطيل آثار الجدرى يلطف منهـا ويكاد يمحوها ذلك الجلال الساحر الذى يضفيه عليها ذكاؤها المتقد وسرعة خاطرها ، وبساطة مظهرها، وكبرياؤها الشامخة المهيبة

لم يحبها ارمان ولكنه اعجب بها اعجابا عقلياً خالصا توهمه حباً ففكر فى الاقتران بها . وداعبت هذه الفكرة خيـاله ، وراق له وهو الشاب الفقير الخامل الذكر أن يرتبط بأسرة تعلى من شأنه وتمنحه مكانة اجتماعية ملحوظة يزهو بها على أقرانه

وكانت مدام بويسون تسعى جهد الطاقة لتزويج بناتها وتقيم المآدب والحفلات لتعرض على الشبان بضاعتها ، حتى استطاعت العثور على خطيبين لابنتيـها الصغيرتين روزيت ومرجريت

أما جرمين فقد كادت تيأس امها من وجود زوج لها بعد ان أشرفت على الثلاثين وأوشك تقدم السن ان يذهب بالبقية الباقية من رونق شبابها .

لذلك غضت الطرف عن علاقة جرمين بارمان ومهلت لها سبيل التعارف والتفاهم واختصت الشاب برعايتها وتوددت اليه وشجعته من طرف خفى فلم يتردد وطلب اليها يد ابنتها فأجابته الى سؤله وعقد الزواج ومنح ارمان بأئنة تقدر بعشرة الاف فرنك

***

واستطاع الشاب الفقير أن يتذوق حلاوة الحياة ويعيش في بيت جميل ويحس شيئا من رخاوة الترف وينعم لأول مرة بجسم امرأة .

ولكنه كان جميلا وكانت جرمين أقرب الى الدمامة منها الى الجمال

كان فقيراً وكانت غنية

كان من وسط خامل وكانت من اسرة رفيعة

كان شابا فى مقتبل العمر وكانت تكبره بعشر سنوات

هذه العوامل مجتمعة ضاعفت كبرياءها وزادتها اعتداداً بنفسها وولدت فيها نوعا من التبجح والغطرسة سرعان ما استحال الى حب متمكن مستبد عنيف تلهبه غيرة قاسية عنيفة طائشة

رأت السيدات والاوانس يغبطنها على حظها السعيد

لاحظتهن ينظرن الى زوجها نظرات جسد واغراء .

ابصرته وقد بهت لما طرأ على حياته من انقلاب ، يشعر بشخصيته ويفطن الى جماله ، ويتقرب إلى النساء ، ويلتذ مجالسهن ويضحك ويقهقه ويمزح كالأطفال .

وكانت نفس ارمان مغلولة فحل وثاقها فانطلقت تلهو غير حافلة بشيء . ولكن هذا اللهو كان بريئا ينبع من روح صافية وقلب سمح وعواطف أمضها الحرمان الطويل فتاقت الى المرح والنسيان والحرية

لم تفهم جرمين سر هذا التطور وخيل اليها ان زوجها أصبح يراها على حقيقتها ، ويحس الفارق بين شبابه ومطلع كهولتها وينكر فضلها عليه ، وينسى خموله وفقره ويطمح بأبصاره الى سواها ، ويتمرد عليها ، ويحاول ان يجعل منها والدة وخادمة وقعيدة بيت .

وساعدها خيالها الملتهب ومبالغتها فى تصور الاشياء واعتدادها بمالها واحساسها بدمامتها على تجسيم كل حركة وكل لفتة وكل كلمة تصدر عن ارمان فتأصلت فيها الغيرة واشتعلت نيرانها وغدا البيت جحيما لا يطاق .

كان لا يكاد يخلو بامرأة فى مجتمع عام يحادثها فى شأن من الشئون حتى تباغته جرمين وتنتهره وتجذبه من ذراعه فى عنف ودون ما استئذان .

كان لا يبتسم لفتاة الا وتتهمه بمحاولة اغوائها ، ولا يسر كلمة الى سيدة الا وتعتقد انه على موعد منها ، ولا يتغيب عن البيت لحظات الا وتستقبله عابسة الوجه مقطبة الجبين ثم تأخذ فى طرح شتى الأسئلة عليه تستفسر عما فعل فى نهاره ، وأين كان ومع من ، والى أى قهوة ذهب وأى الأسر والمعارف زار ، وهل التقى هناك بآنسة أو سيدة ، وماذا قال لها ، وما كان موضوع الحديث ، وهل كانت زيارة قصيرة أم طويلة ، وما تزال به تحاوره وتداوره وتضيق عليه الخناق وترهقه بالأسئلة حتى يعيل صبره ويعز عليه كيف تشك فيه وترتاب فى مسلكه وتنسب اليه ما هو منه براء فتثور اعصابه فيزجرها ويصرخ فتصرخ هى ايضا ويحتدم الجدل بينهما وينتهى الأمر بان تقبع جرمين فى زاوية وتبكي . فيهرع اليها ارمان مضطربا قلقا حائراً يستعطفها ويطيب خاطرها ويشهد الله على اخلاصه لها وحبه اياها واعترافه بجميلها فيتهلل وجهها وتشرق تقاطيعها وتبتسم وتقبل عليه توسعه ضما وتقبيلا كعاشقة مفتونة والهة !

تلك كانت حياتهما : شك متواصل فعتاب مر فثورة عاصفة فتضرع واستصراخ وعويل .

وخيمت الكآبة على البيت وشاع الحزن فى نفس ارمان وتجهم وجهه وتغضن جبينه وجثم الهم على صدره وزايله الفرح القديم . أما جرمين فاغتبطت بهذا الأسى واعتبرته فوزا لها فضاعفت اهتمامها بزوجها واسرفت فى اظهار الحب له فلم يزدد الا تبرماً بها وسخطا على اخلاقها واستنكاراً لغيرتها واحتقارا لحبها وأسفا على ما انتهت اليه أحلام الدعة والهناء .

كان شقياً بها وكانت سعيدة بهذا الشقاء الذى يخضعه لها ويمكنها منه ويفرض سلطانها عليه ويتيح لها فرصة اسعاده بنفسها في دائرة البيت وبين أحضانها ، بعيداً عن ضجة المجتمعات فى هدأة مخدع الزوجية الساكن الأمين

وكان أرمان يشعر منهـا بهذا الفوز المبتهج فيتأجج حنقه وتلتهب كبرياؤه ورجولته وتتولد فى نفسه شيئا فشيئا عاطفة اشمئزاز عميقة يمازجها الضجر واليأس والبغض

اغضبت صديقاتها جميعا . كفت عن الزيارات لئلا تزار ، الغت ايام المقابلة ، باعدت بينه وبين النـاس ، ضيقت افق حيـاته ، أرادته لنفسها فقط ، ارغمته على الاكتفاء بهـا كما تـكتفى هى به ، وكانت فى كل هذا تتململ بعظيم حبها وتنتظر منه ان يفهم هذا الحب وان يشعر به ويلمس دلائله ويقدر ما انطوى عليه من رائع التضحية والاخلاص

اما ارمان فكان يود لو تبغضه وتزدريه وتهمله وتنصرف الى غيره وتدعه يستريح ولـكنها تشبثت به وقنعت من الحيـاة بقربه وراحت تفتن فى استرضائه وتتهالك على الظفر بابتسامة واحدة منه .

وأحس الشاب أن حبها الشديد يخنقه وعطفها البالغ يهتاجه ، واخلاصها الأحمق يجرده من كل سلاح ، فتمنى لو لم يتزوج ولعن الساعة التى استحوذ عليه فيها سحر الترف والمال فانتزعه من بيئته وأحفظه على اهله واستلب منه كرامته واحاله عبد امرأة

أجل . شعر انه مستعبد لهـا فى احساسه ، مستعبد فى حياته المادية ، مستعبد فى غدوه ورواحه ، ونظرته وابتسامه ، وحركته وهدوئه ، وصمته وحديثه ، والاعوام المقبلة الطويلة التى سوف يقضيها هنا ... فى هذا البيت المقفر كصحراء ، الموحش الضيق كسجن ، بجوار هذه المرأة الثائرة المجنونة التى ذهبت بعقلها الغيرة وحل فى قلبها الشر محل الحب

وبات ارمان يفزع منها ، ويرتعد لمرآها ، ويجفل لسماع صـوتها ، ويذعر لقلبها كأنها شيطان !

وحينئذ عرضت له المخلوقة التى طالما تصورها فى أحلامه وفكر فيها واشتهاها على الرغم منه . فتـاة تدعى هنربيت سوداء الشعر متألقة البدن وديعة فى شبه خوف وحذر ، رقيقة فى حياء ، ساذجة فى بلاهة معبودة كبلاهة الاطفال

ما ان رآهـا ذات صباح فى احد محـال الازياء تخطر أمام الزبائن عارضة ثوبا أبيض طريفا مكشوف الصـدر مزركش الاطراف يبرز تقاطيعها وينسكب عليها كوهجة ناصعة من نور ، حتى افتتن بها وجن جنونا .

أحبها بكل ما فى نفسه من فضيلة مكبوحة وسخط كظيم

احبها بقدر ما فى قلب زوجه من غيرة عليه

احبها ليثأر لنفسه و ينتقم من جرمين و يحقق شكها فيه

وجعل يتردد على المحل ويبتاع أشـياء عدة و يلاطف الفتاة ويستدرجها حتى ركنت اليه وعطفت عليه .

تعلق بها كالغريق ، وخدعها وغرر بها واوهمها أنه سرى وانه أعزب ومناها بالزواج . وكانت عذراء بائسة نقية تشتغل لتعول أما ضريرة وأربعة أطفال ، فخيل اليها أن السعادة أقبلت فطاش صوابها وتداعت فانتهكها بلا وازع من خلق او ضمير !

* * *

وانقلب ارمان مخلوقا شريرا كزوجه . انسانا ما كرا غادراً خبيثا لا يمت بصلة الى الشاب المتأمل الهادىء القديم

ايقظه استبداد الغيرة على حياة جديدة فيها من لذاذات البدن ومناعم الشهوة المتبادلة ما لم يشعر به فى أحضان زوجه

أحس فجأة أنه حر وان فى وسعه ان يصرع تلك المرأة و يذلها كما أذلته ويسخر منها ويتلاعب بها كيف شاء .

ولقد خطر له أن يصارحها بما كان و يعذبها كما عذبته ويلهب فى صدرها هذه المرة غيرة فاتكة يزيدها الواقع حدة وأشتعالا ولكنه كان قد الف النعمة واستمرأ الترف واستعذب رخاوة العيش . فخاف ثورة جرمين وخشى أن يفقد كل هذا فآثر الصمت والكتمان وعول ان يحتفظ بالمرأتين الزوجة والعشيقة مهما كلفه ذلك ومهما احتمل فى هذا السبيل من واجبات بغيضة مرهقة ..

ودهشت جرمين اذ أبصرت زوجها يحسن بغتة معاملتها ويعدل من تلقاء نفسه عن السهر خارج البيت اطلاقا ويجلس اليها و يبادلها الحديث فى شتى الموضوعات ويهتم بشؤون المنزل قدر اهتمامها ويتبرم بالزيارات والمقابلات ويعكف ساعات فراغه على المطالعة كما كان شأنه فى الايام الأولى من زواجهما

وكان يخاطبها فى رقة ولطف ، ويستفسر دائما عن صحتها ، ويبتاع لها أجمل الجوارب والقبعات ويتخير أحدث الاقمشه لأثوابها وينصح لها باتباع المودة ولا ينفك يردد عليها انها صبية وانها جميلة وان امرأة مثلها جديرة بأن تبدو فى أبدع حلة وأفتن زينة

وأصبح يرافقها عن طيبة خاطر الى المسارح ودور السينما و يسألها رأيها فى الروايات والافلام الجديدة ، وينصت الى ملاحظاتها ، و يعلق عليها ، و يظل يهمس فى أذنها طوال مدة التمثيل وهى تبتسم وهو منكمش بجوارها ملتصق بها كعاشق موله فى أول عهده بالغرام

ولم يكتف ارمان بهذا كله بل تغلب على نفسه وكبح من نفوره واشمئزازه وقام ايضا بواجباته الزوجية على خير وجه ، فبهتت جرمين لهذا التبدل الطارىء واختبلت بهذه السعادة الهابطه ، ولفرط ما شعرت بالهناء يغمرها من كل صوب ، ومظاهر الحب تحوطها وتجللها وتبعث فى جسمها وعقلها ذكريات ليالى العرس الأولى ، فقدت رشدها وآمنت بالنصر واعتقدت ان زوجها المعبود أصبح ملكها فلم تفكر فى سر انقلابه ولم تخطر على بالها لحظة وجوب تعليله وتوهمت ككل امرأة ان محاسنها هى التى أخضعت الرجل لها وان حبها وإخلاصها وحنانها هى التى ردت الى احضانها ذلك الزوج الفتي الجميل

وتألقت وازدهرت فجأة وانسكب عليها جمال السعادة الرخو المحرض الشهى فعجبت اخواتها مما طرأ عليها ، وتبارين فى اطرائها وحسدنها على حظها الزوجى ، فاحست جرمين ان زوجها خلقها خلقا جديدا وان كل فضائل الانوثة لو جمعت

وقدمت لارمان لما استطاعت ان تفيه بعض حقه فى الهناء والحب

وكان ارمان فى غضون ذلك يعاشر الفتاة هنرييت ويراسلها وتراسله ويلتقى بها فى منزل صغير فى الضواحى ويمنيها كعادته بالزواج القريب ويأخذ من زوجه لينفق عليها ، آمنا مطمئنا رخي البال لا يزعجه شيء ولا يحفل بشيء .

وانقضت اشهر طويلة على هذه الحال وفى صباح يوم من ايام الربيع والجو صحو والطبيعة ضاحكة والشمس ترسل اشعتها الساطعة الى غرف البيت فتكسوها بهجة ونضرة ، دخلت جرمين غرفة مكتب زوجها — وكان خارج المنزل — وشرعت ترتب الكتب والأوراق وتنظفها مما علق بها من غبار وانها لمنهمكة في عملها وقد انطلق من صدرها نغم مطرب رخيم سمعته بالأمس فى أحد المسارح واذا بها تلمح عقدة مفاتيح سقطت سهواً من جيب زوجها ملقاة على الارض هناك بجوار المكتبة فمشت اليها والتقطتها والقت بها فوق المكتب دون اكتراث

واستطردت الغناء وجعلت تروح وتغدو فى الحجرة كأنها ترقص . ثم استدارت فلمحت المفاتيح ثانية فصمتت وخطر لها خاطر فجائى . وسرعان ما مدت يدها وتناولت المفاتيح واخذت تعالج أدراج المكتب وهى تغنى وتبتسم

وما ان فتحت الدرج السادس والاخير حتى طالعتها منه صورة فتاة رائعة الجمال غارقة بين أكوام من الخطابات المعطرة الزاهية الالوان

ذهلت جرمين واختنق النغم فى صدرها وأكبت على الدرج تفحص الرسائل ، ولم تكد تقرأ منها بضع سطور وتتأمل التوقيع والتاريخ حتى جحظت عيناها واحتبست انفاسها وصرخت صرخة هائلة ثم وقعت مغشيا عليها .

ولم يكن في البيت انسانا . فظلت جرمين منطرحة على الارض فترة طويلة ولكنها ثابت الى رشدها بعد حين وذكرت ما وقع فأنت انين مطعون واجهشت بالبكاء .

ولما ان هدأت وعادت تستعرض فى سكون ما حدث لمعت عيناها وتفضن

جبينها واستيقظت فيها المرأة الجبـارة القديمة فلم تتردد وقامت من فورها وملؤها العزم وجمعت الخطابات والصورة واودعتها محفظتها ثم ارتدت ثيابهـا والقت على البيت نظرة وداع وخرجت متجهة نحو منزل والدها .

***

وبعد عدة اشهر صدر حكم الطلاق فوقع على ارمان كالصاعقة ، فكان يتجول فى الشوارع كمعتوه حتى يستقر به المطاف الى حيث بيت الزوجية الجميل فيتطلع اليه طويلا ثم يبكى أسفا وحسرة ويلعن جرمين ويذكر انه عاد فقيرا كما كان !

للمؤلف

الادب الحى

الادب الحديث

الفكر والعالم

صوت الجيل